محمد يونس هاشم

متى يثور المصريون

الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ

الناشر
دار زهور المعرفة والبركة
٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة

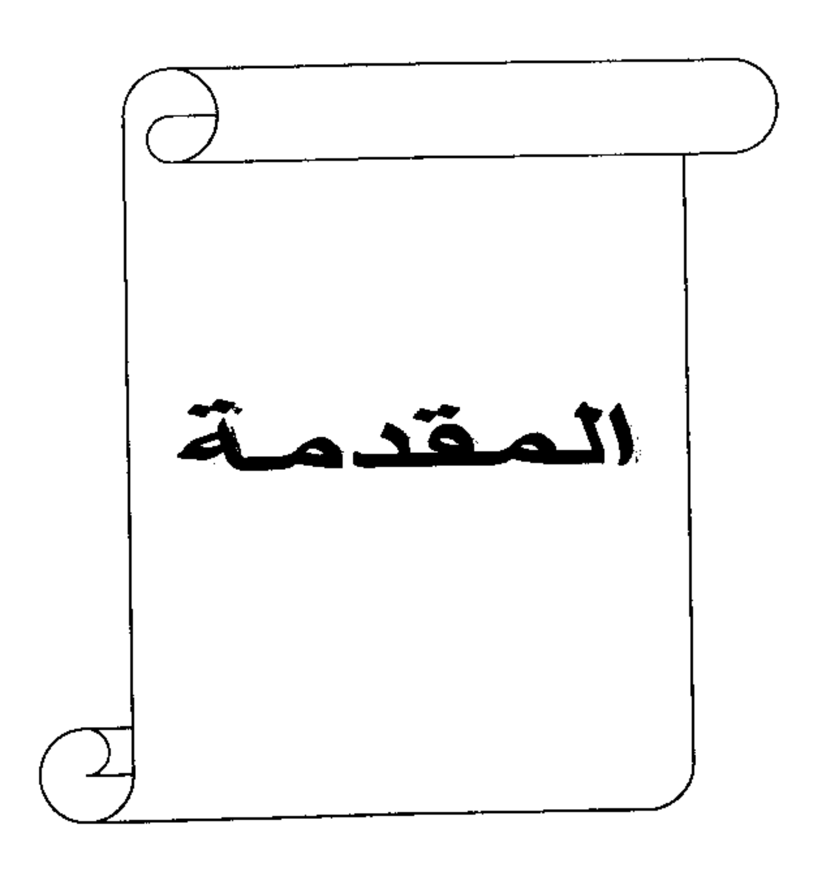
الطبعة الأولى
٢٠١١-٢٠١٢
2011-2012

اســـم الكتاب : متى يثور المصريون
المـــؤلـــف : محمد يونس هاشم
الناشـــــر : دار زهور المعرفة والبركة
رقـم الإيداع : ١٧٨٩٥ / ٢٠١١
الترقيم الدولي : 978-977-5172-06-8
المستشار الثقافي والإعلامي: **الأستاذ محمد يونس هاشم**
مدير النشر : **أسامة عبد الرحمن**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هاشم، محمد يونس.
متى يثور المصريون: الشخصية المصرية والثورة عبر التاريخ/ محمد يونس هشام. – الجيزة: دار زهور المعرفة والبركة، ٢٠١١-١١-٠٢
ص، سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٥١٧٢٠٦٨
١-مصر – تاريخ – الثورات
٢-مصر – تاريخ – العصر الحديث – ثورة ٢٥يناير
أ- العنوان: ٩٦٢

الطبعة الأولى
٢٠١١-٢٠١٢
2011-2012


المقدمة

المقدمة

اشتهر المصري بالتدين ، والطيبة ، والتسامح ، وكراهية العنف ، وحب الاستقرار، والرضا بالقليل .

وهذه الصفات النبيلة ، مع الأسف ، جعلت كثيراً من المؤرخين ، قدماء ومحدثين ، يتهمون المصريين بالضعف ، وقبول الذلّ والهوان ، والخضوع للقوي ، " وأنهم عبيد لمن غَلَب " ، و " أنهم يتسمون بأخلاق العبيد " .

والمتتبع لتاريخ مصر المديد يجد أن المصري طيب القلب ، هادئ الطبع ، لا يميل إلى العنفِ ولا الثورة بل يميل إلى الاستقرار والهدوء والالتزام بالشرعية والقانون. ومع ذلك فالمصري لا يقبل أبداً أن تهان ديانته أو تنتهك كرامته أو تنهب ثروته .

هذه مقدسات ثلاثة لم يسكت الشعب المصري طوال تاريخه عن انتهاك إحداها.

نعم شعب مصر شعب مسالم يكره الحرب ويحب السلام لأنه شُعب مؤمن يبغض سفك الدماء ، ويعشق الإصلاح والبناء ، لكن إذا كتب عليه القتال ، وهو كره له ، قاتل وانتصر . وإذا انتهكت كرامته ، أو اعتدي على قُوته ثار وانتقم .

وليست هذه شعارات جوفاء يتشدق بها المصريون في معرض الفخر والمباهاة إنما هي حقائق راسخة ، ومبادئ ثابتة . تشهد عليها حقائق التاريخ ، وواقع الدهور .

وهذا الكتاب يتكون من خمسة فصول ، في الفصل الأول دراسة للشخصية المصرية كما تبدت في كتابات الذين تحدثوا عن شخصية مصر من الباحثين والكتّاب .

وفي فصول الكتاب الأربعة الأخرى استعراض للثورات المصرية عبر تاريخ مصر: القديم ، والوسيط ، والحديث ، والمعاصر ؛ لبيان هل الشعب المصري شعب جبان وضعيف وعبد لمن غلب كما وصمه الكتاب والباحثون ؟ أم أنه شعب حر أبي يبذل روحه رخيصة دفاعاً عن قدسية دينه ، وصون كرامته ، وحماية لقمة عيشه؟

محمد يونس هاشم

٦/ ١٠ / ٢٠١١

الفصل الأول

الشخصية المصرية والثورة



الفصل الأول

الشخصية المصرية والثورة

تحدث مفكرون وكتّاب مصريون كثيراً عن الشخصية المصرية وأهم السمات التي تتميز بها وقبل أن نعرض هذه السمات التي تميز الشخصية المصرية يجب أن ننوّه أن هذه السمات بشكل عام لا تعني – بالضرورة – أن كل المصريين يتصفون بها في حياتهم ومواقفهم طول الوقت " فالنمط المثالي كما هو معروف ليس حقيقة إمبريقية (تجريبية) أو قانونا علمياً ، وإنما هو أداة تحليلية تهدف إلى عزل بعض جوانب الواقع بهدف إبرازها حتى يتسنى إدراكها بوضوح ، ومعرفة أثرها على الواقع . " (١)

د.زكي نجيب محمود ، وطبيعة الشرق الفنان

يشبه د. زكي نجيب محمود الشرق بالفنان الذي " يدرك العالم بروحه لا بعقله أما الغرب فطابعه الأصيل العميق هو النظر إلى الوجود الخارجي بعقل منطقي تحليلي يقف عند الظواهر مشاهداً لها وهي تطرد وتتابع على هذه الصورة أو تلك فيجعل من هذه الاطرادات في الحدوث قوانين يستخدمها بعدئذ في استغلال الظواهر الطبيعية على النحو الذي يرضيه ولا بد لمثل هذه النظرة من السير في خطوات استدلالية تنتزع النتائج الصحيحة من مقدماتها الصحيحة وتلك هي نظرة العلم وهذه التفرقة التي تجعل من الشرقي فناناً يدرك الحقيقة بذوقه ومن الغربي عالماً يدرك الحقائق بالمشاهدة والتجربة والتحليل والتعليل لا تنفي بطبيعة الحال أن يكون في الشرق علماء ، ولا أن يكون في الغرب رجال دين وفن لكننا نطلق القول على وجه التعميم الواسع الذي يفسر بعض التفسير ما هو شائع على الألسنة من وصف الشرق بالروحانية ووصف الغرب بالمادية . " (٢)

---

(١) محمد عاطف غيث " قاموس علم الاجتماع " .

(٢) د. زكي نجيب محمود " الشرق الفنان " ص ٤ الهيئة العامة للكتاب .

فالعربي عامة والمصري خاصة عند د. زكي نجيب محمود تحركه عواطفه وأهوائه لا عقله وعلمه " وماذا ينقص العربي أكثر مما ينقصه من مثل هذه القدرة على التفرقة بين حقائق الدنيا الواقعة من جهة ، وبين انطباعاته هو بتلك الحقائق من جهة أخرى ؟ وليس العيب هو أن يكون للإنسان أهواؤه بالنسبة لمن يصادفه في عالم الأشياء ، فيحب ما يحب ويكره ما يكره ، ولكن العيب كل العيب هو أن نخلط بين الجانبين ذلك الخلط الذي يجيز لنا أن نتحدث عن أوهامنا وأحلامنا، ثم نظن أننا أنما نتحدث عن أمور الواقع " [1]

د.أحمد عكاشة ، المصري بين عصور الاستعمار والاستحمار

يرى د. أحمد عكاشة الرئيس السابق للجمعية العالمية للطب النفسي أن : " ما يميز الشعب المصري عن باقي شعوب العالم هو الدفء العاطفي، وتقبله لكل المحن بنوع من السخرية وكأن الحياة بالنسبة له فترة انتقالية فقط، فالمصري لديه القدرة على أن يتجاوز ذاته ويعاون الآخر في شهامة، بشرط أن يساعده المناخ العام على ذلك . " [2]

وعن السلطة في مصر قال د. عكاشة : " قد عشنا في عهد الاحتلال الأجنبي في عصر "استعمار"، وعلى يد أبناء جلدتنا عشنا عصر" الاستحمار"، نظراً لتهميش قيمة رأي الفرد وهذا الأمر يبدأ منذ سنوات الطفولة الأولى .. إن الحاكم لدينا يحاط بمنافقين، فنحن من نصنع الأسطورة ونؤله الحاكم فيما يوصف بأخلاق العبيد ، فالمحيطون بالحاكم أو المسئول يمنعون عنه كل الآراء الصريحة التي قد تحمل نقداً له، فضلاً عن القمع والكبت لكل رأي حقيقي لا يتوافق مع الحاكم." [3]

---

(1) د. زكي نجيب محمود " ثقافتنا في مواجهة العصر " دار الشروق ص ١٥٨ .
(2) د. أحمد عكاشة برنامج " أحلام حقيقية " أذيع على قناة المحور الأحد ١٣ / ٢ / ٢٠١١ .
(3) نفسه .

د . محمد المهدي ، الثبات النسبي لسمات الشخصية المصرية

أما د. محمد المهدي (١) فله دراسة قيمة عن الشخصية المصرية (٢) أهم ما جاء فيها هو : إن السمات الأصلية غير القابلة للتحريك التي تميز الشخصية المصرية : الذكاء ، والتدين ، والطيبة ، والسخرية ، تذوق الفن ، وعشق للاستقرار ، والميل إلى الوداعة والطمأنينة ، والهدوء وطول البال ، والدعابة والمرح ، والتفاؤل ، والوسطية وحب الحياة .

وقد أدى إلى الثبات النسبى لهذه السمات ارتباطها بعوامل جغرافية ومناخية مستقرة نسبيًا .

وقد حدثت تحولات نوعية في بعض السمات وتحولات نسبية في سمات أخرى ، فمثلاً استخدم البعض ذكاءه في الفهلوة ، وتعددت صور التدين بعضها أصيل وبعضها غير ذلك ، وقلت درجة الطيبة وحل محلها بعض الميول العنيفة أو العدوانية الظاهرة أو الخفية ، وتأثر الجانب الفني في الشخصية تحت ضغط التلوث والعشوائيات ، وزادت حدة السخرية وأصبحت لاذعة قاسية أكثر من ذي قبل وأحياناً متحدية فجة جارحة ، أما عشق المصري للاستقرار فقد اهتز كثيراً بعدما أصبحت البيئة المصرية طاردة نحو الخارج بحيث أصبح حلم كثير من الشباب السفر إلى أي مكان لتحقيق أهدافه بعد أن أصبح متعذراً تحقيق الآمال والأحلام على أرض الوطن .

وشعور المصري الزائد بالطمأنينة والسكينة وصل به في بعض الأحيان إلى حالة من الكسل والتواكل والسلبية والتسليم للأمر الواقع ، والميل إلى الاستقرار الذي يصل أحياناً إلى حالة من الجمود .

فالشخصية المصرية مثل الطبيعة المصرية لا تتغير بسهولة ولا تتغير بسرعة ، بل تميل إلى الاستقرار والوداعة والمهادنة وتثبيت الوضع القائم كلما أمكن والتصادق معه وقبوله .

---

(١) د. محمد المهدي: رئيس قسم الطب النفسي – كلية طب دمياط – جامعة الأزهر عضو مجلس إدارة الجمعية الإسلامية العالمية للطب النفسي مستشار التحرير بمجلة النفس المطمئنة .

(٢) هذه الدراسة بعنوان " الشخصية المصرية " وقد نشرها د. محمد المهدي على شبكة الإنترنت.

وهذه الصفات قد خدمت إلى حد كبير كل من حكموا مصر على مدار التاريخ حيث كان ميل المصري للوداعة والطمأنينة والاستقرار يفوق ميله للثورة والتغيير ، وربما يكمن هذا العامل وراء الحالة المزمنة من الحكم الاستبدادي على مدار التاريخ المصري ، فقد كان الحاكم يبدأ بسيطاً متواضعا ثم بطول المدة واستقرار الأوضاع تتمدد ذاته على أرض الوادي الخصيب وسط أناس طيبين مسالمين وادعين ، وشيئا فشيئاً تتوحش هذه الذات الحاكمة وتحكم قبضتها على رقاب الشعب، والحاكم يعرف دائماً أن الشعب المصري لا يميل إلى الثورة خاصة في أشكالها العنيفة .

فخلو الطبيعة المصرية – نسبيّاً – من الزلازل والبراكين والنوّات والأعاصير الجارفة يقابله ميل شعبي لاستمرار الاستقرار واستقرار الاستمرار ، وهذا شعار يرفعه كل حاكم استبد بحكم مصر واستغل هذه الرغبة الدفينة لدى المصريين في الاستقرار والوداعة وراحة البال .

وحين كانت تشتد بهم الخطوب نتيجة عسف الحاكم الأجنبي المستبد والمستغل كانوا يستعينون بالنكات اللاذعة والسخرية لتخفيف إحساسهم بالمرارة مما يعانون ، وكان سلاح السخرية يؤجل الثورة وربما يجهضها لأنه يعمل على تنفيث الغضب الكامن . (١)

د.نعمات أحمد فؤاد ، والسمات السلبية للشخصية المصرية

لقد رصدت د. نعمات أحمد فؤاد السمات السلبية للشخصية المصرية فوجدت أن أهم ما يميزها :

١- **الفردية المتضخمة المريضة** . إن الشخصية وعي بالقيمة أما الفردية فوعي بالذات ، والوطنية ليست أخذاً بل التزاماً بالإضافة الخلاقة إلى رصيد الوطن من القيم .

٢- **السلبية** ، فالمواطن المصري يلذ له أن يحترف النقد والثلب كأنه خُلِق كاملاً. إن الذي يرى عيوب الناس دون عيوبه إنما هو في الحقيقة يرى عيوبه مكبرة ، كبّرها هو ليستريح حين يقنع نفسه أنه الأفضل .

---

(١) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " مرجع سابق .

٣- **سوء فهم التقدم والتخلف** حين يحصرهما في الوسائل والموضة . إن التقدم يقاس بأن المجتمع إذا غاب فيه فرد لا يملأ مكانه أحد ، والتخلف أن يعدم الإنسان المسئولية ، ويسلم أو يطلب التبعية ، أن يسلم الإنسان نفسه لإنسان مثله يطعمه ويسقيه ثم يدفنه في النهاية ، فرد في قطيع وراء الراعي .

٤- **التواكل أو الاتكالية** نقول " إن شاء الله " ونعني في قرارة نفوسنا التخفف من العمل المقصود .

٥- **فقير النفس** : كثير من بيوتنا مفروشة ونفوس أهلها خالية خاوية مهجورة لم تفرش لم تعمر بالقيم الحقيقية .

٦- **الفخر بأنفسنا** إلى حد الطنطنة أو التهوين من أنفسنا إلى حد فقدان الثقة ، وفي الحالين تهتز الرؤية ويضطرب الحكم الصحيح على الأشياء .

٧- **لا نثق في ديمقراطية الحكم** لأن الديمقراطية أساسها ثقة الفرد بنفسه وبكيانه وبحقه ، وقد أُميتَتْ هذه المعاني في نفس الإنسان المصري . وليس من السهل أن تطلب من المطحونين بين يوم وليلة أن يفهموا هذه المعاني ؛ فتطلع الكثيرون إلى الآخرة تهرباً من الدنيا .

٨- **الكسب بأي وسيلة** مشروعة كانت أو وغير مشروعة ، ما دامت المسألة غلاباً فلا توازن بين الفرص وإنما الغرض هو الوصول من أقصر الطرق ، والنتيجة الحتمية لذلك إيجاد نظام الطبقات تحت أسماء مختلفة ، إيجاد طبقة غالبة وطبقة مغلوبة ، والأثر الطبيعي لهذا كله أن تنقطع الصلة بين طبقات المجتمع وتتلوث الحالة النفسية للشعب فلا ثقة نفسية تقرب بعضه إلى بعض أو تشيع فيه التعاطف النفسي فيتدافع إلى شيء من تواد أو تراحم يخفف من حدة غرائز التملك والاقتناء والسيطرة السائدة فيه .

٩- **الطابع الغيبي في التفكير** والذي يتمثل في قولهم عقب كل شيء .. هكذا أراد الله . فالحيرة والقلق النفسي ينتهي إلى التفويض والتسليم بقضاء الله .

١٠- **الحزن الشديد عن الموت** والإتيان بما لا يفعله شعب آخر من الشعوب . الحياة كلمة غامضة مبهمة وكذلك الموت . (١)

---

(١) انظر شخصية مصر د. نعمات أحمد فؤاد الهيئة المصرية للكتاب من ٢٧٩- ٢٨٥ .

الخضوع أمام السلطة وزيادة العنف البيني

ويفسر د. محمد المهدي ظاهرة انتشار العنف بين المصريين بقهر الحكام لهم فعندما يشعر المصري بتسلط من هو فوقه يحاول أن يمارس التسلط على من هو دونه : " والخضوع أمام السلطة يقابله زيادة في العنف البيني أو التحتي وإزاحة العدوان ، فهذا المصري الذي يخضع لسيده ، بل وينسحق أحياناً تحت قدميه ، نراه يمارس عنفاً مباشراً أو غير مباشر مع من حوله من زملائه أو جيرانه أو من يقصدونه لقضاء مصالحهم (إن كان موظفاً) ، وفى البيت نجده يمارس العنف ضد زوجته وضد أولاده , وكأنه يعمل على إزاحة عدوانه من السيد الذي يقهره ولا يقدر عليه (أو لا يريد أن يكلف نفسه عناء مقاومته) إلى أناس آخرين يجد في نفسه القدرة عليهم ، وهذا يحيل الحياة المصرية المعاصرة إلى حالة من العدوان الظاهر (السباب والمشاجرات في الشارع والسوق ، والاعتداء اللفظي والجسدي على الزوجات والأبناء) ، والعدوان السلبي : اللامبالاة والكسل والتراخي وتعطيل المصالح والمكايدة والتجاهل . " (١)

الشخصية المصرية وأنيميا الغضب الإيجابي

علماء النفس والاجتماع رصدوا حالة الثراء في مشاعر المصري، سواء في الفرح أو الحزن أو الغيرة، أو الغضب البيني، إلا فيما يتعلق بمشاعر الغضب العام، فهناك شعوب عندما تنتهك كرامتها أو تهدد لقمة عيشها تغضب، ويحصل غضب توافقي يبعث على الإصلاح والتغيير .

المصريون لا يملكون هذا الغضب العام، كأنهم مصابون بأنيميا الغضب، والمقصود بالغضب العام الغضب الإيجابي الذي لوحظ في دول مثل إيران، عندما حدث نوع من الشك في نزاهة الانتخابات الرئاسية الأخيرة، ماذا حدث في الشارع الإيراني.. سنة كاملة من الغضب، الأمر نفسه حدث في باكستان ورومانيا وفى تشيكوسلوفاكيا وأوكرانيا .

---

(١) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " مرجع سابق .

الغضب العام يؤدى إلى تغيير، ولكن المجتمع المصري للأسف الشديد ليس لديه مشاعر الغضب العام، يغضب داخل أسرته أو مع أصدقائه وجيرانه، ولكنه لا يغضب لانتهاك قيم مثل العدل، والمساواة والمواطنة، أو تزوير الانتخابات . (١)

د. جمال حمدان ، وآفة مصر

يقول د. جمال حمدان " آفة مصر ابتداءً اثنتان : الطغاة في الداخل ، والاستعمار من الخارج . هاتان هما نقطتا الضعف لأساسيتان في شخصية مصر .. فنحن كشعب نخضع بانتظام لحكامنا الطغاة ، وحكامنا يركعون بسهولة للأجانب الغزاة ومن جانبنا كمواطنين فلقد درجنا تقليديًا على أن نبرئ ساحتنا كشعب من مسئولية هذا الوقر المزدوج القاصم لظهورنا بمقولة أننا ببساطة شعب مغلوب على أمره مفترى عليه وأن الفاعل هو الطغيان والمجرم الأكبر هو الاستعمار ومن جانبه فإن الطغيان الداخلي بدوره يزيح المسئولية عن كاهله مسارعاً بكل ترحيب بإلقائها على عاتق الاستعمار الآثم الزنيم . " (٢)

أصل الطغيان الفرعوني والاستبداد الشرقي

وفي موضع آخر من كتابه شخصية مصر يقول جمال حمدان عن الشخصية المصرية : " سلبية المواطن الفرد إزاء الحكم جعلت الحكومة هي كل شيء في مصر والمواطن نفسه لا شيء ، فكانت مصر دائماً هي حاكمها . وهذا أس وأصل الطغيان الفرعوني والاستبداد الشرقي المزمن حتى اليوم أكثر مما هو نتيجة له . فهو يفرط الاعتدال مواطن سلس ذلول ، بل رعية ومطية لينة ، لا يحسن إلا الرضوخ للحكم والحاكم ، ولا يجيد سوى نفاق السلطة والعبودية للقوة ، وما أسهل حينئذ أن يتحول من مواطن ذلول إلى عبد ذليل . "

سانت هيلر ، كيف كُتبَ على المصريين العبودية ؟

وهناك من يقول بأن النيل (أو المجتمع النهري) هو أحد العوامل الكامنة خلف الطغيان في المجتمع المصري وليس كلها ، وقد قال في هذا المعنى بارتملي سانت

(١) من حوار موقع "أون إسلام" مع د. محمد مهدي بتاريخ ١٢ يناير ٢٠١١ .
(٢) جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ / ص ٥٩٥ دار الهلال .

هيلر : " منذ الفراعنة كتبت على سكان مصر العبودية السياسية ، وإني أبعد ما أكون عن القول بأن النيل هو السبب الوحيد لهذا الوضع المحزن ، وإني لمدرك أن ثمة كثيراً من الناس أكثر عبودية وبؤساً دون أن يكون لديهم نيل . كل ما أود أن أقوله هو أن النظام الطبيعي لهذا النهر العظيم كان في مصر أحد أسباب الطغيان ، لقد وجد الطغيان فيه نوعاً من الضرورة ، وكذلك حجة وذريعة خاصة . "

يقول د. محمد المهدي تعليقاً على كلام سانت هيلر : " وهذا الموقف ترك لدى الشخصية المصرية مجموعة من أخلاق العبيد مثل المداهنة والمسايرة والخضوع والتسليم للسيد أيا كان هذا السيد (رئيساً في العمل أو زوجاً أو حاكماً) . ويبدوا أن المصريين من كثرة ما تعرضوا للاستعمار والاستبداد تعودوا أن يتعاملوا على أنهم رعايا لا مواطنين ، فهم يكتفون ويرضون بلقمة العيش والوظيفة – أيا كانت – ولا يطمحون لحقوق المواطنة والكرامة والسيادة إلا في المواقف التي يستفز فيها المستعمر الخارجي الكرامة الوطنية إلى درجة جارحة ، هنا ينتفض المصريين لدفع هذا الاستعمار ثم ما يلبثوا أن يعودوا لسابق عهدهم الذي وصفناه . " (١)

وبعد أن استعرضنا أهم سمات الشخصية المصرية في كتابات أشهر من تحدث عنها سوف نقوم باستعراض التاريخ المصري لنبحث عن سمات الشخصية المصرية خاصة تجاه حكامها المحليين ، والأجانب ، ونناقش الأقوال التي وسم بها الكتاب الشخصية المصرية بأنها شخصية خانعة خاضعة لحكامها ، وأنها شخصية غير ثورية ، وعندها أنيميا في الغضب الإيجابي ، كما أنها تقبل الضيم والذل من أجل الاستقرار والأمن ، وتتكيف مع كل وضع وإن كان مهيناً ، وأن سلاحها الوحيد الذي تواجه به طغاتها هو السخرية وإطلاق النكات ، والزهد في الدنيا وطلب الآخرة .

***

---

(١) د. محمد المهدي " الشخصية المصرية " مرجع سابق .

الفصل الثاني

ثورات المصريين في العصور القديمة



الفصل الثاني

ثورات المصريين في العصور القديمة

المصريون القدماء والتوحيد

عرفت مصر التوحيد منذ فجر تاريخها فقد أرسل الله تعالى إدريس إلى مصر نبيّاً ورسولاً قبل الألف الثامنة قبل الميلاد وفي هذا التاريخ ولدت أول حضارة عرفها التاريخ حضارة بنيت على التوحيد والعلوم المقدسة التي أنزلها الله تعالى على نبيه إدريس ومن جاء بعده من أنبياء ورسل .

ويعدد لنا المؤرخ " ابن إياس " من عرفتهم مصر من الأنبياء عليهم السلام فيحصيهم بثلاثين نبيّاً منهم :

إدريس ، وإبراهيم الخليل ، وإسماعيل – على أحد الأقوال – ويعقوب ، ويوسف، واثنا عشر من أبناء يعقوب وهم الأسباط ، ولوط ، وقد ولد بها موسى ، وهارون ، ويوشع بن نون ، ودخلها دانيال ، وأرميا ، وعيسى ابن مريم ، وسليمان بن داود ، وأيوب ، وشعيب عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام .

كما دخلها أيضا من الصدّيقين : لقمان الحكيم ، والخضر ، وذو القرنين .(١)

وهؤلاء الصدّيقون " لقمان ، والخضر ، وذو القرنين ذكر كثير من علماء المسلمين أنهم أنبياء .

وليس هؤلاء فقط من بعثوا في مصر من الأنبياء والمرسلين بل هناك رسل آخرون بعثوا في مصر ذكرهم المصريون القدماء في بردياتهم ولم يقصصهم الله

(١) نقلاً عن د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٧ .

تعالى علينا في القرآن الكريم { وَرُسُلاً قدْ قصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} (النساء : ١٦٤)

المصريون القدماء والكتب المقدسة

يوجد في الوثائق المصرية القديمة العديد من الشواهد على نزول كتب مقدسة على بعض الأنبياء الذين بعثوا في مصر وأن هذه الكتب المقدسة كانت لها في نفوس المصريين قداسة هائلة ، وأنهم كانوا يلتزمون التزاماً كاملاً بكل ما جاء فيها ونجد هذا على سبيل المثال في نصائح ووصايا الحكيم "آني" إذ يقول: " إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزّلة . " [١]

يقول د. سيد كريم عالم المصريات الكبير : " عندما وحّد " مينا " البلاد اعتمد في دعوته إلى توحيد العقيدة ، وعبادة الإله الواحد ، بعدما أعلن أنه رسول الله لهداية الناس وحامل رسالة الإله الأعظم إلى البشر لصلاح الدين والدنيا جميعاً .

كان ذلك النظام السياسي والاجتماعي الذي أهداه المصريون للعالم أجمع وتحول فيه الدين إلى دعامة أيديولوجية للمجتمع ، أعظم تجربة إنسانية أمكن إرساء قواعدها ، فوضعت أول دستور لحياة المجتمع يخضع لتشريعات سماوية أنزلها الله على الملك ، وكانوا لا ينادون الملك باسمه بل أطلقوا عليه لأول مرة اسم "برعون" (فرعون) أي القصر الكبير ومصدر النور لأن الملك لا يعتبر فرداً ذاتياً بل ممثلاً للإله ينفذ رسالته ، وأنه لا يموت بل يصعد إلى الله عندما يؤدي رسالته المكلف بها ليحل مكانه في القصر وريثه الشرعي ، وكان فرعون يفاخر بأنه يأخذ بقانون "ماعت" ولا يحيد عنه ويسود الأمة بالعدل والحكم الصالح والإدارة العادلة التي تحكمها القوة الكونية التي تتمثل في الانسجام والنظام والاستقرار الذي وضعه الإله للكون ودورته .

---

(١) د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " ص ١٩٧ .

فإذا كانت التشريعات السماوية التي تنزّل بها الأنبياء هي التي أخرجت المجتمعات البشرية من ظلمات الجاهلية إلى نور الحق فإن هذه التشريعات نفسها هي التي أسس بها المصريون القدماء حضارتهم .

لقد استمر نظام ذلك الحكم الملكي الذي جمع بين العقيدة والسياسة خلال الدولة القديمة ، وكان للملك من الألقاب : قاضي القضاة في السلم ، وقائد القواد في الحرب ، والكاهن الأعظم لجميع المعابد ، والأمين على بيت المال والخزائن . " [1]

وجميع أنبياء الله تعالى بعثوا بما بعث به الأنبياء المصريون أو الأنبياء الذي بعثوا في المصريين فكلهم حملوا رسالة الله إلى البشر وأدوها ، ولم تكن رسالتهم قاصرة على الشعائر الدينية فحسب بل كانت شاملة لكل جوانب الحياة : السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والعسكرية فقد كانوا جميعاً – كما كان حكام مصر القديمة إبان ازدهار العقيدة – القضاة في السلم ، والقادة في الحرب ، وأمناء بيت المال ، وقبل ذلك وبعده أئمة العابدين لله المتمسكين بشعائر الدين ونسكه .

وإذا مات أحد الأنبياء انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وقام وريثه الشرعي برسالته .

عن عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ فَلَمَّا اشْتَكَى، وَحَضَرَهُ الْقَبْضُ، وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ، غُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ، شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ " (متفق عليه)

كما أن أي نبي عندما يموت يرثه الوريث الشرعي فقد ورث إسحق أباه إبراهيم، وورث يعقوب أباه إسحق ، وورث يوسف أباه يعقوب ، وورث سليمان أباه داود .

---

[1] د. سيد كريم " لغز الحضارة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٣٠٠، ٣٠١ بتصرف .

{ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ }

(سورة الأنعام : ٨٣ ، ٨٤)

{ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} (النمل:١٦)

وهذا ما كتبه المصريون القدماء عن حكامهم أنه إذا مات أحدهم صعد إلى السماء وورثه وريثه الشرعي .

يقول د. ناصر الأنصاري : " كان الإيمان بالله الواحد – ولا يزال وسوف يظل بإذن الله – متغلغلاً في نفس المصري منذ قديم الأزل . وليست الحضارة المصرية القديمة إلا شاهداً على ذلك ، فلولا الإيمان بالله لما قامت هذه الحضارة ولما استمرت ما يقرب من الثلاثين قرناً من الزمان " [١]

وعلى العلم والتوحيد والعدل بنى المصريون القدماء حضارتهم العظيمة .

يقول د. سمير أديب : " كان المصريون القدامى هداة وعلماء ومرشدين ، يوم أن كانت الدنيا طفلاً يحبو في جهالة القرون ، نقشوا على الحجر ، وكتبوا على الورق، واهتدوا إلى معرفة الإله الواحد الأحد يوم كانت الشعوب الأخرى تضطرب جهلاً بين العديد من الآلهة ينسبون إليهم ما يعجزهم من مظاهر وأحداث ، عرفوا العدل والحق والحرية وآمنوا بالقيم المثلى ، انتظمت في بلادهم الإدارة ، ونمت لديهم مقومات الأمة يوم كانت الشعوب تعيش فرقاً متناثرة وقبائل متناحرة . " [٢]

إذن وبناءً على ما تقدم فإن المصريين القدماء لم يكونوا مشركين يعبدون آلهة متعددة كما هو مشهور بل كانوا أول شعوب الأرض إيماناً بالله الواحد الأحد

([١]) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٧ .
([٢]) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " العربي للنشر والتوزيع ص ١٠ .

وبشريعته وعلومه المقدسة ، ذلك التوحيد هو الذي بنوا به حضارة مصر وفي كل مرة حاولوا إقامة الدولة كانت الفكرة الأساسية فيها توحيد العقيدة والإيمان بالإله الواحد ، وكل مرة شاعت الفوضى والاضطراب في ربوع مصر كان نتيجة تخلي حكام مصر عن اتباع شريعة الله .

يقول د. سيد كريم : " الإيمان والعلم كانا أساس حضارة مصر الخالدة في مختلف عصورها الذهبية ، والتخلي عنهما كان السبب المباشر في انحلال الحضارة وانطفاء شعلتها وترديها في عهود الاضمحلال . " (١)

وهذا ما يحل لنا اللغز الذي حيَّر المؤرخين وعلماء الآثار وهو ظهور الحضارة المصرية القديمة كاملة النمو بمعرفة متكاملة في مختلف العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والطب والفنون والآداب والعمارة ،والأعجب من ذلك – أو ربما ما يفسر ذلك – تكامل العقيدة " بتوحيد الإله " رع " رب الأرباب وخالق الكون ورمزوا لقدرته بقرص الشمس وعبَّروا عنه بالقوة الخفية الكامنة التي تهب الحياة وتسيِّر الكون . " (٢)

نظام الحكم عند المصريين قدماء

إن دين الله تعالى ليس مجموعة من الشعائر التي تؤدى في بيوت الله ولا علاقة لها بحياة الناس ومعاشهم ، هذه فكرة قاصرة لدين الله فدين الله الذي شرع للناس شامل لكل مناحي الحياة ، فكل حياة المرء لابد أن تكون لله تعالى .

{ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } (الأنعام : ١٦٢، ١٦٣)

وقد كان النبي ﷺ حاكماً على المدينة ، وقاضياً بين الناس ، وقائداً للمسلمين في المعارك ، وأميناً على بيت مال المسلمين ، ومعلماً ، ومربياً ، ومصلحاً ، وشَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً .

---

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة " مرجع سابق ص ٣٢٢ .
(٢) نفسه ص ٦٦ .

وكان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو الله تعالى بهذا الدعاء : " اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر" (رواه مسلم) .

ونظام الحكم منصوص عليه في الشرائع السماوية ، ولقد أمر الله تعالى الناس أن يحتكموا إلى ما أنزل .

يقول تعالى : { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون } (المائدة : ٤٤)

فمن كتم حكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكماً بين عباده ، فأخفاه وحكم بغيره "فأولئك هم الكافرون " .

وقد كان نظام الحكم عند المصريين القدماء يسير وفق شرع الله ولا يخرج عنه .

يقول د. سليم حسن : " لم تكن الحكومة المصرية في نظر الشعب المصريّ نظاماً اخترعه الإنسان أو أنه جاء نتيجة تطور سياسيّ – كما زعم المؤرخون العلمانيون – بل كان هبة الله لشعبه أُسّس عند خلق الدنيا . " (١)

ولما العجب وقد كان إدريس عليه السلام هو الذي حكم الشعب المصريَّ في بدايات الخليقة ، فإدريس قد جمع بين النبوة والحكمة والمُلْك .

يقول الإمام المناوي " قال ابن فضل اللّه: كان إدريس يسمى هرمس المثلث كان نبياً وحكيماً وملكاً ووزيراً " (٢)

وقال القنوجي في كتابه أبجدية العلوم : " إن آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان، وكان أولاده تتلقاها بوصيته منه، وبعضهم بالقوة القدسية القابلة، وكان أقرب عهد إليه إدريس عليه السلام، فكتب بالقلم واشتهر عنه من العلوم ما لم

---

(١) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " الهيئة المصرية العامة للكتاب.ج١ ص ٢٣٨

(٢) الإمام المناوي " فيض القدير شرح الجامع الصغير " الجزء الثالث تابع حرف الهمزة .

يشتهر عن غيره، ولقب بهرمس الهرامسة والمثلث بالنعمة لأنه كــان نبيّــاً ملكــاً حكيماً." [1]

وذكر ابن إسحاق أن إدريس قد أدرك من حياة آدم عليه السلام ٣٠٨ سنوات لأن آدم عمَّر طويلاً زهاء ١٠٠٠ ألف سنة .

ولا يعلم إلا الله كم عاش إدريس بعد آدم ، وكم سنة حكم فيها المصريين ، ولكن الذي أكده المفسرون والمؤرخون إن إدريس عاش طويلاً وكان كداود ملكاً نبيّاً .

كذلك كان نبي الله يوسف حاكماً في مصر .

{ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فلما كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَـدَيْنَا مَكِـينٌ أَمِينٌ* قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } (يوسف : ٥٤ -٥٦)

يقول د. سليم حسن : " لم يكن الفرعون مجرد حاكم مستبد يسيطر على قوم على الرغم من إرادتهم بل كان يحكم بحقه الإلهي بكل معاني الكلمة . " [2]

وكان الحاكم في مصر القديمة ليس مطلق اليد بل هو مقيد بشريعة الله ، لا يخرج عليها ، وإلا خرج الناس عليه .

ودونك دستور الحكم في مصر : " إن المصري القديم اعتقد أن أول من حكم على الأرض والعالم بأجمعه هو " رع " إله الشمس ، وقد وضع هذا الإله قانوناً يســمى "ماعت" ومعناه الصدق والعدل والحق والعدالة الاجتماعية والحكم الصالح ، ولمـا رفع "رع" نفسه إلى السماء حكم ابنه [3] على الأرض ولقبه " بابن رع " (خليفة الله)

---

(١) أبجد العلوم للقنوجي ج١ / ص ١٦٤ .

(٢) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " مرجع سابق ج١ ص ٢٣٨

(٣) " ابنه " هنا ليس بالمعنى الحقيقي إنما معناها خليفته مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّـكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

وهو الملك ، وقد كان على كل ملك يتبوأ عرش مصر أن يسير في حكمه تبعاً لقانون "ماعت" فإذا ما حاد عنه قيد أنمله فلشعبه ألا يعتبره ابناً " لرع " ولا يحكم البلاد .

لذلك نرى أن البلاد سارت تحكم بقانون " ماعت " مدة طويلة وهي تنعم بالرخاء طوال عهد الدولة القديمة حتى إذا ما انتصف حكم الأسرة السادسة أخذ الملوك يحيدون عن الحكم بقانون " ماعت " حتى انهارت البلاد وهوت إلى مزالق الذلة."(١)

وقبل أن نتحدث عن قانون ماعت لابد أن نؤكد أن المصري القديم لم يكن يعيش حياة العبيد تحت حكم الفراعنة المتألهين المستبدين كما يزعم كثير من المؤرخين إنما كان يحيى حياة عزة وكرامة يحققها له حكامه المؤمنون بالله تعالى وبدستور الحكم الإلهي " ماعت " ومتى خرج أي من هؤلاء الحكام على الدستور الإلهي ثار عليه المصريون .

فرعون موسى ليس كل فراعنة مصر

إن فرعون موسى الذي عمم الكتّاب تألهه وتجبره على سائر فراعنة مصر ما كان إلا أحد الاستثناءات القليلة في تاريخ مصر القديمة التي خرجت على التوحيد وعلى قانون ماعت . لكن للأسف فإن علماء المصريات العلمانيين ، أجانب ومصريين ، وعلماء الدين ، مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، قد جعلوا فراعنة مصر كلهم متألهين ومستعبدين ، وجعلوا المصريين القدماء جميعهم كفاراً مستعبَدين .

واستشهدوا على هذا بآيات القرآن الكريم مثل :

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } (الزُخرف:٥٤)

{ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ } (غافر:٢٩)

---

(١) محمد صابر " مصر تحت ظلال الفراعنة " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١١

{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } (القصص:٣٨)

لقد ذكرت كلمة فرعون في القرآن الكريم ٧٤ مرة كلها تتحدث عن فرعون موسى ﷺ الذي عاقبه الله هو وجنوده على كفره واستبداده في الدنيا بالإغراق وفي الآخرة بالإحراق .

{ فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى } (النَّازعات٢٣-٢٦)

يقول ابن كثير " { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى } أي: انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا .

إذن هذا الفرعون الذي يعد استثناء في تاريخ فراعنة مصر من حيث الكفر والاستبداد لم يتركه الله تعالى بل انتقم منه وممن تبعه . (١)

يقول د . عبد العزيز صالح : " لم يكن لفظ " فرعون " أو جمعه " فراعنة " يدل بالضرورة على تجبر الحاكم الأعلى المصري أو يدل على جنس شعب بكل أفراده. وإذا كان " الفرعون المصري الذي عاصر موسى عليه السلام قد وُصِف في التوراة والقرآن الكريم بصفات التجبر والتأله والطغيان ، فلابد من التسليم بكل ما وصف به . لكن دون ضرورة بطبيعة الحال إلى تعميم صفاته تلك على كل الفراعنة أو الملوك المصريين ، وذلك لأن الحكّام في كل مجتمع وكل زمان ، أيّاً كانت ألقابهم ، قد يتعاقب منهم العادل والظالم ، والمؤمن والكافر ، والصالح والطالح . وهكذا كان شأن الملوك المصريين " (٢)

---

(١) لمزيد من التفصيل حول قضية التوحيد عند قدماء المصريين راجع كتابنا " رؤية إسلامية للحضارات الإنسانية " .

(٢) أ. د . عبد العزيز صالح ، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور " العصور المصرية القديمة الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٥٤ .

قانون ماعت

قلنا إن حكام مصر في عصر الدولة القديمة قد اتخذوا قانون " ماعت " دستوراً للحكم ، وأن طاعة المصريين حكامهم كانت مشروطة بالتزامهم بتطبيق قانون ماعت فإن خرجوا عليه ثار المصريون عليهم .

ولقد مثلت شريعة " ماعت " القانون الأساسي لجميع الطبقات الاجتماعية، ولم يكن هناك من هو فوق القانون على الإطلاق،وكان المواطنون في مصر القديمة طائعين للقانون، حيث خشوا العقاب في الحياة الدنيا والآخرة، وكانت الدعاوى القضائية تنظر في المحاكم المحلية باستثناء الجرائم التي تنطوي على عقوبة الإعدام، التي ينظرها الفرعون باعتباره القاضي الأعلى .

يقول د. سليم حسن : { كلمة " ماعت " تعني في متون كثيرة العدالة ولكنها فكرة تشترك في أسباب شرائع الكون ، كما يشترك فيها علم الأخلاق ، فهي العدالة بوصفها نظام إلهي للمجتمع ، ولكنها كذلك نظام إلهي للطبيعة كما وضعت عند بدء الخليقة .. وكلمة " ماعت " تحوي في طياتها معاني دقيقة خلقية واجتماعية فهي النظام الذي يسير على هديه الفرعون في حُكم شعبه كما كان يفعل " رع " **ومن ثمَّ قبل الشعب المصري الحكم الملكي لا بوصفه نظام حكم أفضل من غيره بل لأنه من وضع الإله الخالق للعالم وعلى ذلك خضعوا له لأنه عادل ولم يكن للفرعون الحق في تغييره فإذا حاد عنه فإنه يعد خارجاً على نظام خالِق الخلْق ، وقد استمرت ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يسيرون حسب تعاليم " ماعت " ولما حادوا عن تعاليمها خرج عليهم الشعب ومن ثمَّ كانت أول ثورة اجتماعية في تاريخ البشرية استمرت أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون "ماعت " أي العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة والوسطى "** (1)

---

(1) د. سليم حسن " تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني " مرجع سابق ج١ ص ٢٣٩

وبناءً على ذلك فإن فترة فرعون موسى تعد إحدى تلك الفترات القليلة التي خرج فيها الفرعون على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرة لكل من تسوّل له نفسه الخروج عن قانون " ماعت " .

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ }(الزخرف : ٥٤ - ٥٦)

إن قانون " ماعت " هو شريعة الله التي أمر الله الإنسان بتطبيقها ، حتى يكون خليفة في الأرض ، ويحافظ على توازن الكون .

يقول علماء المصريات : " عندما خلق الخالق الكون ، شكّل دنيا ثابتة في مظهرها ووظائفها ، وأن كل شيء بداخل هذا العالم مطابق للخطة الإلهية الموضوعة ، ولا حاجة إلى إدخال أي تحسين في أية مرحلة تالية ، وقد أطلق المصريون القدماء كلمة " ماعت " على توازن العالم كله ، وتعايش جميع عناصره في انسجام ، وعلى تماسك وحداته الذي لا غنى عنه للمحافظة على الأجسام المخلوقة .

كان هذا التفاعل بين القوى هو الذي ضمن نظام الكون بدءاً من مكوناته الأساسية : كالحركات السماوية ،وانتظام الظواهر الموسمية ،وتعاقب الزمن، وشروق شمس جديدة في كل صباح .

إلى أقل هذه الظواهر والمجتمع الإنساني نفسه ، والعلاقات الودية بين الأحياء ، والمراعاة الدينية لكل الطرق التي سنّها الإله للأشياء ، واحترامها ، تلك القواعد التي اشْتُقَّتْ منها عدالة العلاقات الاجتماعية والحياة الخلقية . وهكذا كانت "ماعت" هي كُلاًّ من النظام الكوني ، والأخلاقي اللذين يعملان معاً في جميع الظروف تبعاً لوجهة نظر الإنسان عن نظام الكون . " (١)

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٩٧

يقول يان أسمان (١) : " ماعت تعني أساساً " النظام الكوني " أو " النظام الكوني المتكامل " ، وهذا التصور يجد ما يقابله في الفكر أو في مفردات الحضارات الشرقية الأخرى . ويلخص " شميد " (٢) النتائج التي حصل عليها بقوله : إن تأملات الحضارات الشرقية عن العالم تنطلق من نقطة واحدة وهي اعتقادهم في نظام كوني مطلق وكفيل هذا النظام هو الخالق الواحد الذي لم يخلق العالم فقط ، وإنما يحافظ على النظام الكوني كسيِّد أعلى والملك يمثله في نفس الوظيفة على الأرض . " (٣) وعلى أساس قانون " ماعت " سوف يحاسب الإنسان يوم القيامة فيوضع القانون "ماعت" في كفة ، وقلب الإنسان في كفة ، فقانون " ماعت " يكون : " صنجة (الثِّقَل) توضع في الميزان لوزن قلب الميِّت عند المحاكمة لمعرفة إذا كان "ماعتيا" أو بمعنى آخر يطابق ماعت أي إنسان خيِّر أم لا .. ولهذه الأسباب اعتبرت "ماعت" تجسيداً للحقيقة والعدالة . " (٤)

وهذه بعض إجابات إنسان ثقلت موازينه في الآخرة لأنه اتبع شريعة " ماعت " في الدنيا ولم يرتكب ما يخالفها .

- أنا لم ارتكب جريمة قتل .
- أنا لم ارتكب جريمة اغتصاب .
- أنا لم انتقم لنفسي ، ولم أرْهب أحداً ، ولم أقم بفتنة .
- أنا لم أسبب لأحد ألماً ، ولا حزناً .
- أنا لم أظلم أحداً من الناس ، ولم أتصرف بطريقة شريرة .

---

(١) يان أسمان ، عالم ألماني كان يعمل بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، وهو يشغل منذ عام ١٩٧٦ منصب أستاذ بجامعة هيدلبرج أقدم جامعة ألمانية ، وفي عام ١٩٨٤ انتخب عضواً في أكاديمية العلوم بهيدلبرج . وقد نشر مصنفاً ضخماً يرجم فيه الأناشيد والأدعية المصرية القديمة .

(٢) شميد ، عالم متخصص في العهد القديم ، وأكثر علماء الغرب تحليلاً للتصور المصري للماعت ، والذي قدَّم تفسيره عن " العدالة كنظام الكون المتكامل " عام ١٩٦٨ والذي يعتبر اليوم رأيًا متفق عليه بين علماء المصريات . انظر يان أسمان " ماعت ، مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية " ترجمة د. زكية طبوزاده ، ود. علية شريف دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ص ٢٢

(٣) يان أسمان " ماعت ، مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية " مرجع سابق ص ٢٢ ، ٢٣

(٤) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٩٧ .

- أنا لم أسرق ، ولم آخذ شيئاً ليس من حقي .
- أنا لم أكن مختالاً ، ولا مطففاً في الميزان .
- أنا لم أفسد الأرض الزراعية .
- أنا لم أشهد بغير الصدق ، ولم أتهم أحداً زوراً .
- أنا لم أكن فاحشاً ولا بذيئاً .
- أن لم أحتقر أحداً ، ولم أسخر من أي إنسان .
- أن لم أتجسس على أحد .
- أنا لم أتعجل في إصدار حكم ، وإذا حكمت لم يكن حكمي قاسياً .
- أنا لم أخطئ في حق أحد ، ولم أقصر في حق أجد .
- أنا لم ألوث المياه الجارية .
- أنا لم ألعن الله ولا احتقرته ، ولا فعلت ما يكرهه .
- أنا لم أسب الله ، ولم أسرق صناديق الزكاة والصدقات والنذور .

وهذه المبادئ التي جاءت في قانون ماعت يؤكدها ما جاء في " كتاب الموتى"كتاب المصريين القدماء المقدس، عند دخول المتوفى قاعة الصدق (الحق) وقيامه بالدفاع عن نفسه يوم يرجع الناس إلى ربهم ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

- إني لم أرتكب ضد الناس أي خطيئة .
- إني لم أرتكب القتل .
- إني لم أرتكب الزنا .
- إني لم أفعل ما يمقته الإله .
- إني لم أنطق كذباً .
- لم أكن طمّاعاً .
- لم يكن صوتي عالياً فوق ما يجب .
- فمي لم يثرثر .
- إني لم أسرق .
- إني لم أسبب تعساً لأي إنسان .
- إني لم أترك أحداً يتضور جوعاً .
- لم أغتصب طعاماً .
- إني لم أنقص مكيال الحبوب .
- إني لم أسب .
- لم أكن متكبراً .
- لم أعب في الذات الملكية [1].

---

(1) د. حربي عباس عطيتو " الفكر الشرقي القديم " دار المعرفة الجامعية ص ٢٥٦ .

قانون ماعت وشريعة الإسلام

وبناءً على ما ذكره المصريون القدماء عن " ماعت " يمكن أن نستنج الآتي :

١- أن الله تعالى خلَق الكون بكل عناصره بدقة متناهية .

٢- كل عناصر الكون – بما فيها الإنسان – متوازنة في خصائصها ، ومتوازنة مع غيرها من بقية العناصر .

٣- إن أي خروج على نظام الكون يعد إفساداً له .

٤- أن الله تعالى أنزل قانون " ماعت " ليطبقه الإنسان في حياته ، فتصلح حياته وحياة سائر المخلوقات .

٥- يوم القيامة سيكون حساب الإنسان وفق قانون " ماعت " .

٦- الإنسان الخيِّر هو من جاء بقلب سليم مما يخالف قانون " ماعت " .

٧- الإنسان الشرير هو من كذَّب بقانون " ماعت " واتبع هواه .

ولو قارنّا قانون " ماعت " بشريعة الله كما تبدَّت في أروع صورها في الديانة الإسلامية آخر الرسالات السماوية لوجدنا أن الإسلام لا يناقض شيئاً من قانون "ماعت" بل جاء بتمام هذا القانون وكماله .

لقد خلق الله تعالى الكون بكل عناصره متوازناً ومنسجماً بعضه مع بعض .

{لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} .(يس : ٤٠)

{ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ } (الحجر : ١٩ – ٢٠)

تأمل قوله تعالى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون .

كذلك خلق الله تعالى الإنسان متوازناً : روحاً ، وعقلاً ، وقلباً ، وجسداً .

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } (التين : ٤)

{ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } (الروم : ٣٠)

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين والجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

وكما أن الله تعالى خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ التوازن للإنسان والكون ، فكيف ذلك ؟

أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل . (١)

{يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء: ٨٨ ، ٨٩)

{وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا } (الأنبياء:٤٧)

الآن بعد بيان مفهوم العدل في الشريعة الإسلامية برجاء العودة لقراءة قانون "ماعت" مرة أخرى والبحث فيه عما يتناقض مع شريعة الإسلام .

والذي يؤكد أن حكام مصر لم يكونوا كلهم طغاة - كما يظن الكثيرون - إنما كانوا ملتزمين بقانون " ماعت " تلك الأمثال والحكم التي جاءت على لسانهم ، أو التي وجهها الكهان لهم وكلها تهدف إلى أن العدل هو أساس الملك في الدنيا ، وشرط دخول الجنة في الآخرة .

يقول الملك " ختي " لابنه الملك " مريكارع " (الأسرة الثامنة عشر) : " هدئ من روع الباكي ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنساناً من ثروة أبيه ، ولا تطرد موظفاً من عمله ، وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم لا تقتل فإن ذلك لم يكون ذا فائدة لك ، لا تقتل رجلاً تعرف مزاياه رجلاً كنت تتلو معه الكتب ، لا

---

(١) لمزيد من التفصيل حول توازن ، كيان الإنسان ، وعناصر الكون ، وشريعة الله تعالى راجع كتاب " ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية " للمؤلف الفصل الأول .

تميز بين ابن شخص ذي حيثية على شخص فقير بل قرّب إليك إنساناً بسبب عمل يده " [1]

فهل يعد المصريون القدماء ، منذ إدريس عليه السلام وحتى نهاية الأسرة السادسة وبداية العصر الوسيط الأول سنة ٢٢٠٠ ق. م ، جبناء ومستذلين عندما أطاعوا حكامهم المؤمنين العادلين ، ولم يخرجوا عليهم كما زعم من وصم المصريين بالجبن والسلبية والخنوع ... ؟!!

القوانين الغربية بضاعتنا ردت إلينا

العجيب أن القانون الوضعي الذي استورده فقهاء الدستور المصريين والمطبق في مصر أصله مصري قديم !! وبدلاً من بحث علمائنا عن أسس بناء الحضارة في تاريخنا المجيد ، وديننا الحنيف سلكوا سُنَنَ الغرب حذو النعل بالنعل !!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: سَتَتَّبِعُونَ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ بَاعًا بِبَاعٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ وَشِبْرًا بِشِبْرٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ مَعَهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالَ فَمَنْ " (متفق عليه)

يقول العلامة د. سليم حسن : " الواقع أن مصر كانت قبلة علماء اليونان في تلك الفترة (القرنان : السابع والسادس قبل الميلاد) من تاريخ الكنانة ، وكان حكّام اليونان ينظرون إلى مصر على أنها مثلهم الأعلى ، ولا أدل على ذلك من أن " سولون . " [2]

---

(1) د. أحمد فخري " تاريخ الحضارة المصرية " م١ ص ٤٤٢.

(2) سولون واحد من حكماء أثينا السبعة الذين لم يعرف من بينهم غيره، يعود لهم الفضل في سن قوانين اجتماعية متقدمة وذلك بعد حرب أهلية خاضها الفقراء ضد طبقة الملاك ، وسمي قانونهم قانون" أتيكا ".ويتضمن حق الملكية الفردية المحدودة، وحق الشعب في الإشراف على مؤسسات الدولة، وحق الجماعة في تشكيل وحدة لها قوانينها الخاصة التي تحكمها وتخضع لقانون الدولة العام .

مشرِّع اليونان الأعظم قد أخذ بعض تشريعاته عن القانون المصري ، والغريب المدهش أن علماء أوروبا المحدثين قد ظلُّوا إلى عهد قريب جداً ينكرون ما أخذه اليونان عن مصر إلى أن وضعت الكتب التي تثبت ذلك بما لا يتطرق إليه شك." (١)

ويحكي لنا د. وسيم السيسى قصة قانوننا الوضعي الحالي فيقول :

جاء "سولون" إلى مصر ٥٩٥ ق.م وقال: أخذني أحد الكهنة إلى بيت أفلاطون الذي أقام فيه، وقال لي: هنا.. علَّمنا أفلاطونَ الفلسفة في مصر طوال ١٣ عاماً ! ثم ربت على كتفي قائلاً: أنتم أيها اليونانيون أطفال بالنسبة لنا! وقد أقرَّ أفلاطون بفضل مصر عليه حين ترك لنا في كتابه القوانين: ما من علم لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر.

جاء "سولون" من أثينا، ليدرس القانون في مصر الفرعونية .. هذا القانون الذي يقول عنه الدكتور محمود السقا، والدكتور محمد أبو سليمة: كان القانون المصري الفرعوني، مثالياً في قواعده عادلاً في أحكامه، عالمياً في مراميه، بُني على العدل والأخلاق وشتى الفضائل، كان علامة من علامات التكوين الحضاري التي كانت فطرة المجتمع المصري التي فُطر عليها .

أخذ " سولون " القانون المصري المعروف بقانون "بوكخوريس" (٢) وعاد إلى أثينا، ووضع قانوناً باسمه ألا وهو " قانون سولون" ! ومرت الأيام وذهبت لجنة رومانية تُدعى " لجنة الأشراف " من روما إلى اليونان؛ لدراسة قانون سولون المبنى على قانون "بوكخوريس" المصري، ووضعوا أسس القانون الروماني المعروفة بموسوعة جوستنيان، قانون الألواح الاثنى عشر ، ومرت الأيام وجاء نابليون بونابرت لينهل من القانون الروماني ويضع قانوناً باسمه: قانون نابليون!! وتمر الأيام وتأتى مصر لتضع قوانينها في العصر الحديث المستمدة من القانون الفرنسي !

---

(١) د. سليم حسن موسوعة " مصر القديمة " مرجع سابق ج ١٢ صفحة ط من مقدمة الكتاب .

(٢) قانون بوخوريس : أصدره الملك " بوخوريس " أحد فراعنة الأسرة ٢٤ من ٧١٨-٧١٢ ق .م جمع فيه النظم والقوانين التي كانت سائدة قبله مع إضافة بعض التعديلات .

ويتحقق المثل القائل: بضاعتنا وقد ردت إلينا !! (١)

كانت مصر هي أول من وضعت: العدل أساس الملك.. وأن الفرعون يحيا بأعماله العادلة، وكان الملك يقدم تمثالاً لربة العدالة " ماعت " كل سنة، تذكيراً له بأن العدل هو أساس الحكم . كما كان كل قاض يضع حول عنقه تمثالاً لربة العدالة " ماعت " وهذه رسالة من أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة لأحد وزرائه : " حافظ على القانون واحرص على أن يتم كل شيء طبقاً للقانون، حتى يصل كل شخص إلى حقه "

بينما كان قانون حمورابى (البابلي).. تختلف الأحكام به حسب الطبقة لاجتماعية!!

كُتِبَ القانون المصري الفرعوني بصيغة بلاغية في منتهى الإتقان، عبارات واضحة سليمة ومختصرة، كان القانون يصاغ في محكمة العدل المسماة " دار حوريس الكبرى" .

بعد هذا كله يأتي خليل مطران ويدعى أن الفراعنة كانوا ظالمين.. استعبدو شعبهم..! شأنه شأن كثيرين الآن بكل أسف ، ولكن أمير الشعراء أحمد شوقي ي عليه قائلاً :

زَعَموا أَنَّها دَعائِمُ شيدَت بِيَدِ البَغيِ مِلؤُها ظَلماءُ
فَاعذُرِ الحاسِدينَ فيها إِذا لاموا فَصَعبٌ عَلى الحَسودِ الثَناءُ
أَينَ كانَ القَضاءُ وَالعَدلُ وَالحِكمَةُ وَالرَأيُ وَالنُهى وَالذَكاءُ
وَبَنو الشَمسِ مِن أَعِزَّةِ مِصرٍ وَالعُلومُ الَّتي بِها يُستَضاءُ
فَاِدَّعَوا ما اِدَّعى أَصاغِرُ آثينا وَدَعواهُمُ خَنًا وَاِفتِراءُ
وَرَأَوا لِلَّذينَ سادوا وَشادوا سُبَّةً أَن تُسَخَّرَ الأَعداءُ
إِن يَكُن غَيرَ ما أَتَوهُ فَخارٌ فَأَنا مِنكَ يا فَخارُ بَراءُ (٢)

---

(١) " هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا " ليست مثلاً إنما جزء من آية كريمة هذا نصها : {وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} (يوسف:٦٥)

(٢) انظر مقال د. وسيم السيسي " القانون الوضعي أصله مصري " المنشور في منتدى روح القانون بتاريخ ٢٧ /١١ /٢٠١٠ .

ثورة المصريين على بيبي الثاني

إن الذي يؤكد عدم قبول المصريين للضيم ، وعدم خضوعهم للحكام الظالمين هو ثورتهم على " بيبي الثاني " الذي تولى عرش مصر وعمره ست سنوات ، ومات وقد قارب المائة ، وليس من شك أن مثل هذا الحكم الطويل لرجل واحد يحمل بين طياته التفكك والانحلال . (١)

ولقد طال الحكم بالملك " بيبي الثاني" الذي استبدت به شيخوخته ثم بدأ يتبدل حال الحكومة فدبَّ فيها الضعف ، وقلت هيبتها وفي نفس الوقت زاد سلطان حكام الأقاليم وزادت ثروتهم ، وقلَّ ولاؤهم لصاحب العرش فزادت الأعباء على كاهل الحكومة وتعطلت المصالح واشتدت المظالم مما أدى إلى قيام ثورة ، ثورة على كل شيء ثورة على الظلم وعلى الحُكْم وحتى على الآلهة . (٢)

وعن أسباب اندلاع الثورة يقول د. نجيب ميخائيل : " كان مَن أظهر الأمور التي أدت إلى ذلك :

١- كثرة وشيوع المنح التي يغدقها الملوك على كبار الموظفين من أراض واسعة وغيرها يستغلونها لمصلحتهم .

٢- شيوع التوريث في المناصب والإقطاعيات الممنوحة .

٣- عدم ممارسة حق النقل والعزل بالنسبة لحكام الأقاليم مما ساعدهم على توطيد مراكزهم في أقاليمهم .

٤- انهيار السلطة المركزية .

٥- انتشار الفوضى في البلاد .

٦- كثرة الفتن الداخلية التي دفعت جميع أصحاب المقاطعات إلى الاعتماد على أنفسهم في العناية بمقاطعاتهم وحمايتها من الاعتداء عليها . " (٣)

---

(١) د. جمال مختار " موسوعة تاريخ مصر عبر العصور " تاريخ مصر القديمة " ص ١٠٧ .
(٢) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢٤٣ .
(٣) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر والشرق الأدنى القديم " مؤسسة المطبوعات الحديثة ص ٢١٧ .

ولقد كاشف الحكيم " أيبور " الملك " ببيي الثاني " بحقائق مرّة عما يجري في مصر من أحداث قلبت الأوضاع رأساً على عقب فذكر له كيف عمَّ الخراب البلاد ، وكيف تهاوت المثل العليا للمصريين فاعتدى الناس على القوانين ، وانتهكوا حرمة المعابد وشردوا منها كهنتها . ووصلت إلينا بردية كاملة تحوي تحذيرات هذا الحكيم، وتُعتَبر الوثيقة الأولى التي تسجل ثورة اجتماعية ضد قدسية الملوك وضد الطبقة الحاكمة التي ألهتها زخارف الدنيا والحياة الرغدة عن رعاية الشعب وحمايته من عوامل التفكك والانحلال . [1]

وليت هذه الثورة ناهضت استبداد الحاكم ، وفساد حكمه إنما للأسف كانت ثورة على العقيدة المصرية أيضاً تلك العقيدة التي وحَّد الفراعنة المؤمنون بها البلاد ، وأسسوا على تعاليمها الحضارة ، ونَعِمَ جميع المصريين في ظلها بالعدل والمساواة والاستقرار والرخاء .

لقد كانت الثورة على ببيي الثاني وابنه ثورة شيوعية فوضوية لا دين لها يهديها ، ولا قانون لها يحكمها ، ولا قوة عاقلة تحميها .

يقول العلامة سليم حسن : " كان موقف الحكومة المصرية في هذا العهد يرثى له، حتى أن الشعب انتهز هذه الفرصة وقام بثورة اجتماعية طاحنة تشبه الثورة التي قام بها البلاشفة [2] ، امتد لهيبها أكثر من قرنين من الزمان كانت البلاد ترزح فيها تحت ثقل من الفوضى والخراب . " [3]

ويؤكد د. سيد كريم [4] على شيوعية الثورة المصرية الأولى فيقول : " قامت الثورة الشيوعية الأولى في التاريخ في مصر القديمة عام ٢٢٨٠ ق. م في أعقاب

---

(1) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٢١٨ .

(2) البلاشفة هم من قاموا بالثورة الروسية عام ١٩١٧ تحت إمرة لينين بناءً على أفكار كارل ماركس؛ لإقامة دولة شيوعية وتعد الثورة البلشفية أول ثورة شيوعية في القرن العشرين الميلادي. كما أن الثورة على " ببيي الثاني " أول ثورة شيوعية في التاريخ .

(3) د. سليم حسن " الأدب المصري القديم " مطبوعات كتاب اليوم يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم ص ٣١٠ .

(4) د. سيد كريم هو صديق د. سليم حسن الحميم ورفيق دربه في رحلة البحث الطويلة في تاريخ مصر القديم .

الأسرة السادسة وأطلق عليها الفراعنة اسم " ثورة الرعاع " فقد انتهز زعماء الشيوعية فرصة انشغال الجيش في الدفاع عن حدود البلاد وأخذوا يعملون على تنظيم صفوفهم وبث دعوتهم وجمع السلطة في أيديهم ، وقد ساعدهم على ذلك أن الملك " بيبي الثاني " عاش قرناً كاملاً وحكم البلاد ٩٤ سنة ، فكانت شيخوخته الطويلة حافزاً لهم على التمادي والتمهيد للثورة فعندما تولى ابنه الحكم خلعه الثوار في السنة الأولى من اعتلائه العرش واختلف المؤرخون في مصيره .

بدأت الثورة بمجموعة من المنشورات والشعارات كانت الأولى من نوعها في العالم نص إحداها المنقوش على إحدى لوحات الأوستراكا : " الأرض لمن زرعها، والحرفة لمن احترفها ، وليس للسماء وصاية على الأرض " .

نادى الثوار بأنه ليس هناك سيد ومسود ، وليس هناك رئيس ومرءوس ، الجميع سواء والجميع أحرار ، ليس هناك محاكم أو سجون لأن القوانين والأحكام ضد الحرية ، وليس هناك تشريعات تقيد الناس بالسماء لأن الإله لا وجود له !!

بدأت الثورة بهجوم الرعاع على مخازن الحكومة فقتلوا حراسها ، واستولوا على ما كان فيها ، ونهبوا الأسواق والتجارة ، واستولوا على المساكن ونهبوا محتوياتها، واعتدوا على السكان وطردوا الموظفين من دواوين الحكومة .

استولى الفلاحون على محاصيل الأراضي وثمار البساتين ، واستولى قطّاع الطرق على المواشي الموجودة بالقرى والدواب الموجودة بالمدن والطرقات .

فُتِحَت أبواب السجون ليخرج اللصوص والمجرمون للاشتراك في الثورة ، وأُغلِقت المحاكم بعدما طاردوا القضاة ، وأُغلِقت المعابد ، وشُتِّت الكهنة ، وأُغلِقت معابدها وبيوت الحياة (معاهد العلم) ، واعتقل العلماء والمثقفون ، وسارت البلاد بخطوات واسعة نحو التفكك والانحلال وتسلل البدو الليبيون إلى بلاد الدلتا لينشروا الخوف والذعر بين الناس ، أما مناطق الصعيد فقد انقسمت إلى ولايات استقلت عن بعضها البعض ، وتحولت إلى نوع من الإقطاع الشيوعي ، وحاول كل حاكم أن

يستقل بالسلطة وينادي بنفسه أميراً أو ملكاً ، وحاول كل منهم الانقضاض على الأقاليم والولايات المجاورة ليضمها إلى ملكه ، فسادت الفوضى وفلت الزمام من أيدي قادة الثورة نفسها . (١)

إن أكبر جريمة ارتكبتها هذه الثورة في حق نفسها وحق مصر وحضارتها هو محاربتها للدين ورجاله واعتدائها على دور العبادة ، لقد ساس حكام مصر العظام شعب مصر بالدين فصارت عمارة الأرض وإصلاحها عبادة ، وإتقان العمل فريضة، وطاعة وأولي الأمر الصالحين واجب ، وجزاء ذلك كله الخلود في الجنة.

فلما استبدلت الثورة الكفر بالإيمان ، وطواغيت الأرض بإله السماء فسدت الحياة؛ واستُبِيحَت كل المحرمات والحُرِمات ، وارتُكِبَت كل المنكرات في حق الإله وعباده، وفقاً لمقولة أحد الشيوعي " إذا لم يكن الله موجوداً فكل شيء مباح " !! (٢)

لقد كان في مقدمة تعاليم الثورة الأولى هدم الدين وإغلاق المعابد ، ومنع الشعائر الدينية ، وحرق المقدسات وتشريد الكهنة .

وقد وصف الحكيم " ايبور " رجال الثورة الأولى بقوله : " إنهم لم يعترفوا بالإله، وكانوا ينادون بأن الإله قد مات ؛ فأغلقوا وحرقوا التشريعات والمقدسات "

وفي بردية أخرى من برديات طيبة يصفهم بقوله : " إن من نادوا بموت إله السماء، وحرقوا تعاليمه المقدسة ، وحطموا تماثيله أصبحوا يرتدون زى الكهنة ويمثلون آلهة الشر التي تعيش بينهم في الأرض . فرضوا على الشعب أن يقدم لهم القرابين التي كان يقدمها للآلهة وأطلقوا البخور في قصورهم بدلاً من إطلاقها في معابد الإله فهم الذين يمنحون ويمنعون لا إله السماء . "

---

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٢ .
(٢) جاءت هذه العبارة على لسان " إيفان " الشاب الشيوعي أحد أبطال قصة " الإخوة كارامازوف " للكتاب الروسي الأشهر " دوستويفسكي" .

وتروي إحدى برديات طيبة أن أحد ملوك الأسرة السابعة نادى بأن الإله قد مات، ومات معه من كانوا في السماء من رسله وجنوده ، وأنه يتحدى الإله إن كان موجوداً أن ينزل الأرض ليثبت له وجوده ويريه قوته . " (١)

والعجيب أن البردية تذكر أن هذا الملك الذي تحدى الإله كان يتنزه ليلاً في حديقة قصره المطل على النيل يحيط به أعوانه وحراسه فإذا بتمساح ضخم يخرج من بين أعشاب البردي ويسحبه وهو يصرخ ليختفي به في قاع النهر ، وقد شلّت المفاجأة حركة أعوانه وحراسه الأشداء ، ويضطر أعوان الملك إلى استدعاء الكاهن الأكبر من السجن ويطلبون منه إظهار قوته وبركته في إنقاذ الملك أو البحث عن جثته .

فأجابهم الكاهن الأكبر قائلاً : " إن ما نقوم به من دعاء وطقوس وتراتيل ، وما نقدمه من قرابين ونذور هو وسيلة التقرب والاتصال بالإله ومخاطبته لنستمد منه القوة في أعمالنا ووجودنا ، وأنتم قلتم للناس إن إله السماء قد مات ، وحرَّمتم الإيمان به فكيف ندعو من لا وجود له ؟!

وإن كان إله السماء ما زال موجوداً فلن يستمع لمن ينكر وجوده !

وإن كنتم لا تؤمنون بالخلود والعالم الآخر الذي تصعد إليه الأرواح ، وتقولون إن الروح تفنى مع الجسد في الأرض فروح الملك ستفنى مع جسده وستبقى في قاع النهر وجوف الأرض ، ولن تصعد إلى عالم الخلود عند إله السماء الذي تنكر له ؛ فاختفاء الملك هو رد إله السماء الذي تحداه طالباً منه أن يثبت وجوده وقوته . " (٢)

وقد نجح الحكيم " أيبور " في وصف الثورة وأحداثها في برديته التي تعتبر من أدق سجلات تاريخ الثورة الشيوعية الأولى التي عاصر أحداثها وتطوراتها ، وقد وصف " مانيتون " الثورة " بأن مصر حكمها سبعون حاكماً لمدة سبعين يوماً وأطلق عليهم في قوائمه الأسرة السابعة ."

---

(١) نصوص البرديات نقلاً عن كتاب " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٥ ، ٣٠٦.
(٢) نص البردية منقول عن كتاب " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٦ .

ووصفهم ايبور الحكيم بقوله : " لقد أصبح يجلس على كرسي العرش سبعون فرعوناً بدلاً من فرعون واحد . كانوا دائماً على خلاف فيمن يعلو صوته على الآخرين . " (١)

وقد تعمد مؤرخو الفراعنة الذين وضعوا قوائم الملوك وبرديات التاريخ الزمني لحضارة الفراعنة ، تعمدوا إسقاط أسماء ملوك تلك الأسرات وعددهم وتاريخهم الزمني لعدم شرعيتهم لأنهم كانوا من أعداء الإله . ولما سارت إليه البلاد وحضارتها العريقة بخطوات واسعة نحو التفكك والانحلال .

وبظهور الأسرة العاشرة كما ذكر مانيتون بدأت مرحلة جديدة من مراحل ثورة التصحيح التي حاول فيها الحكام التقرب إلى الشعب وإزالة الكثير من آثار الشيوعية بالسماح بإقامة الشعائر الدينية المحدودة أو محاولة إعادة الأمن للبلاد ، وفتح المحاكم . " (٢)

أوجه الشبه والاختلاف بين أول ثورات مصر وآخرها

لعل القارئ العزيز قد لاحظ أن هناك تشابهاً ، في كثير من الأحداث ، بين الثورة المصرية الأولى ، وثورة ٢٥ يناير الأخيرة ! ويتجلى ذلك التشابه في :

١- طول حكم الحاكمَيْن ، وفساد أحوال البلاد في آخر عهدهما .

٢- توريث الحاكمَيْن نجليهما حكم البلاد من بعدهما . (٣)

٣- تبدل أحوال الحكومة في آخر عهد الحاكمَيْن (١) فدب فيها الوهن واستشرى فيها الفساد ، وقلت هيبتها في نفوس الناس وزاد سخطهم عليها .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الثورة الأولى راجع النص الكامل لبردية الحكيم " أيبور " في كتاب " الأدب المصري القديم " لسليم حسن مرجع سابق ص ٣١٧- ٣٣٢ .

(٢) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٢ .

(٣) صرّح كثير من السياسيين ، وكبار الصحفيين ، والقريبين من دائرة صنع القرار بأن نظام مبارك كان يعد العدة لتوريث الحكم لجمال مبارك في حياة أبيه ، وأن حملة التوريث كانت ستنطلق في مارس ٢٠١١ ، ولكن ثورة ٢٥ يناير أسقطت مبارك قبل أن يتم سيناريو التوريث .

٤- توحُّش رجال النظام والقارونيين (نسبة لقارون) [٢] وازدياد ثروتهم وتقديمهم مصالحهم الشخصية الدنيا على مصالح الوطن العليا .

٥- شيوع التوريث في المناصب والإقطاعات الممنوحة ، وحرمان الأكفاء من تولي المناصب الرفيعة .

٦- تراجع دور مصر الإقليمي ، وهوانها في عين شانئيها ، وطمع أعداؤها فيها.

٧- اعتقال الأحرار ، وتلفيق التهم للمعارضين .

٨- إقصاء المنادين بالإصلاح ، محاربة الكفاءات الوطنية المخلصة ذوي العلم والإيمان .

٩- عدم محاسبة الفاسدين المفسدين من المسئولين وأصحاب النفوذ .

١٠- عدم جدوى النصح المخلص مع الحاكمَيْن ؛ فقد ذهبت نصائح الحكيم "أيبور" لبيبي الثاني سدى ، وقد تجاهل مبارك جميع نصائح كبار المفكرين والسياسيين المعارضين ، وأصحاب الرأي المخلصين ، وعندما سئل مبارك عن البرلمان الشعبي [٣] قال ساخراً : " خليهم يتسلوا " !

١١- بدء الثورتين بإصدار منشورات تتضمن أهداف الثورة ومطالبها .

١٢- نجاح الثورتين في إسقاط النظام الحاكم ورجاله .

١٣- انتشار الفوضى والإرهاب وكثرة السلب والنهب نتيجة الانفلات الأمني ؛ ففتحت السجون ، وخربت أقسام الشرطة ، وأخرج المحكوم عليهم منها والمتهمون،

([١]) من المعروف أن آخر حكومتين لمبارك هما المسئولتان عن كل الانهيار الذي حدث لحكم مبارك فقد كانت حكومتا : عاطف عبيد (١٩٩٩- ٢٠٠٤) وحكومة أحمد نظيف (٢٠٠٤- ٢٠١١) لا هم لهما إلا تقديم مصالح رجال الأعمال وأصحاب النفوذ على مصالح الوطن وأبنائه الشرفاء ؛ فازداد الأغنياء غنى ، وازداد الفقراء فقرا ، وضاعت هيبة الوطن وتقلص دوره عالميا ومحليّا .

([٢]) المقصود برجال النظام والقارونيون - حكام الأقاليم في عهد بيبي الثاني ، ورجال الأعمال في عهد مبارك .

([٣]) ردا على تزوير الحزب الوطني للانتخابات البرلمانية بشكل فاضح لصالح أعضائه والعمل على إسقاط ، عمدا ، رموز المعارضة ذات الشعبية الكاسحة فقد أعلن يوم الأحد ٢٠١١/١/١٦ عن قيام البرلمان الشعبي باعتباره الذراع المتقدمة للحركة الوطنية المصرية الساعية إلى تغيير سلمي شامل .

ونُهبت المحال والمخازن ، وقطعت الطرق ، ونهبت كثير من البيوت ، ولم يعد الإنسان آمناً على نفسه ، ولا على رزقه . وعاش الناس في فزع وخوف شديدين .

١٤- تزييف التاريخ وتشويه صورة النظام السابق بالكلية ، ومحو اسمه من فوق منجزاته واستبدال أسماء الثوار باسمه .

١٥- الاعتداء على الآثار المصرية القديمة وسرقة بعضها ، والاستيلاء على كثير من وثائق الدولة والقيام بإتلافها وإحراقها .

يقول د. سيد كريم عن أعمال الثورة الأولى : " هذا بجانب عامل أساسي هام وهو تزييف التاريخ الذي وصموا به في بداية حكمهم واستيلائهم على السلطة ، وهو الاعتداء على المقدسات والمتون السرية ووثائق أسرار المعرفة التي كانت تحتفظ بها المخازن السرية بالمعابد والأهرامات وبيوت الحياة (معاهد العلم) ودور العدالة وقيامهم بإتلافها وإحراقها ، والتي تعتبر أكبر جناية ارتكبت في حق الحضارة وتراثها . بالإضافة إلى تزوير تراث ما خلَّفه مَن سبقهم من ملوك الأسرة السادسة من أمجاد عمرانية وفنية حاولوا نسبتها إلى أنفسهم بإزالة أسماء مؤسسيها وإطلاق أسمائهم عليها بل امتدت إلى المقابر نفسها ليعتدوا على حرماتها ويلقوا ما بها من مومياوات في الخلاء ، ليُعِدُّوها لأنفسهم بعدما دونوا أسماءهم على أبوابها وتركوا تاريخ أعمال من سبقوهم المسجل على جدران المقبرة ليضاف إلى أعمالهم، ودارت مسيرة الثورة ليتخذ الخَلَف من الحكام قدوة من السلف يسير بمقتضاها فتبادلوا القصور ، وتبادلوا القبور ، وتبادلوا التاريخ ، وهكذا دارت عجلة التاريخ في حلقات مفرغة . " (١)

كثيرة تلك التشابهات بين الثورتين المصريتين : الأولى والأخيرة ، لكن هناك اختلافات جوهرية بين الثورتين فإن كانت الثورة الأولى ثورة جياع وهمج ورعاع وأتباع كل ناعق فإن ثورة ٢٥ يناير ثورة شباب مثقف نقي ينتمون إلى الطبقة

---

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

الوسطى [١] كما أن أعمال السلب والنهب وفتح السجون وأقسام الشرطة وإخراج المساجين وسرقة الأسلحة [٢] وإشاعة الفوضى ، وإرهاب الناس ، والاعتداء على المتحف المصري ونهب بعض محتوياته ، وحرق وثائق أمن الدولة كل هذه الأعمال شباب الثورة الحقيقيون منها براء إنما تنسب هذه الأعمال إلى فلول النظام السابق ، وبلطجيته ، ورعاع الناس وسفلتهم ممن ينتهزون الفرص للقيام بالسلب والنهب والاعتداء على الناس وممتلكاتهم .

كما أن الثورة ٢٥ يناير لم تكن أبداً ثورة شيوعية قامت لمحاربة الأديان ، وإسقاط مؤسساته ، والتنكيل بعلمائه ، وهدم دور العبادة بل على العكس تماماً فثوار ٢٥ يناير الحقيقيون شباب صالح يعرف ربه ويؤدي فرائضه ، ولقد ثار من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وهي مبادئ نادت بها الأديان السماوية ، كما أن كثيراً من الذي شاركوا في الثورة منذ يومها الأول ينتمون إلى جماعات دينية مختلفة .

أنا لا أقول ذلك جزافاً أو رجماً بالغيب ؛ فقد خالطت شباب التحرير في الأيام الأولى للثورة وأشهد أنهم من خير شباب مصر أحسبهم كذلك ولا أزكي على الله أحداً .

---

(١) الطبقة الوسطى هي التي تقع بين الطبقة العليا والدنيا. فالمجتمع يتوزع على ثلاث طبقات أساسية، وهي : الطبقة العليا المتحكمة في صناعة القرار ووسائل الإنتاج ، والطبقة الدنيا هي التي تقبع اقتصاديًا تحت مستوى خط الفقر ، واجتماعيًا على هامش الحياة من الفلاحين والعمال والحرفيين ، والطبقة الوسطى هي التي تتوفر لها بعض أسباب العيش الكريم من خريجي المدارس والجامعات وتأخذ على عاتقها تطوير المجتمع وتقدمه وحل مشاكله وتنمية موارده واستقراره كما هو الأمر بالنسبة للشرفاء من الكتاب والصحفيين والأدباء ، والمثقفين من المحامين والأطباء والمعلمين والضباط وشباب الجامعات والمعاهد العليا .. وغيرهم . هؤلاء هم عماد الأمة وأساس تقدمها ورفاهيتها . فحركات التحرر والاستقلال كانت من صنع هذه الطبقة ، كما أن عمليات التغيير السياسي والاجتماعي، التي ظهرت في شكل ثورات وحركات ثقافية تنويرية، كانت أيضا من صنعهم .

(٢) لقد أخرج الثائرون على بيبي الثاني المساجين ليشاركوا في الثورة أما مبارك وأذنابه فقد أخرجوا المساجين لإجهاض الثورة لا للمشاركة فيها ، تماما كما حدث في موقعة الجمل جمعوا البلطجية للإجهاز على الثورة لا لتأييد مبارك كما زعموا .

وهذا لا يمنع اختلافي مع بعضهم ممن اتهموا مبارك بكل رذيلة وجردوه من كل فضيلة ،ووصموا كل أعماله بالفساد ،وكل منجزاته بالخراب ،ودعوا إلى وجـوب إعدامه دون محاكمة ، وتعليقهم دمية كبيرة من رقبتها على أحد أعمـدة إشـارات مرور ميدان التحرير مكتوب عليها حسني مبارك [1] ، وكـذلك اتهـامهم مبـارك بالعمالة للأمريكان ، والعمل على إزالة اسمه واسم زوجته سوزان من كل الميادين والمنشآت العامة .

ولقد قررت محكمة القاهرة للأمور المستعجلة يوم ١٨ يونيـو ٢٠١١، تعليـق الحكم الذي يقضي بإزالة اسم الرئيس السابق حسني مبارك وزوجته سوزان ثابـت من الميادين والمنشآت العامة .

نحن نريد ثورة ٢٥ يناير مثالاً يحتذى في الرقي والتحضر وعدم الخروج علـى الشرعية الدستورية ، وإقامة دولة القانون ذالك القانون الذي أهدته مصـر للعـالم أجمع ، كما بينا آنفاً ، ولا يدفعنا بغضنا للنظام السابق إلى ترك العـدل ومجافـاة الحقائق وإلقاء التهم جزافاً دون دليل .

يقول تعالى :

{ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } (المائدة:٨)

أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد في كل حال. وقال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثـل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض. [2]

([1]) لقد تناقشت مع بعض شباب ميدان التحرير حول رفع هذه الدمية التي تسيء للثورة السـلمية العظيمة وقد اعتبرت بعض وكالات الأنباء العالمية تعليق الدمية إشارة عنيفة إلى اتجاه دموي قد تسلكه الثورة المصرية ولم يأخذ أحد بكلامي ، ولقد مزق الثوار هذه الدمية يوم ١١ فبراير فـور سماعهم نبأ تنحي مبارك .

([2]) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٢ .

دروس مهمة من الثورة المصرية الأولى

بعد حوالي قرنين من الفوضى والخراب الذي أحدثهما خروج الحكام على الدين ومحاربتهم لرجاله ساق لمصر أسرة من الصعيد تسكن مدينة " أرمنت " أخذ أفرادها يكافحون ويناضلون حتى استطاعوا آخر الأمر أن يعيدوا إلى وطنهم الوحدة والاستقرار وبذلك بدأ في التاريخ المصري ما تعارفنا على تسميته بعصر " الدولة الوسطى " (٢١٠٠- ١٧٠٠ ق.م) واستطاعت مصر إبان هذه الفترة أن تصحو من غفوتها ، وأن تستعيد مجدها ، وتستكمل أسباب حضارتها التي كانت قد ازدهرت في عصر الدولة القديمة ، وأن نَهِبَ العالم المتحضر إذ ذاك ألواناً مختلفة من الفنون والعلوم . (١)

وهذا ما يحلم به كل مصري الآن فبعد التخلص من النظام الفاسد ورجاله يحلم كل مصري بنهضة مصرية شاملة في كل المجالات تعيد هذه النهضة مصر إلى مكانتها العظمى التي تليق بأم الدنيا وصانعة أول حضارة في التاريخ .

والإيمان والعلم هما أساس حضارة مصر الخالدة في مختلف عصورها الذهبية ، والتخلي عنهما كان السبب المباشر في انحلال الحضارة وانطفاء شعلتها وترديها في عهود الاضمحلال . (٢)

لذا ينبغي على المصرين التمسك بأسس نهضتهم ، وسر عظمتهم ، وأن يكون الإيمان والعلم شرطين أساسيين فيمن يمثلهم في حكم البلاد والمجالس النيابية وتولي المناصب العامة ، كما ينبغي التعاون مع حكامهم في صناعة النهضة وعدم الاكتفاء بالمشاهدة ، والمطالبة ، وانتظار الزعيم الذي يحقق أحلامهم ، فحتى لو أحسن المصريون اختيار الحاكم الصالح فينبغي ألا تكون سلطته مطلقة ؛ فالسلطة المطلقة

---

(١) د. عبد المنعم أبو بكر " العصر الفرعوني " الفصل الأول من كتاب " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) د. سيد كريم " لغز الحضارة " مرجع سابق ص ٣٢٢ .

مفسدة مطلقة ، وكم حاكم مصري بدأ حكمه بالصلاح والإصلاح وعندما مات لم يُخلّف وراءه إلا الخراب والدمار ! لذا وجب على كل المصريين أن يشاركوا مشاركة إيجابية ، كلٌ في موقعة ، في صناعة مستقبل أفضل، وألا يتركوا مسئوليهم دون مراقبة أو محاسبة .

يقول الشاعر بهاء جاهين في أغنية ختام مسرحية " الزعيم " :

الكورال : أنت زعيمنا .. واحد منا .. ابن شارعنا عايش بيْنا .. وأنت الفارس وأنت الحارس .. أنت مفكر ثورة مارس .. ابني لنا عمارات ومباني .. حقق لنا يا زعيم أحلامنا .

الزعيم : لأ .. لأ .. تاني حنبدأ .

الفارس تمثاله إتشقق .

والفروسية بقت حدوتة وكلام مش ممكن يتصدق .

راح نستنى لإمتى الفارس .

مش ناقصين من تاني فوارس .

الشعب اللي مصيَره في إيده .. هو الفارس هو الحارس .

والأحلام مش عاوزه فوارس .. الأحلام بالناس تتحقق . "

لم تكن ثورة المصريين على " بيبي الثاني " تعد استثناء في تاريخ مصر القديم ، ولكن الحقيقة أن المصريين القدماء ما استكانوا أبداً لحاكم ظالم استهزأ بعقيدتهم ، أو استذل كرامتهم ، أو تحكم في أرزاقهم .

ولقد ارتكب الهكسوس هذه الجرائم الثلاث في حق الشعب المصري فثاروا عليهم حتى طهروا البلاد منهم وذهبوا غير مأسوف عليهم .

فبعد أن نعمت البلاد بالوحدة والاستقرار في عهد منتحوتب الثاني ونهضت نهضة شاملة في عهد أمنمحات الأول والملوك السبعة الذين اقتفوا أثره وتمتعت بقسط كبير من الرخاء والعمران ، وخاصة في عهد سنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث . حدث

أن خلف أمنمحات الثالث ملوك ضعاف تلاشى على أيديهم العدل فكان ذلك نذيراً بانتهاء أيام تلك النهضة ودخول مصر مرة ثانية في عصر من عصور الفوضى والظلام ، وكثر تطلع كبار الموظفين ، وقواد الجيش ، وكل ذي سطوة إلى العرش، ونتج عن ذلك أن تعددت المؤامرات واضطرب الأمن وتسرب الفساد إلى كل مرافق الحياة .

غزو الهكسوس مصر والعذاب الأدنى

وكانت النتيجة الحتمية لاضطراب أحوال البلاد وضعف حكومتها أن سقطت فريسة حوالي ١٧٢٥ ق.م في يد عدو متربص بها إذ دهمها المغيرون من القبائل الرعوية التي أطل عليها اسم " الهكسوس " واحتلوا معظم أرض مصر التي لم يبق منها إلا شريط ضيق من صعيد مصر يحكمه أمراء طيبة . (١)

كان احتلال الهكسوس مصر عقاباً من الله تعالى بسبب الصراع على الحكم وإهمال مصالح البلاد والعباد ، واندلاع الفتن ، وكثرة المظالم .

يقول مانيتون المؤرخ المصري الأشهر عن احتلال الهكسوس مصر : " إنه في عهد ملك يدعى " توتيمايوس " لسبب لا أعلمه حلَّت بنا ضربة من الله وفجأة تقدم في ثقة بالنصر غزاة من الشرق من جنس غامض لاحتلال أراضينا واستطاعوا بسهولة الاستيلاء عليها بقوتهم دون ضربة واحدة ، ولما تغلَّبوا على حكام البلاد أحرقوا مدننا بغير رأفة ، وهدموا معابد الآلهة ، وعاملوا الأهالي بقسوة فذبحوا البعض واتخذوا نساء وأطفال البعض الآخر عبيداً لهم ، وأخيراً عينوا واحداً من بينهم ملكاً يدعى " ساليتس " اتخذ منف عاصمة له وفرض الضرائب على الصعيد والدلتا . " (٢)

لقد كان غزو الهكسوس مصر ضربة من الله تعالى ليذيقهم عقوبة بعض ما عملوا، وليس أدل على حالة الفساد والاضطراب والضعف والتخاذل التي كانت

---

(١) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ٧ .
(٢) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٨٣٦ .

تعيشها مصر حينئذ من عدم مقاومة المصريين لهؤلاء الغزاة المجهولين لدرجة أنهم لم يوجهوا إليهم ضربة واحدة كما قال مانيتون .

{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (السجدة: ٢١)

فالله تعالى يعاقب الأمم التي ظلمت وأفسدت ، إن كان يرجى منها الخير ، بالعذاب الأدنى وهو عذاب الدنيا ، من طريق ما ينزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة .{ دُون العذاب الأكبر } أي : الأشد والأعظم والأبقى ، وهو عذاب الآخرة { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون } عما هم فهي من شرك وكفر وفسوق وعصيان .(١)

وهذا ما حدث مع المصريين إبان احتلال الهكسوس مصر فالنصوص المصرية ترجع سهولة غزو الهكسوس مصر إلى " وباء كان فيها ، ولم يكن هناك سيد بين المصريين يقوم ملكاً عليهم " (٢)

يقول تعالى { وَلَقَدْ أرسلنا إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بالبأساء والضراء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } .

البأساء : تطلق على المشقة والفقر الشديد ، وعلى ما يصيب الأمم من أزمات تجتاحها بسبب الحروب والنكبات . والضراء . تطلق على الأمراض والأسقام التي تصيب الأمم والأفراد .

ولقد عاقب الله تعالى المصريين باحتلال الهكسوس أرضهم ، ونهب ثرواتهم لعلهم يخضعون ويرجعون عن فسادهم ،وظلمهم أنفسهم ، وتفرق كلمتهم ، وتعطيلهم شريعة الله . ويهبوا للدفاع عن بلادهم ومعتقداتهم .

وهذا ما حدث بالفعل فالمصريون الذين لم يقاوموا المحتل الغاصب ما لبثوا أن ثاروا عليه حتى طردوه ، ولم يكتفوا بذلك بل غزو البلاد المجاورة وكونوا إمبراطورية عظيمة .

---

(١) الشيخ محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط "

(٢) نقلا عن د. عبد المنعم أبو بكر " العصر الفرعوني " الفصل الأول من كتاب " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٢٧ .

ثورات مصر ضد الهكسوس

يزعم المؤرخون أن الهكسوس دخلوا مصر دون أن يريقوا دماً . ولكنهم عــاثوا فساداً فهدموا المعابد واستعبدوا المصريين الذين لم يرضخوا لذلك النير فرفعوه عن أعناقهم وثاروا في وجه المغتصب وطاردوه حتى طردوه وطلبوا الموت في ســبيل حريتهم .

ولم يتصف المصريون قديماً بالبسالة والشجاعة بمثل ما اتصف به مصريو هــذا العصر ، ولم يتعلق المصري بالجندية أو يفاخر بانضمامه إلى الجيش بمثل ما فاخر به مصريو ذلك العصر .

ولا من شك أن حكم الهكسوس مصر كان العامل الأكبر الــذي جعــل الشــعب المصري للمرة الأولى في تاريخه شعباً محارباً مستبسلاً في طلب الحرية فنالهــا ، ثم عرف طعم الحرب وتذوق معنى النصر فخرج خارج حدود بلاده بعد ذلك يطلب الغزو ويسعى وراء المغانم ، وما لبث أن خضعت له كل البلاد المجاورة فنشــأت الإمبراطورية المصرية الأولى التي كونها البطل الفذ تحتمس الثالث . [٣]

طوال حكم الهكسوس الذي تجاوز القرن لم يستسلم لهم المصريون ، ولم يتعاونوا معهم ، بل ظلوا معادين لهم ينظرون إليهم نظرة الكره والاحتقار حتى هبَّ أمــراء طيبة يكافحون في سبيل استرداد حرية بلادهم المسلوبة وقد كتب الله لهــم النجــاح وتمكن أحمس من الاستيلاء على عاصمتهم في الدلتا ثم تبعهم إلى فلسطين حيــث هزمهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة في التاريخ . فسجل لهم بذلك فصل الختام من ذلك العهد البغيض المشئوم ، عهد الاحتلال والتحكم الأجنبي في البلاد . [٤]

هذه هي مصر التي يصفها البعض بأنها تفتح ذراعيها لكل غاز ، وهــؤلاء هــم المصريون الذي يصفهم من لا يعرف حقيقــتهم بــالخنوع والاستســلام والرضــا بالهوان.

---

(٣) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر والشرق الأدنى القديم " مرجع سابق ص ٣٤١ .
(٤) د. على رضوان " مصر القديمة " مرجع سابق ص ٧ .

نعم شعب مصر شعب مسالم يكره الحرب ويحب السلام لأنه شعب مؤمن يبغض سفك الدماء ، ويعشق الإصلاح والبناء ، لكن إذا كتب عليه القتال ، وهو كره له ، قاتل وانتصر .

ثورات مصر ضد الفرس

إن حياة الشعوب تشبه موج البحر لا استقرار لها فهي دائماً في صعود وهبوط فتظهر أسرة حاكمة تأخذ في أسباب الإصلاح فيعلو شأنها ويؤمَن جانبها وتبسط نفوذها على الشعوب الضعيفة . ثم يخلُف من بعدهم خَلَفٌ ضعاف يهملون الواجبات ويتبعون الشهوات فيبددون ما صنعه آباؤهم ويصغرون في عين أعدائهم فتدور الدائرة عليهم وتدول دولتهم .

فبعد أن طرد أحمس الهكسوس وقضى على ثورات النوبيين واتجه للإصلاح الداخلي مما جعل المؤرخين يُعِدُّونه رأس عهد جديد من أزهى عصور التاريخ وهو عهد الدولة الحديثة .

لكن في العصر المتأخر من التاريخ الفرعوني تكالبت العلل على مصر وبدأ عهد مظلم انتهى باحتلال الفرس لمصر ولم يخضع المصريون لهذا الاحتلال ، كما هي طبيعة المصرين مع الاحتلال الأجنبي فعندما غزا " قمبيز " الفارسي مصر سنة ٥٢٥ ق.م وهزم بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، ويروي هيرودوت أن قمبيز اضطهد المصريين فكرهوه ، وكان متعسفاً في معاملة الكهنة فنبذوه وتدخل في معتقدات المصريين وانتهك حرمة الديانة المصرية .[1]

وكما قلنا إن المصري لا يقبل أبداً أن تهان ديانته أو تنتهك كرامته أو تنهب ثرواته لذا وبرغم حالة الضعف التي كانت تمر بها مصر حينئذ فإن المصريين قاموا في سبيل حريتهم بالعديد من الثورات قُضي على أغلبها إلى أن انتهز

([1]) د. سمير أديب " موسوعة الحضارة المصرية القديمة " مرجع سابق ص ٦٥٨ .

"أميرتي" الملك المصري الذي كان جده قد آمن بفكرة أن الموت في سبيل بلاده أفضل وأشرف من الحياة تحت الاحتلال فرصة انقلاب الفرس على بعضهم فخرج على رأس أتباعه وأطلقوا نداء " حي على السلاح " في المصريين ، وهاجموا الفرس وتمكنوا من دحرهم خارج الحدود حتى سوريا ، وأعلنوا الاستقلال إلى أن مات بعد ست سنوات فتمكن أحد أتباعه من الحكم وهو " نفوريت " مكوناً الأسرة التاسعة والعشرين الوطنية أيضاً ، والتي بلغت مدة حكمها حوالي عشرين عاماً من ٣٩٨ ق. م إلى ٣٧٨ ق. م .

ثم الأسرة الثلاثون وهي أسرة وطنية حكمت من ٣٧٨ ق. م إلى ٣٤١ ق. م وعمل ملوكها بهمة من أجل صالح البلاد داخلياً ، وكانوا في كفاح مستمر خارجيّاً ضد الفرس الذين كانوا يتحينون أية فرصة العودة إلى مصر . وقد عادوا فعلاً بعد انتهاء هذه الأسرة ، ولكن حكمهم لم يدم إلا أقل من عشر سنوات من ٣٤١ ق. م إلى ٣٣٢ ق. م فقد استولى الإسكندر على مصر وطرد الفرس منها ، وضمها إلى إمبراطوريته الناشئة . " (١)

لماذا رحّب المصريون بالإسكندر الأكبر ؟

كما استنجد المصريون بالمسلمين العرب من ظلم الرومان استنجد أجدادهم بالإسكندر الأكبر (ذي القرنين) الذين اعتقدوا بنبوته وأنه ابن آمون " رسول الله " ليخلصهم من ظلم الفرس .

والإسكندر الأكبر هو ذو القرنين على الراجح من أقوال المفسرين والمؤرخين .

" عن قتادة قال : الإسكندر هو ذو القرنين " (٢)

وذكر القرطبي أن ابن هشام قال عن ذي القرنين : " إنه الإسكندر الذي بنى مدينة الإسكندرية " (١)

---

(١) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) الإمام السيوطي " الدر المنثور في التفسير بالمأثور " في تفسير قوله تعالى {يسألونك عن ذي القرنين}

وعن سبب تسمية الإسكندر الأكبر بذي القرنين يقول أحمد حسين في موسوعته تاريخ مصر : " وقد حرص الإسكندر ما عاش بعد ذلك على أن يحمل اسم ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود التي سكها بقرني المقدس آمون ، ولعل ذلك مصدر تسميته " بذي القرنين " (٢)

الإسكندر الأكبر نبي الله

الإسكندر (ذو القرنين) نبي من الأنبياء آتاه الله معجزات باهرة .

عن ابن عباس قال: ذو القرنين نبي " (٣)

وقال الفخر الرازي في تفسيره : " كان ذو القرنين نبياً " (٤)

والتاريخ يؤكد نبوة الإسكندر (ذي القرنين)

سار الإسكندر نحو مصر – وكانت إذ ذاك تحت حكم الفرس – ودخل مصر في خريف عام ٣٣٢ ق.م ، ولم يجد صعوبة في دخوله " إذ كان المصريون يرون فيه حليفاً لهم في ثورتهم وقتالهم ضد الفرس فقد استقبلوه استقبال الفاتحين ، مما جعل الوالي الفارسي يستسلم بدون مقاومة .

وصل الإسكندر إلى منف ، حيث أظهر ولاءه للديانة المصرية فقدم القرابين في معبد الإله بتاح (٥) ، ورسم نفسه فرعوناً في معبد بتاح طبقاً للطقوس المصرية ، وأبى الإسكندر إلا أن يدمج نفسه في الديانة المصرية وكان " آمون " في سيوة

---

(١) تفسير القرطبي لقوله تعالى { يسألونك عن ذي القرنين } .
(٢) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ ص ١٧٨ دار الشعب .
(٣)الإمام السيوطي " الدر المنثور " في تفسير قوله تعالى { يسألونك عن ذي القرنين }
(٤) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري " المجلد السادس كتاب حديث الأنبياء .
(٥) " بتاح " اسم من أسماء الله الحسنى عند المصريين القدماء ويعني : اسم الله الخالق ، كما أن " آمون " معناه : الذي لا تدركه الأبصار و" رع " معناه : إله الشمس ، و" خنوم " المبدئ .. فهذه الأسماء وغيرها عرفها المصريون القدماء ، في عصور ازدهار العقيدة ، على أنها صفات لله الواحد الأحد ، وليست أسماء للآلهة متعددة . راجع كتابنا "رؤية إسلامية للحضارات الإنسانية"

يعتبر إلهاً عالمياً يحج إليه أبناء العالم القديم كله ويعرفه الإغريق ليسألوه بصفة خاصة عن حاجاتهم .

فاخترق الإسكندر الصحراء من الإسكندرية حيث وصل إلى معبد آمون في واحة سيوة في رحلة شاقة مليئة بالأخطار واعتبر وصوله في خاتمة المطاف إحدى المعجزات ومظهر حفظ الآلهة له .. وفي معبد آمون نودي بالإسكندر ابناً لآمون .. مؤكداً بذلك قصة أمه أوليماس من أنه ابن زيوس إله اليونان .

وقد حرص الإسكندر ما عاش بعد ذلك على أن يحمل اسم ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود التي سكها بقرني المقدس آمون ، ولعل ذلك مصدر تسميته " بذي القرنين " (١)

وهناك كثير من العملات الموجودة في مصر وغيرها من البلاد التي نقشت عليها صورة الإسكندر وجميعها تصوره بقرنين .

وقد ذكر المؤرخون ومن بينهم : استرابيون " و " وكالستينس " كثيراً من القصص التي وردت في برديات " بطليموس الأول " منها أن الإسكندر ضل الطريق في مجاهل الصحراء فخرجت له الكوبرا حامية المعبد لتسير رافعة الرأس أمام القافلة حتى أوصلته إلى المعبد ، وقصة دخوله محراب آمون وأنه سمع الإله يناديه بقوله " يا بني " وأنه باركه في حروبه المقدسة ويؤكد المؤرخ سترابون أنه سمع تمثال أمون يخاطب الإسكندر بقوله : " إنك ابني ، وإني أعطيك الشجاعة وأمرتك أن تحضر لزيارتي ، وإني أمنحك السيطرة على كل البلاد وكل الأقطار الأجنبية تحت قدميك " (٢)

ولا ينبغي أن تفزعنا عبارة الإسكندر ابن آمون ، أو ابن إله اليونان فإن هذه العبارات لا تعني معناها الحرفي بل المقصود بها التشريف وكان هذا الأمر شائعاً عند أهل الكتاب . وهي تعني في شريعتهم أنبياء الله ورسله .

(١) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ ص ١٧٨ مرجع سابق .
(٢) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٢١٥ ، ٢١٦

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } (المائدة:١٨)

قال الإمام الألوسي في تفسير الآية : " ومرادهم بالأبناء المقربون أي نحن مقربون عند الله تعالى . إن إطلاق ابن الله تعالى على المطيع قد كان في الزمن القديم ، ففي التوراة قال الله تعالى لموسى: اذهب إلى فرعون وقل له يقول لك الرب إسرائيل ابني بكري أرسله يعبدني فإن أبيت أن ترسل ابني بكري قتلت ابنك بكرك ، وفيها أيضاً في قصة الطوفان أنه لما نظر بنو الله تعالى إلى بنات الناس وهم حسان جداً شغفوا بهن فنكحوا منهن ما أحبوا واختاروا فولدوا جبابرة فأفسدوا فقال الله تعالى : لا تحل عنايتي على هؤلاء القوم ، وأريد بأبناء الله تعالى أولاد هابيل ، وبأبناء الناس أبناء قابيل ، وفي المزامير أنت ابني سلني أعطك ، وفيها أيضاً أنت ابني وحبيبي . " (١)

إذن لا ترجع السرعة التي أتم بها الإسكندر فتح مصر إلى تفوقه العسكري على الفرس بل ترجع أيضاً إلى مساعدة المصريين له ؛ فقد كانوا في ثورة مستمرة ضد المحتلين الفرس الذين ارتكبوا الجرائم الكبرى التي إذا مس إحداها ثار المصريون ، الإساءة إلى عقيدتهم المقدسة ، وسلبهم حريتهم ، وأرزاقهم .

كان الإغريق في نظر المصريين أصدقاء وحلفاء طالما عاونهم على استرداد حريتهم المسلوبة كما رأوا في الإسكندر منقذاً ومنجداً لهم من الاستعمار البغيض . وقد بهرت حضارة مصر العريقة الإسكندر الذي بدأ بالتقرب من المصريين محاولاً إرضاء شعورهم القومي والديني فاحترم العقيدة المصرية وقدَّم القرابين لآمون (الذي لا تركه الأبصار) وقام برحلة إلى واحة سيوة حيث زار معبد الإله آمون ، وهناك منحه الكهنة لقب " ابن آمون " . (٢)

مصر والحضارة الهلينستية

فكر الإسكندر في تكوين حضارة جديدة تجمع بين مزايا الحضارات الشرقية العريضة والحضارة الإغريقية الناشئة ؛ ولتحقيق ذلك عمل على فتح أبواب الشرق

(١) الإمام الألوسي " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم " ج ٤ ص ٤٣٤
(٢) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٨٨ .

على مصراعيها أمام الإغريق للإقامة بها كما أقام بعض المدن الجديدة كالإسكندرية في مصر وغيرها لتصبح مراكز لنمو تلك الحضارة الجديدة ولتعمل على نشرها في كل مكان ، وقد سميت هذه الحضارة الجديدة باسم " الحضارة الهلينستية " .

وقد ازدهرت الحضارة الهلينستية في مصر إذ وجدت فيها تربة خصبة للنمو على نحو لم تشهده في بلاد الإغريق نفسها وذلك لأنها أفادت من حضارات بلادنا العريقة كما وجدت فيها أنظمة راسخة وثروة بشرية ومادية عظيمة فضلاً عن موقعها الفريد وسط العالم المتمدين في ذلك الوقت ، فكانت بلادنا بذلك بمثابة المصنع الذي صُنِعَت فيه الحضارة الجديدة ، وأصبحت مدينة الإسكندرية النموذج الأمثل لها . ومنها أشعَّت تلك الحضارة على باقي أجزاء العالم ، وفيها احتفظ أجدادنا بعناصرها مئات السنين .

ولم يعش الإسكندر طويلاً ليحقق أماله في بناء تلك الحضارة وترك لخلفائه في مصر تحقيق ذلك الأمل . (1)

لذا لا عجب أن المصرين لم يعتبروا الإغريق محتلين إنما اعتبروهم ، كما سيعتبرون المسلمين العرب بعد ذلك ، فاتحين وتعاونوا معهم على طرد المحتلين وساهموا معهم في بناء حضارة جديدة تعد امتداداً طبيعيّاً لحضارتهم القديمة .

وعمل البطالمة على التقرب من المصريين فاحتفظوا بمعظم نواحي التنظيم الإداري التي خلَّفها لهم الفراعنة مع إدخال تعديلات طفيفة اقتضتها الظروف ، ولم يحاولوا التدخل في شئون المصريين المدنية أو عاداتهم أو تقاليدهم أو طرق حياتهم حرصاً منهم على كسب مودتهم وقد احتفظ المصريون كعادتهم بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من مظاهر الحضارة المصرية القديمة ولم تكن للحضارة الإغريقية من سبيل إليها إلا فيما ندر .

---

(1) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٠ .

كما تبع الإسكندر والبطالمة من بعده سياسة تجاه الحضارة المصرية بوجه عـام والديانة المصرية بوجه خاص تنطوي على الاحترام الكامل فتسابقوا علـى حمـل الألقاب الملكية القديمة ومثلوا أنفسهم في المناسبات الرسمية مرتدين زي الفراعنة(١)

والسؤال الآن إذا كان المصريون قد تحالفوا مع البطالمة بل تآلفوا معهم إلى حـد الاندماج الحضاري والديني فلماذا ثاروا عليهم في آخر عهدهم ؟

ثورات المصريين ضد البطالمة

حكم البطالمة وهم السلالة التي انحدرت من بطليموس أحد قادة الإسكندر المقربين مصر منذ ٣٣٣ حتى ٣٠ ق.م ، حيث تولى حكم مصر ١٥ ملكـاً بطلميّـاً،ويمكن تقسيم تاريخ حكم البطالمة لمصر إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأول : وهي فترة حكم البطالمة الأوائل من ٣٢٣ إلى ٢٢٢ ق.م وهـي فترة رخاء وثراء وقوة .

المرحلة الثانية / وهي من ٢٢٢ إلى ١١٧ ق.م تبدأ خلالها البلاد في التخلف ، أو هي بداية الانهيار ، حيث انقسمت العائلة المالكة على نفسـها بسـبب طموحـات بعضهم الزائدة ، مما أدى في النهاية إلى كثرة تدخل الرومان في أحـوال مصـر الداخلية .

المرحلة الثالثة : من ١١٧ إلى ٣٠ ق.م وهي التي وصلت البلاد في نهايتها إلـى الانهيار الكامل ، وخلال هذه الفترة نجد أن بعض الحكام يلجئون إلـى الرومـان للتدخل لإبقائهم على العرش . (٢)

وبرغم أن البطالمة كان يعتبرهم المصريون حلفاء لا محتلين دخلاء إلا أن هذا لم يمنع المصريين من الثورة على البطالمة المستبدين الذين ظلموهم وجاروا عليهم .

---

(١) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٤ .
(٢) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٦٠ .

قام المصريون بثورتهم الأولى على البطالمة في عهد الملك "بطليموس إيوار جيتيس الأول " بعدما انخفض منسوب مياه الفيضان ، وحلَّ القحط بالبلاد ، وأشرف الناس على الهلاك ، ومن ثمَّ اشتدَّ سخط المصريين على الملك الذي كان يشتد في القسوة عليهم ، وينفق أمالهم في حروب لا طائل تحتها .

ظل المصريون في ثورتهم حتى عاد الملك من الخارج ومعه قواته المسلحة المقدونية والإغريقية ، فأطلق يده ضد المصريين حتى أخمدت ثورتهم ، وقد حاول الملك ، بعد ذلك ، استرضاء المصريين وكسب ودهم فأنفق من أمواله الخاصة ، واستورد الغلال من سوريا وقبرص وفينيقيا ، ووزعها على الأهالي الذين تهددتهم المجاعة . (١)

لقد زخر تاريخ البطالمة والسليوقيين بالحروب بينهما فالبطالمة يحاولون السيطرة على سورية ، والسليوقيون بدروهم يعارضون أطماع البطالمة ويردون على ذلك بالرغبة في الاستيلاء على مصر ، وقد أضعفت تلك الحروب كلا البلدين .

وقد نجح السليوقيون في هزيمة الجيش البطلمي في عهد بطليموس الثالث وطرده من سورية ، وقد طلب بطليموس الرابع مساعدة المصريين في حربه مع السليقويين وقد هبَّ المصريون لنجدة بطليموس لأنهم يعتبرون البطالمة أصدقاء وحلفاء وشركاء في تشييد الحضارة الجديدة " الهلينستية " ولقد تمكَّن الجيش المصري من إحراز النصر على السليوقيين في معركة رفح عام ٢١٧ ق.م ، وكانت هذه هي المرة الأولى منذ زمن طويل التي يشترك فيها جنود مصريين في إحدى المعارك وينتزعون النصر وأحس الجيش المصري وقد استعاد ثقته بنفسه وقوته أنه جدير بحكم مصر بدلاً من الحكام البطالمة الضعاف .

وما إن عاد المصريون من ميدان القتال مزهوين بنصرهم حتى ملأت الثقة نفوسهم وبدءوا يبحثون عن الزعيم الذي يقود ثورتهم الثانية ، وسرعان ما عثروا

---

(١) د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ٩٥ .

عليه فأشعلوا الثورة على الفور في الدلتا ومصر الوسطى ، ثم امتد لهيبها إلى مصر العليا فتأججت هناك عام ٢٠٧ – ٢٠٦ ق.م .

وكانت هذه الثورة الشعبية عنيفة جارفة قضى فيها الثوار على كل من كان يحاول الوقوف في وجوههم ، وقد راجت في أثناء الثورة تكهنات كثيرة تبشر بقرب انتهاء حكم الأجانب المقدونيين وعودة البلاد إلى أبنائها الوطنيين .

وقاوم بطليموس الرابع هذه الثورة العارمة بكل قواته العسكرية حتى استطاع آخر الأمر أن يخمدها بعد أن كابد خسائر فادحة في رجاله وأمواله .

ولكن للأسف أن هذه الثورة كانت قريبة الشبه بالثورة على " ببيي الثاني " فتحدثنا الوثائق البردية بأن المصريين لم يكتفوا بتحطيم ممتلكات الأجانب ، وإنما اعتدوا أيضاً على منازل بعض الوطنيين كما يحدثنا " حجر رشيد " بأنهم اعتدوا على المعابد وأعملوا فيها التخريب ، وتمخضت أعمال العنف التي قام بها الثوّار المصريون على بور كثير من الأراضي الزراعية ، وتعطيل عدد كبير من الصناعات ، هذا إلى أن الفوضى الشاملة التي نزلت بمصر قد أثرت تأثيراً على رخاء البلاد وأمنه واستقراره . (١)

قضى بطليموس الرابع على الثورة الثانية ولكن نارها مازالت مشتعلة تحت الرماد وعندما اعتلى بطليموس الخامس عرش مصر وهو حدث صغير السن وتولى الوصاية فاسق يدعى " أجاثوكليس " وامتلأت البلاد بالدسائس والمؤامرات ، فكانت فرصة استغلها المصريون لمواصلة الكفاح في سبيل التحرير من الحكم الأجنبي .

وأدى ما انغمس فيه الملك من فسق وفجور مع أفراد حاشيته الفاجرة إلى ضعف السلطة المركزية والاستهانة بها ، ومن ثمّ بدأت نيران الثورة تشتعل في الإسكندرية

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الثورة الثانية ضد البطالمة انظر د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ٩٩– ١٠٢ .

عاصمة البطالمة وحصنها الحصين ، فقتل " أجـاثوكليس " وأعوانـه الفاسـدين ، واضطربت شئون العاصمة اضطراباً شديداً ، ولم تلبث الثورة أن امتدت إلى أنحاء الدلتا حيث ضاق الفلاحون والصناع المصريون بضروب العسف والاضطهاد التي أثقلت كواهلهم ؛ فقاموا بهجمات على كل ما يمثل الثروة والقوة . أما فـي أعـالي الصعيد فقد بقي إقليم طيبة مستقلاً عـن البطالمـة يحكمـه ملـك نـوبي يـدعى "عنخماخيس " .

وبينما أوصياء بطليموس الخامس يعبئون كل جهـودهم وقـواهم لكـبح جمـاح الثورات المصرية نزلت بالبطالمة ضربة قاصمة من الخارج فقـد انتهـز الملـك السلوقي فرصة الفوضى التي عمت وادي النيل والتحم هو والقوات البطلميـة فـي معركة فاصلة فهزمها شر هزيمة ، وانتزع من البطالمة ممتلكـاتهم فـي سـوريا الصغرى وتراقيا ، كما أضاع من أيديهم تجارة القوافل السورية وأسواقهم في بحر إيجة .

وحاول بطليموس الخامس إصلاح الأمور واستمالة المصريين إليه لعلهم يركنون للهدوء فأصدر قراراً ملكياً عفا بموجبه على الثوار عفـواً عامـاً وعـن الجنـود المصريين بوجه خاص ، وأغدق على المعابد والأهلي كثيراً من المنح والهبـات ، وألغى الضرائب ، ونزل عما له من ديون متأخرة لدى المدينين المصريين . وأطلق سراح المسجونين ، وأعطى الهاربين الأمان ، وسمح لهم بالعودة إلى ممتلكاتهم .

فهل هدأ المصريون بعد ذلك ؟ وهل أفلحت معهم هـذه الأسـاليب ؟ إن العـزة الوطنية لا يمكن أن تشترى بأي ثمن ، ولم يثر المصـريون علـى البطالمـة لأن الضرائب التي فرضوها عليهم باهظة ، أو لأنهم كانوا يسخرونهم في شتى الأعمال الشاقة المرهقة، وإنما ثاروا لعزتهم الوطنية التي سلبت ، ولكرامتهم القومية التـي أهدرت على أيدي طغاة البطالمة .

واستمر المصريون في ثورتهم العارمة ، واستبسلوا في وجه جيوش الملك التي أرسلها لإخماد الثروة ، ولم تستطع جيوش الملك أن تقضي على الثورة إلا بعد أن تكبدت أفدح الخسائر . (١)

وأخذت دولة البطالة تنهار سريعاً بعد أن وصلت ثورات المصريين عليهم إلى ست ثورات قوضت دعائمها ، وأنهكت قواها الغزوات الخارجية المتلاحقة . فضلاً عن التدخل الروماني الذي أخذ يتزايد بصورة واضحة حتى غدا الملوك البطالمة مجرد أدوات في أيدي الساسة الرومان ومجلس الشيوخ الروماني .

وانتهى أمر البطالمة بتولي العرش بطليموس الثاني عشر مشتركاً مع أخته كليوباترا الشهيرة التي حاولت بكل السبل أن تعيد إلى دولة البطالمة سابق مجدها وعزها ، فباءت بالفشل ، واضطرت إلى الانتحار لتجنب نفسها مرارة الوقوع في أسر القائد الروماني . (٢)

ثورات المصريين ضد الرومان

لم تُرْهِب قواتُ الرومان الضخمة المدربة المصريين فلم تكد تمضي بضعة أشهر على احتلال الرومان مصر حتى نشبت الثورة ، وكان من الطبيعي أن تنشب أولاً في جنوب الوادي ، وفي منطقة طيبة خاصة معقل الحركات الوطنية التي تزعمها الكهنة المصريون من قديم الزمن ضد الغزاة ، وقد هبَّت طيبة ثائرة في وجه البطالمة الأواخر ، وكادت أن تستقل بنفسها مما أوغر صدور البطالمة عليها فدمروها تدميراً في سنة ٨٨ ق.م .

ولم تكد طيبة والمنطقة المحيطة بها تسمع بوصول الرومان حتى شقت عصا الطاعة ، وتمردت عليهم ، وما لبثت أن أعلنت الثورة ، ونكّلت بجباة الضرائب

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول الثورة الثالثة ضد البطالمة انظر د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٠٣-١٠٦ .

(٢) د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٢٤ .

الرومان ، واستولى الرعب على السلطات الرومانية بالإسكندرية ، ولم تجد إزاء استفحال الخطر سوى تجريد حملة قوية لقمع الثورة المصرية ، وتولى قيادة الحملة الحاكم نفسه " كورنيليوس جاللوس " الذي سجل خبر الثورة وإخمادها على نقش بثلاث لغات : اللاتينية ، واليونانية ، والمصرية القديمة . (١)

وهكذا فإن مصر أثبتت أن دماء الكبرياء لا ينضب من عروقها مهما كثر المحتلين وتعاقب عليها الغزاة فهي تعلن الثورة على كل ظالم مغتصب فإن أُخمدت ثورتها لجأت إلى حرب العصابات ففي عام ١٧٢م إبان الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس قام الفلاحون المصريون في شمال الدلتا بثورة عنيفة اتخذت شكل حرب العصابات ، وعرفت باسم " ثورة الرعاة " تلك الثورة التي نشبت بعد إجهاض ثورات إقليم طيبة في مطلع ذلك عصر الروماني ، وقد تزعم الثورة أحد الكهنة وهو "ايزيدور" .

والواقع أن أحوال الفلاحين المصريين كانت تزداد سوءاً على مر الأيام حتى بلغت عند منتصف القرن الثاني الميلادي حداً لا يحتمل تحت وطأة نظام الضرائب بالغ الإرهاق وخدمات إلزامية لم توزع توزيعاً متكافئاً مع القدرة المالية بين الأغنياء والفقراء ، وأعمال سخرة أُكره عليها الفلاحون وشملت أشخاصهم ودوابهم. وقد ترتب على ثورة اليهود المدمرة في عصر تراجان تخريبُ الأراضي الزراعية وإهمال نظام الري ؛ فساءت أحوال الزراعة وهجر الفلاحون أراضيهم التي لم يروا جدوى من فلاحتها ما دام لا يبقى لهم من ثمرة الجهود إلا النزر اليسير .

وهكذا بدأ الرومان يحصدون الثمار المرة لسياستهم الخرقاء في ابتزاز ثروة مصر وامتصاص الطاقة الإنتاجية لأرضها وأهلها .

وانتهز المصريون فرصة سحب بعض القوات الرومانية من مصر للمشاركة في الحروب في منطقة الدانوب فثاروا ثورتهم تلك التي بلغ من عنفها أن عجزت القوات الرومانية عن مواجهتها ، بل كادت الإسكندرية نفسها أن تسقط في يد الثوّار

(١) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٤٩ .

لولا وصول نجدة من سوريا بقيادة " أفيديوس كاسيوس " الذي استطاع بالخديعة أن يوقع بين الثوّار ويقضي عليهم عام ١٧٥م . (١)

ولم تكف الإسكندرية بعد هذا التاريخ عن مناوأة الحكم الروماني بشتى الوسائل ، واتخذت مقاومتها مظهراً آخر وهو تأييد قواد الجيوش المرابطة في الشرق الذين كانوا يتمردون على السلطة الشرعية في روما ، وينادون بأنفسهم أباطرة كما حدث بعد اغتيال الإمبراطور " برتيناكس " الذي ارتقى عرش الإمبراطورية فترة قصيرة بعد مصرع " كومودوس " في آخر عام ١٩٢ م فقد وقع اختيار الحرس البريتوري في روما على رجل ثري من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني يدعى " ديديوس جوليانوس " ولكن المصريين الذين كانوا يتحينون الفرصة لمعارضة روما لم يعترفوا بهذا المرشح وناصروا رجلاً آخر يدعى " بسكنيوس " كان قد نال الحظوة بين الأهالي بما أبداه من حزم في كبح جماح جنود الرومان ومنعهم من النهب والسلب .

غير أن " بسكنيوس " لم يلبث أن اصطدم بمنافس آخر أقوى منه وهو " سبتميوس " الذي آل إليه العرش في أواخر عام ١٩٣ م . (٢)

كما لجأ المصريون إلى العصيان المدني لمقاومة الاحتلال الروماني فترك الفلاحين قراهم وتسللوا إلى داخل الإسكندرية ليدبروا بالاشتراك المصريين المقيمين بالمدينة ومع الإغريق المؤامرات والفتن ، ويثروا القلاقل والشغب ضد السلطات الرومانية، وكانوا يهملون عن قصد شئون الزراعة ، ويهجرون الحقول مما كان يؤدي إلى هبوط المحصول وقلة حصيلة الضرائب ونقص الدخل بوجه عام ، وكان الفرار من الأرض سلاحاً بتّاراً قاوم به المصريون الحكومة الرومانية المتعنتة ،

---

(١) د. فاروق موسوعة تاريخ مصر عبر العصور " العصر الروماني " مرجع سابق . ص ٤٦١، ٤٦٢ .

(٢) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٨٧ .

وأدى إلى إقفار الريف وتدهور الزراعة وانهيار الاقتصاد واضمحلال النفوذ الروماني . [1]

المسيحية والمقاومة الروحية

ويدخل عامل جديد كان له أكبر الأثر في تقوية الروح المعنوية وتعزيز الحركة الوطنية ألا وهو دخول المسيحية إلى مصر ، ولقد وجدت المسيحية في مصر أرضاً خصبة ؛ فالشعب المصري يمتاز بتدينه ، كما سبق وبينّا، والعقيدة المصرية القديمة كانت لا تزال ذات سيادة قوية على قلوب وعقول المصريين ، ولها تأثيرها في جميع أمور حياتهم لذا آمن المصريون بالمسيحية منذ بشّر بها القديس بولس في القرن الأول الميلادي وبدأت تنتشر في القرن الثاني ، ولم يكد يأتي القرن الرابع الميلادي حتى ذاعت المسيحية في كل ربوع مصر ، وتبدّت مظاهرها في سائر أنشطة الحياة الدينية والفكرية والثقافية .

يقول د.عبد المنعم ماجد : " تقول الروايات المسيحية أن أول من دعا لها في مصر القديس مرقص الرسول أحد تلامذة المسيح الذي جاء في نحو منتصف القرن الأول ، ولكن الأسانيد التاريخية ، مثل مراسيم التعذيب كما وردت في أوراق البرديات تدل على أن المسيحية انتشرت في مصر في عهد الإمبراطور دسيوس في القرن الثالث ، ويظهر أن المسيحية انتشرت بصفة مؤكدة انتشاراً كبيراً في كل أنحاء مصر في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل القرن الرابع . " [2]

وارتبط الشعب المصري بالكنيسة المصرية ومذهبها ، ورفض القرارات الدينية التي تصدرها الكنيسة التابعة للدولة البيزنطية في عاصمتها القسطنطينية إذا تعارضت مع قانون الإيمان للكنيسة المصرية .

---

(1) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٩٠ .
(2) نفسه ص ١٨٧ .

ووجد المصريون في المسيحية رفضاً للوجود الروماني في مصر وأصبح الـدين أداة التعبير عن الرغبة في التحرر من الحكم البيزنطي ، وأحيوا لغة وطنيـة هـي اللغة القبطية لتأكيد الرغبة في التحرر من البيزنطيين .

وقد أثار مسلك الجماعات المسيحية الأولى ارتياب السـلطات الرومانيـة حتـى حسبتها تهدف إلى نشر الفوضى الأخلاقية وإثارة التمرد على الأوضـاع القائمـة ومناوأة سياسة الحكومة ، ولهذا اعتبرت السلطات الرومانيـة المسـيحيين طائفـة غريبة الأطوار خارجة على المجتمع ، هدامة لكيانه ، وقد اتُّهِمَ المسيحيون بمختلف الجرائم ، ورُموا بالموبقات ، وحُمِّلوا مسئولية الكوارث الوطنية والثورات الأهلية .

والحق أن الطوائف المسيحية قد ثبتت للمحنة ؛ فلم تلن لها قنـاة أمـام التهديـد والوعيد أو التعذيب الوحشي .[1]

وقد بدأ الاضطهاد الرسمي للمسيحيين في عصر الإمبراطور نيرون (٥٤- ٦٨) الذي قام بإحراق مدينة روما ثم ألصق تهمة إحراقها بمسـيحيي رومـا ، وانهـال الإمبراطور وجنده وأتباعه على المسيحيين قتلاً وتنكيلاً في أبشع صورة .

وبعد ذلك بفترة تابع الإمبراطور سبتيموس سـيفيروس (١٩٣- ٢١١) موجـة الاضطهاد ضد المسيحيين ؛ فقد أصدر قراراً بضرورة سجود جميع المواطنين في الولايات الرومانية لتمثاله وإحراق البخور عند قدمي التمثال ، وكان عقـاب مـن يعصي الأوامر الإمبراطورية الموت بقطع الرأس ، أو بتقديمه طعاماً للأسود ، أو بالحرق حيّاً ، ثم أمر الإمبراطور بإغلاق المدرسة الدينية المسيحية في الإسكندرية ونكّل بالمسيحيين المصريين تنكيلاً ، وظلّ الأمر على نفس الحال التعسة إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥) الذي عرف بعصـر الاضـطهاد الأكبـر للمسيحيين خاصة مسيحيي مصر ؛ فقد أصدر دقلديانوس مرسوماً إمبراطوريّاً بهدم

[1] د. عبد المنعم ماجد " ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر " دار الفكر العربي ص٤١

الكنائس ، وحرق الكتب المقدسة ، وإعدام كل من يتبع التعاليم المسيحية سراً أو جهراً وقد بلغ عدد شهداء المسيحيين في مصر ١٤٤.٠٠٠ شهيد ، ويقدر بعض الدارسين هذا العدد بحوالي ٨٠٠.٠٠٠ شهيد ، وبسبب هذا الاضطهاد الوبيل اعتبر المصريون أول سنة من حكم الإمبراطور دقلديانوس وهي سنة ٢٨٤ م بداية التقويم القبطي ، وعرف هذا التاريخ باسم " عام الشهداء " . (١)

ولكن مصر المسيحية المؤمنة لم ترضخ للاضطهاد الروماني فقد ثارت الإسكندرية على الحكم الروماني بقيادة دوميتيوس وهو ضابط روماني ، اعترف المصريون به إمبراطوراً في عام ٢٩٥م ، نكاية في دقليانوس ، الذي اضطر إلى الحضور إلى مصر بنفسه ليقمع الثورة ، فحاصر الإسكندرية ثمانية أشهر ، ولم يستطع أن يأخذها عنوة إلا بعد أن دمَّر جانباً كبيراً منها . وسرعان ما احتدمت الاضطرابات في أواخر عهده عندما أرادت السلطات الرومانية فرض عبادة الإمبراطور على المصريين بعدما تزايدت بينهم أعداد المسيحيين الذين قاوموا هذا الاتجاه مقاومة عنيفة معرضين أنفسهم لموجة من الإرهاب الشديد ، استشهد فيها آلاف من السكان من كل الطبقات . (٢)

ولكن جميع هذه الاضطهادات التي تعرض لها المصريون من جانب السلطات الرومانية لم تزدهم إلا تشبثاً بعقيدتهم الجديدة التي أمدتهم بقوة روحية على احتمال الاستبداد السياسي ووجدوا فيها متنفساً لما يعانونه من ضيق اقتصادي ، وزودتهم بالأمل في الخلاص في الحياة ، ولهذا زاد أنصار المسيحية واشتد بأسها ، حتى مجيء الإمبراطور قسطنطين (٣١١ – ٣٣٧) الذي أصدر مرسوماً شهيراً سنة

---

(١) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مطابع الأهرام التجارية . ص ٢٣٩ .
(٢) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق . ص ١٩٥ .

٣١٣ م أعلن فيه سياسة التسامح مع الديانة المسيحية ، وعندما جاء الإمبراطور "ثيودوسيوس" الكبير إلى الحكم (٣٧٨ – ٣٩٥) أصدر مرسوماً يلغي الوثنية في كل ولايات الدولة البيزنطية ، واعترف بالمسيحية ديانة رسمية للدولة . (١)

ونتيجة لكره المصريين للاحتلال رفضوا الاختلاط بالرومان والتأثر بعاداتهم ، والمشاركة في أعمالهم ، والتحدث بلغتهم لذا بدأت الحضارة الهلينية تحتضر في مصر ، وتدنو من نهايتها المحتومة ، فقل استعمال اللغة الإغريقية وكل ما يتصل بها حتى اندثرت ، وانبعثت من جديد اللغة المصرية القديمة في صورة اللغة القبطية وإن كُتِبَت معظم حروفها باليونانية ، ووجد المصريون فيها متنفساً للتعبير عن مشاعرهم .

وأهم من ذلك كله أن مصر ابتكرت نظام الرهبنة ، ذلك النظام الذي أخذت به المسيحية ، وقام بدور مهم في تاريخها .

ويدعونا ذكر الرهبنة أو يعود بنا إلى مظهر مهم من مظاهر المقاومة الشعبية في مصر الرومانية فقد أرهق الرومان المصريين بشتى الضرائب ، ولا سيما ضريبة الرأس ، وأثقلوا كاهلهم بمختلف الأعباء الإلزامية ، كزراعة الأراضي المهجورة بالرغم عنهم ، حتى ضاق الفلاحون ذرعاً بالحياة ، وكان سلاحهم القاطع عندما يفيض بهم الكيل أو يفوق ما يعانونه حد الاحتمال هو الامتناع عن دفع الضرائب ، أو الفرار من قراهم إلى قرى أخرى أو إلى الصحراء .

وكما فرّ الفلاحون المصريون قبل المسيحية إلى مواطن أخرى هرباً من عنت السلطات – فروا أيام المسيحية إلى الصحراء تخلصاً من الاضطهاد الديني أو الضيق الاقتصادي أو استجابة لوحي مقدس أو حباً في العزلة ، حيث تخلّوا عن عرض الدنيا ، واهبين أنفسهم للتعبد والتنسك ، منقطعين لخدمة الإله .

---

(١) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مرجع سابق . ص ٢٤٠ .

ومن الخطأ أن نعتبر الرهبنة هروباً من مواجهة الحياة ومسئولياتها إذ كانت في الواقع على العكس من ذلك في معظم الأحيان فقد فرّ الرهبان ليواجهوا عدوهم في عقر داره غير معتمدين إلا على عون الإله ، وكانت صلواتهم سلاحاً فتّاكاً في المعركة المريرة التي خاضتها الكنيسة ضد قوى الشر والظلام . (١)

وهكذا نرى أن مصر قاومت الغزاة الرومان بكل ما تيسر لها من أسلحة : قاومتهم بالعتاد الحربي ، واستماتت في الدفاع حتى إذا ما غُلبت على أمرها قاومتهم بالثورات التي جعلت من الوادي جحيماً لا يطاق ، فإذا ما أخمدت الثورة لجأت إلى حرب العصابات ، فإذا ما أعوزها السلاح لجأ فلاحوها إلى العصيان ، أو الإضراب أو الفرار من الأرض والاختفاء عن الأنظار في الأدغال أو مجاهل الصحراء .

فإذا ما أعيتها الحيل لجأت إلى سلاح آخر بتّار : لجأت إلى المقاومة السلبية فبذرت بذور الكراهية للمحتلين عن طريق المنشورات السياسية أو رفضت التعاون مع الغاصبين ، ولم تتأثر بثقافتهم أو تأخذ بأساليب معيشتهم أو تؤمن بآلهتهم بل اتخذت من تراثها الموغل في القديم ، وديانتها الأصيلة وكبريائها الوطني دروعاً تتقي بها شتى المؤامرات التي كانت كلها بالرغم من طول فترات الاحتلال كالزبد الطافي الذي يذهب هباءً . (٢)

لقد ظلت مصر ترزح تحت الاحتلال الروماني والبيزنطي أكثر من ستة قرون (٣٠ ق.م – ٦٤١م) حتى بدأت حركة الفتوح الإسلامية التي حررت الشام من أيدي البيزنطيين زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب الذي عرف بسماحته وعدله حتى لقب بالفاروق ، وتطلع الأقباط إلى الخليفة عمر بن الخطاب لكي يبعث بمن يخلصهم من مخالب الروم (البيزنطيين) واضطهادهم وفساد موظفيهم وجباة

---

(١) د. عبد اللطيف أحمد علي " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق . ص ١٩٧ – ١٩٩ بتصرف.
(٢) نفسه ص ٢٠٠ .

ضرائبهم ، وبخاصة بعد أن سمعوا أن المسلمين لا يتدخلون في عقائد الآخرين { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } (الكافرون : ٦)

ومن هنا جاءت حملة القائد عمرو بن العاص لفتح مصر وكان النصر حليفه على البيزنطيين في عدة معارك أهمها حصن بابليون في ٩ أبريل ٦٤١م ، وفي نوفمبر من نفس العام اضطر حاكم الإسكندرية البيزنطي إلى تسليم المدينة إلى عمرو بن العاص ثم الإبحار هو ورجاله عنها في ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م ، وخرج الرهبان من أديرتهم يحملون الدفوف يرحبون بقدوم عمرو بن العاص ورجاله ، ولا عجب فالعرب هم أبناء هاجر أم إسماعيل وهي أخت المصريين جميعاً . [1]

ليس بسبب صلة القرابة فحسب رحبَّ أقباط مصر بالعرب الفاتحين وإنما أيضاً لأن ما أنزل على محمد ﷺ من دين ، والذي جاء به عيسى ﷺ الذي يؤمنون به ليخرج من مشكاة واحدة كما قال النجاشي ملك الحبشة الصالح .

فقد قال النجاشي للمسلمين المهاجرين إلى الحبشة بعد أن قرأ عليه جعفر بن أبي طالب آيات من سورة مريم : { إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة } .

***

---

(1) د. حسنين محمد الربيع ود. زبيدة محمد عطا ود. إسحق عبيد تاوضروس " أضواء على تاريخ مصر في الحقبة القبطية " مرجع سابق . ص ٢٤٦ .

الفصل الثالث

ثورات المصريين في العصور الوسطى


الفصل الثالث

الفصل الثالث

ثورات المصريين في العصور الوسطى

الدين وعمارة الأرض ومقاومة الظلم

لم تكن الديانات السماوية لتأمر أهلها بالاكتفاء بعبادة الله تعالى وتزكية النفس وتترك عمارة الأرض وإصلاحها .

يقول الشيخ الشعراوي : " إن الإسلام هو كل حركة في الحياة تناسب خلافة الإنسان في الأرض؛ لأن الله يقول في كتابه الكريم : { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا } (هود : ٦١)

{ واستعمركم فِيهَا } أي طلب منكم أن تعمروها ، فكل حركة في الحياة تؤدي إلى عمار الأرض فهي من العبادة ، فلا تُأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط؛ لأن الصوم والصلاة وغيرهما هي الأركان التي ستقوم عليها حركة الحياة التي سيُبنى عليها الإسلام ، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساساً بدون مبنى ، فهذه هي الأركان التي يُبنى عليها الإسلام ، فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان في الأرض .

ويخرج إلينا أناس يقولون : نحن ليس لنا إلا أن نعبد ولا نعمل . ونقول لأي منهم: كم تأخذ الصلاة منك في اليوم؟ ساعة مثلاً . والزكاة كم تأخذ منك في العام يوماً واحداً في العام؟ والصوم كم يأخذ منك من وقت؟ نهار أيام شهر واحد . وفريضة الحج أتأخذ منك أكثر من رحلة واحدة في عمرك؟ فبالله عليك ماذا تفعل في الباقي من عمرك من بعد ذلك وهو كثير؟ .[1]

---

(١) تفسير الشيخ الشعراوي أخبار اليوم ص ٦٩٠ ، ٦٩١ .

إن تعمير الأرض وإصلاحها من عبادة الله تعالى ، ونشر دين الله تعالى الذي يدعو إلى الحب والتعارف والتعاون بين سائر البشر من عبادة الله تعالى أيضا .

قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } (الحجرات:١٣)

يا أيها الناس . يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً ، المتفرقون شعوباً وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً .

يا أيها الناس . والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم . . من ذكر وأنثى . . وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل . إنها ليست التناحر والخصام . إنما هي التعارف والوئام . فأما اختلاف الألسنه والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} . . والكريم حقاً هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : { إن الله عليم خبير } . .

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله . [1]

([1]) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج٤ ص ٧ دار الشروق .

وكما أن عمارة الأرض من عبادة الله تعالى ، ونبذ الفرقة والاختلاف والـدعوة إلى الألفة والتعاون بين سائر البشر من عبادة الله تعالى ، كذلك فإن حماية دين الله، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقتال الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وتطهير الأرض من الظلم والطغاة من عبادة الله تعالى كذلك .

وهؤلاء الطغاة الذين يجب على المؤمنين تطهير الأرض منهم هم { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } (هود:١٩)

والسبب في صدّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعْوجاً ومائلاً ، وأن يُنفِّروا الناس من الإيمان ليضمنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسـدون فـي الأرض؛ لأن مجيء الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد .

فلم يكن المؤمن بالله ليترك الجبابرة والطغاة يفسدون في الأرض ويحتلون بـلاد الله تعالى ويسومون أهلها سوء العذاب ، ويكرهونهم على ما لا يرضون من عبادة غير الله ويسخرنهم لأجل خدمتهم . وقد خلق الله تعالى النـاس سواسـية كأسـنان المشط ، ولا فضل لعربي على عجمي ولا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى .

يقول الإمام الأكبر د. سيد طنطاوي ، رحمه الله ، : " أن من تتبع آيات القـرآن الواردة في القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال ينحصر فـي رد العـدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقيدة ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان . " (١)

ماهيّة الفتوحات الإسلامية

عندما جاء نصر الله وفتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، بـدأ الفـرس والروم يعدُّون العدة للقضاء على هذه القوة الجديدة التي وحدت العرب،وباتت خطراً

(١) د. سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " في تفسير قوله تعالى { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ }.

على ممالكهم ، وأخذ المسلمون على عاتقهم حماية الدعوة الإسلامية ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان ؛ فكانت الفتوحات الإسلامية .

وقد قابلت الشعوبُ المحررة الفتوحاتِ الإسلامية بقبول حسن فقد أنقذتهم من ظلم الأكاسرة وطغيان القياصرة واستبداد الأباطرة .

إن أهالي البلاد المفتوحة في الشام ومصر والعراق اعتبروا العرب الفاتحين من بني جنسهم ، يرتبطون معهم بروابط بشرية وثيقة العرى ، وكذلك نظروا إليهم على أنهم محررون لهم من بطش البيزنطيين وسيادتهم العدوانية ، ثمَّ إن تلك الفتوحات العربية هيأت لهذه القاعدة من العالم الإسلامي الفرصة لاستعادة ماضيها المجيد ، وتراثها الغابر ، إذ وجد أهالي تلك البلاد في الدين الإسلامي رباطاً قويّاً جديداً يؤلف بين قلوبهم ، وفي اللغة العربية لساناً يترجم مشاعرهم ، ويوثق عرى وحدتهم السياسية والفكرية أيضاً . (١)

فتح مصر

كان نجاح حركة الفتوح الإسلامية في الشام خطوة أساسية ممهدة لفتح مصر ، فمصر والشام امتدادان طبيعيان لا بد من ارتباطهما لتحقيق الأمن في كل منهما ، وقد شعر المسلمون بعد فتح الشام أن فتح مصر يمثل ضرورة حربية بالنسبة لهم وذلك لأن البيزنطيين هالهم نجاح المسلمين في الشام وأخذوا يعملون على محاولة استرداده من أيديهم فعملوا على عرقلة تقدم المسلمين في جنوب الشام ، وهاجموا القوات الإسلامية من شمال الشام ، وأحس المسلمون أنهم محصورون بين القوات البيزنطية في آسيا الصغرى والقوات البيزنطية في مصر ، وقد لاحظ قادة الفتح الإسلامي أن مصر كانت تمثل مركز تمويل للقوات البيزنطية في الشام في حروبهم ضد المسلمين . (٢)

---

(١) د. إبراهيم أحمد العدوي " تاريخ العالم الإسلامي " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١٤ ، ١١٥
(٢) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ١٨

لذا اتجهت أنظار المسلمين إلى مصر التي بشرهم النبي ﷺ بفتحها .

عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيراً فذلك الجند خير أجناد الأرض فقال أبو بكر ولم يا رسول الله قال لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة . " (١)

لذا استقر رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على فتح مصر ، واختار لهذه المهمة عمرو بن العاص الذي أسرع نحو مصر واستطاع بجيشه الصغير ، الذي يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف مقاتل ، أن يخترق سيناء دون جهد ، فوصل من رفح حتى بلبيس لم يقابله إلا حاميات قليلة من البيزنطيين ، كان أهمها في العريش التي استولى عليها في ذي الحجة ١٨ هـ / ديسمبر ٦٣٩ م ثم تقدّم حتى وصل إلى أقوى الحصون البيزنطية في شرق مصر عند بلدة " الفرما " وهناك وقع التحام بين جيش المسلمين والبيزنطيين واستمر القتال شهراً أو شهرين حتى اقتحمه المسلمون في المحرم ١٩ هـ ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى قلب مصر ، فاتجه عمرو بجيشه إلى بلبيس .

وقد مال سكان مصر من الأقباط مع المسلمين على البيزنطيين نتيجة للإدارة السيئة لهؤلاء ، بالإضافة إلى السياسة الدينية التي سارت عليها الإمبراطورية البيزنطية في اضطهاد مسيحي مصر الأقباط ، حتى انحاز عدد كبير من السكان الأصليين إلى جانب المسلمين ، وهاجموا أحياناً الجنود البيزنطيين أينما صادفوهم وسلموهم للمسلمين بعد تجريدهم من سلاحهم . (٢)

---

(١) ذكره ابن عبد الحكم في فتوح مصر ، وأخرجه ابن عساكر .
(٢) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٥ .

لماذا رحّب المصريون بالفتح الإسلامي ؟

لم يعتبر المصريون الفتح العربي الإسلامي غزواً واحتلالاً إنما اعتبروه منقذاً لهم من الظلم الروماني ، فقد سمعوا بعدل المسلمين في الأمم التي فتحوها ، وقد كان حالهم مع الفاتحين المسلمين كحالهم مع الإسكندر الأكبر " ذو القرنين رسول الله " .

والذي يؤكد ترحيب المصريين بالمسلمين ومساعدتهم في حربهم ضد البيزنطيين هو دخول المصريين في الإسلام أفواجاً وهمْ الذين قاوموا بل استشهدوا في سبيل الدفاع عن عقيدتهم ضد الرومان وغيرهم .

أتمَّ عمرو بن العاص فتح مصر عام ٢٠ هـ / ٦٤١ م وأظهر عمرو بن العاص بعد الفتح تسامحاً شديداً في معاملة المصريين فسمح للبطريك بنيامين بالعودة إلى الإسكندرية ، بعد أن ظلَّ مختبئاً حوالي ١٣ سنة في عهد البيزنطيين مما أدى إلى لم شمل الأقباط الذين حصلوا على حرية كاملة في إقامة شعائرهم ، فلم يحفل المسلمون بالخلافات الدينية بين المسيحيين ، والتي كانت تميز الحكم البيزنطي ، ولم يعد الأقباط يخشون أظهار عقيدتهم ، فقامت الكنيسة القبطية بأنشطتها الدينية دون تدخل من السلطة الحاكمة .(١)

لقد فرح الأقباط بخروج الروم (البيزنطيين) من مصر ، وعبَّر البطريك بنيامين لعمرو بن العاص عن فرح المسيحيين بقوله : " كنت في بلدي وهو الإسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنّا اضطهاد الكفرة (يقصد الروم) وبأسهم " وقال أيضاً عن نفسه وعن بقية القبط : " لقد فرحوا كما يفرح السّخال (٢) إذا ما حُلَّت لهم قيودهم وأطلقوا ليرشفوا من ألبان أمهاتهم " (١)

(١) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٩٦ .
(٢)(السخلة) الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة يولد (ج) سخل وسخال وسخلان . المعجم الوسيط .

لماذا لم يثرْ أقباط مصر على الولاة المسلمين ؟

لقد عامل المسلمون أقباطَ مصر معاملة الأهل والأصهار لا معاملة الذل والصّغار التي كان يعاملهم بها الرومان ، ولم تكن معاملة المسلمين هذه أقباط مصر نابعة من تعاليم الإسلام العامة فحسب إنما من توصية خاصة من رسول الله ﷺ للمسلمين بأهل مصر خيراً .

فأقباط مصر لهم شأن خاصٌ ومنزلة متميِّزة، فقد أوصى بهم رسول الله ﷺ وصية خاصَّة، يعِيَها عقل كلُ مسلم ويضعها في السويداء من قلبه، فقد روت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: " اللهَ اللهَ في قبط مصر ، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عُدَّة وأعوانًا في سبيل الله"

رواه الطبراني

وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال : " ... استوصوا بهم (يعني قِبْط مصر) خيرًا، فإنهم قوَّة لكم، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله " ، رواه أبو يعلى.

روى مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال" :إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا ".

وفي رواية: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذِمَّة ورَحِمًا "، أو قال : " ذِمَّة وصِهرًا "

الذمة: هي الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر، فلكون مارية أم إبراهيم منهم . (٢)

وقد صدَّقَ الواقع التاريخي ما نبَّأ به الرسول ﷺ فقد رحَّب الأقباط بالمسلمين الفاتحين لما بينهم من ذمة ورحماً وصهراً ، وفتحوا لهم صدورهم، رغم أن الروم الذين كانوا يحكمونهم كانوا نصارى مثلهم، ودخل الأقباط في دين الله أفواجًا، حتى

---

(١) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم . دار إحياء التراث العربي – بيروت ج١٦ص ٩٧ .

إن بعض ولاة بني أمية فرض الجزية على مَن أسلم منهم، لكثرة مَن اعتنق الإسلام.

وأضحت مصر بوابة الإسلام إلى إفريقيا كلّها، وغدا أهلها أعواناً في سبيل الله.(١)

لذا لا عجب إذا ما وقع على أحد أقباط مصر ظلمٌ لجأ إلى والي مصر لينصفه فإن لم ينصفه لجأ إلى خليفة المسلمين .

وكلنا يعرف قصة الشاب القبطي الذي سابق محمد بن عمرو بن العاص فسبق القبطي ابن حاكم مصر فضربه محمد بن عمرو بالسوط ضرباً شديداً وهو يقول له: خذها وأنا ابن الأكرمين !

فانطلق هذا القبطي إلى المدينة المنورة حيث عمر بن الخطاب خليفة المسلمين لينصفه من ابن الوالي لأنه يعلم أن عمر بن الخطاب يحب العدل ويحكم به ، ويكره الظلم وينهى عنه كما علمه الإسلام .

{ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} (النساء:٥٨)

ويدخل القبطي على عمر في مسجد النبي ﷺ فيقول: يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائذ بك فيقول عمر : ما القضية ومن أنت ؟ فيقول: أنا قبطي من أهل مصر . فيقول عمر : ما القضية ؟ فيقول القبطي: سابقت محمد بن عمرو فسبقته فضربني بالسوط ضرباً شديداً وهو يقول لي: خذها وأنا ابن الأكرمين! فقال له عمر : اجلس هنا، وأمر الصحابة أن يكرموا هذا القبطي، وكتب عمر كتاباً إلى والي مصر بعدما حمد الله وأثنى عليه قال: " من عبد الله عمر بن الخطاب إلى والي مصر، سلام الله عليك وبعد: فإن انتهيت من قراءة كتابي هذا فاركب إليّ مع ولدك محمد .

---

(١) من بيان الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين إلى أبناء مصر مسلمين وأقباطا بعنوان " لا تنسوا دروس ثورة ٢٥ يناير" موقع بتاريخ ١٥/ ٣/ ٢٠١١ ، نقلا عن موقع د. يوسف القرضاوي .

وعندما دخل عمرو بن العاص وفي خلفه ولده محمد على أمير المؤمنين عمر ، قال عمر: أين قبطي مصر؟ فقال: هاأنذا يا أمير المؤمنين! قال: خذ السوط واضرب محمد بن عمرو ، فضربه على رأسه .

ثم قال له: اجعلها على صلعة عمرو !! فقال: لا يا أمير المؤمنين لقد ضربت من ضربني، قال: والله لو فعلت ذلك ما حُلنا بينك وبين ذلك، فما تجرأ عليك ولده إلا بسلطان أبيه .

ثم قال عمر قولته الخالدة : " يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟! " .

ولما أراد عمرو بن العاص أن يوسع مسجده على حساب قطعة أرض أو بيت لامرأة قبطية مسيحية ، وأخذ الأرض فعلاً وأضافها إلى المسجد، ورفعت المرأة شكواها إلى عمر بن الخطاب، فما كان من عمر إلا أن ألزم عمرو بن العاص بهدم هذا الجزء الذي بني في المسجد ورد أرض هذه السيدة إليها مرة أخرى !!

لأن الصلاة في الأرض المغصوبة حرام بالإجماع ، وأن خلاف الفقهاء إنما هو حول صحتها وفي الثواب عليها . (١)

هكذا عاش المصريون في ظل الحكام المسلمين أهل يتمتعون بكل ما يتمتع به العرب المسلمون ولما لا ، والْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ فِي حُقُوق أَهْلِ الذِّمَّةِ : أَنَّ لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا ، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ جَرَتْ عَلَى لِسَانِ فُقَهَاءِ الْحَنَفِيَّةِ ، وَتَدُلُّ عَلَيْهَا عِبَارَاتُ فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ ، وَالشَّافِعِيَّةِ ، وَالْحَنَابِلَةِ . وَيُؤَيِّدُهَا بَعْضُ الآثَارِ عَنْ السَّلَفِ ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ : إنَّمَا قَبِلُوا الْجِزْيَةَ لِتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ كَأَمْوَالِنَا، وَدِمَاؤُهُمْ كَدِمَائِنَا . (٢)

---

(١) دار الإفتاء المصرية رداً عن سؤال : ما حكم الصلاة في مسجد أرضه مغتصبة ؟

(٢)علي بن نايف الشحود " المفصل في شرح الشروط العمرية " ص ١٨٤

هذه شريعة الإسلام في الحكم فمن حكم بها فقد حكم بحكم الإسلام ومن خرج عليها وظلم الناس وأفسد فمن نفسه والشيطان والإسلام من حكمه براء ، نقول هذا لأن بعض أعداء الإسلام يحكمون على الإسلام بتصرفات بعض أبنائه ، والقاعدة عند المسلمين أن الإسلام يحكم على أفعال المسلمين ، ولا تحكم أفعال المسلمين على الإسلام .

بقيت قضية يثيرها أعداء الإسلام لتدليل على ظلم المسلمين لأهل مصر وهي قضية الجزية التي فرضوها عليهم .

الجزية عقوبة أم ضريبة ؟

ليست الجزية من مستحدثات الإسلام ؛ فلقد عُرفتْ عند اليونان الأقدمين بضريبة الرءوس ، وقد فرضت على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين ، كذلك فرضها الروم على الشعوب التي خضعت لحكمهم وتبعهم الفرس في ذلك .

الجزية في الإسلام مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة (اليهود والنصارى) مقابل ما تقدمه لهم الدولة الإسلامية من حماية ورعاية ، وبقائهم على ملتهم وعدم إكراههم على تركها ، وهي تقابل الزكاة المفروضة على المسلمين وبذلك يتساوى الفريقان : المسلم ،والذمي فيما يدفعه للدولة نظير ما تقدمه له من خدمات ، وما توفره له من حماية وأمان .

وتسقط الجزية عن الذمي إذا أسلم ، والجزية فرضت على الذكور دون الاناث ، وفرضت على القادرين منهم على دفعها ، وأعفى الصبيان من دفعها والشيوخ والمقعدون والعميان والرهبان . [1]

([1]) د. عطية القوصي وآخرون " الحضارة الإسلامية " وزارة التربية والتعليم ص ١٤ .

ونترك لرجل مسيحيٍّ منصف الرد على من يعتبرون الجزية عقوبة فرضها المسلمون على غير المسلمين .

يقول د. نبيل لوقا بباوي " إن الجزية التي فُرضت على غير المسلمين في الدولة الإسلامية بموجب عقود الأمان التي وقعت معهم، إنما هي ضريبة دفاع عنهم في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم من أي اعتداء خارجي، لإعفائهم من الاشتراك في الجيش الإسلامي حتى لا يدخلوا حرباً يدافعون فيها عن دين لا يؤمنون به . ومع ذلك فإذا اختار غير المسلم أن ينضم إلى الجيش الإسلامي برضاه فإنه يعفى من دفع الجزية .

إن الجزية كانت تأتي أيضاً نظير التمتع بالخدمات العامة التي تقدمها الدولة للمواطنين مسلمين وغير مسلمين، والتي ينفق عليها من أموال الزكاة التي يدفعها المسلمون بصفتها ركناً من أركان الإسلام .

وهذه الجزية لا تمثل إلا قدراً ضئيلاً متواضعاً لو قورنت بالضرائب الباهظة التي كانت تفرضها الدولة الرومانية على المسيحيين في مصر والتي كانت قدرها ٢٥ ضعفاً بالنسبة للجزية ، ولا يعفى منها أحد !! في حين أن أكثر من ٧٠% من الأقباط الأرثوذكس كانوا يعفون من دفع هذه الجزية. فقد كان يُعفى من دفعها: القُصَّر والنساء والشيوخ والعجزة وأصحاب الأمراض والرهبان .

ولم تكن الجزية من مستحدثات الإسلام فقد فرضها اليونانيون القدماء على شعوب سواحل آسيا لحمايتها من هجمات الفينيقيين وعرفت باسم "ضريبة الرءوس" في القرن الخامس الميلادي، كما فرضها الفرس والروم على الشعوب الخاضعة لهم. (١)

ونَخلُص مما سبق إلى أن عدم ثورة المصريين على الفاتحين العرب كانت أمراً طبيعياً لأنهم وجدوا في ظل الإسلام العدل والمساواة ،والأمن والأمان ،والحب والإخاء ،والحرية والرخاء .

---

(١) راجع د. نبيل لوقا بباوي " الجزية على غير المسلمين عقوبة أم ضريبة " دار البباوي للنشر.

لقد كان لأهل الذمة الحرية الكاملة في ظل الحكم الإسلامي في ممارسة شعائرهم الدينية العامة في مصر فكانت النواقيس تدق ، والأبواق ينفخ فيها ، والمواكب الدينية تسير بالصلبان والمجامر(١) دون اعتراض ولدينا في المصادر التاريخية أوصاف كثيرة لاحتفالات أعياد المسيحيين واليهود في مصر ، وكانت هذه الأعياد فرصة للهو لجميع الناس ، وكثيراً ما كان الخلفاء والحكام المسلمين يشاركون فيها بأنفسهم أو بممثلين عنهم تكرمة لأصحابها .

وقد خصص أهل الذمة في بعض الأعمال في المجتمع الإسلامي ، فعمل كبراؤهم في التجارة والصيرفة والجهبزة (٢) والكتابة في الدواوين كما عملت الطبقة المتوسطة منهم في الزراعة ، وفي صناعة النسيج والدباغة ، كما عمل الفقراء منهم في الأعمال المتصلة بنظافة الشوارع والأسواق وعملوا إسكافيين وحدادين. (٣)

وظلت مصر هكذا طوال حكم ولاة الخلفاء الراشدين ، وولاة الأمويين فقد كان أغلب ولاة مصر يتسمون بالعدل والقدوة وحسن الخلق ، ويحافظون على عهودهم مع أهل الذمة ، أما الفترة الأولى من الحكم العباسي ، وحتى مجيء ابن طولون إلى مصر فهي فترة تتسم بالقلق السياسي والفوضى الإدارية ، وارتفاع مبالغ الجبايات وتعددها ، ويشكو المصريون الظلم ، وتتعرض أمور البلاد كلها للفساد . " (٤)

فهل سكت المصريون على الظلم والفساد ونقض العهد الذي تعاهد عليه المسلمون معهم ؟

اللهم لا .. فقد ثار المصريون على ظلم بعض ولاة بني أمية وبني العباس .

---

(١) المجامر : جمع مجمرة وهي الوعاء الذي يحوي الجمر والبخور .
(٢) الجهبزة : هي العمل في بيت المال .
(٣) د. عطية القوصي وآخرون " الحضارة الإسلامية " مرجع سابق ص ٢٠، ٢١ .
(٤) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٩٧ .

نقض الولاة الظالمين عهدهم مع أقباط مصر

لقد نهى النبي ﷺ عن ظلم أهل الذمة تحريم أو انتقاصهم حقاً من حقوقهم .

" من ظلم معاهدًا، أو انتقصه حقًا، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه؛ فأنا حجيجه يوم القيامة " (رواه أبو داود والبيهقي)

وعنه ﷺ أيضًا: "من آذى ذميًا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله" (رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن)

وبرغم الموقف الشرعي السمح للإسلام حيال أهل الذمة فإن وضع أهل الذمة لم يمض على نسق واحد خلال ولاة الأمويين والعباسيين .

ففي عهد عبد الله بن عبد الملك الخليفة الأموي زاد الخراج على أقباط مصر وكان عمرو بن العاص قد صالح المقوقس بعد سقوط حصن بابليون على :

١- فرض الجزية على القبط على كل رجل ديناران ، ويعفى منها الشيخ الكبير والطفل والنساء .

٢- للمسلمين حق الضيافة على القبط إذا نزلوا عليهم لمدة ثلاثة أيام .

٣- بقاء الأرض للمصريين ووضع الخراج عليها . (١)

فزاد عبد الله بن عبد الملك مقدار الخراج المعمول به منذ الفتح بل العجيب في أمره أنه عندما وجد أن كثيراً من أقباط مصر يدخلون في الإسلام لم يسقط عنهم الجزية التي كانت تؤخذ منهم قبل إسلامهم ، والأعجب أن أقباط مصر لم يمنعهم ذلك من الدخول في الإسلام !!

---

(١) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مكتبة الشباب ص ٣١ .

الإسلام والوفاء بالعهد

زيادة مقدار الخراج والجزية على العهد المتفق عليه مخالف لشريعة الإسلام يقول تعالى : {وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْئُولا} (الإسراء:٣٤)

أي إن العهد هو المسئول من المعاهِد أن يفي به ولا يضيعه ، حتى إن كان هذا العهد مع مشرك أو كافر .

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } (النحل :٩١)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ } (المائدة : ١)

وقد عاهد النبي ﷺ أصنافاً من المشركين كبني قريظة وبني النضير، وهادن قريشاً في الحديبية على ترك القتال عشر سنين، وأن من جاء من قريش مسلماً رده النبي إليهم . وهذا كله معلوم في كتب السنة والسيرة ." [١]

والمعاهد والذمي والمستأمن جميعهم معصومو الدم ، لا يجوز الاعتداء عليهم ولا التعرّض لهم . قال تعالى : { فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِم } (التوبة: ٤).

وعن عبد الله بن عمرو– رضي الله عنهما – مرفوعاً " من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً " (رواه البخاري وأحمد والنسائي وابن ماجه) .

وحذر النبي من الغدر والخيانة العهد .

عن ابن عُمَرَ أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: "إِنّ الْغَادِرَ يُنْصَبُ لَهُ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بنِ فُلاَنٍ".(متفق عليه) .

وجعل النبي من صفات المنافقين الغدر وعدم الوفاء بالعهد .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي اللَّهُ عَنْهُما أن النبي ﷺ قال: " أربع

---

(١) " أسئلة جريئة وأجوبة صريحة حول تفجيرات الرياض مسائل في أحكام الجهاد " إعداد موقع الإسلام اليوم ص من ٩ : ١٤ .

من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر"

(مُتَّفَقٌ عليْهِ)

ولقد كان النبي مثالاً حيّاً على الوفاء بالعهد فقد رد النبي ﷺ من جاءه من قريش مؤمناً وفاء بعهده مع قريش وقال النبي لأبى جندل الذي أتاه مسلماً في الوقت الذي كان يكتب فيه صلح الحديبية " يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وأنا لا نغدر بهم "[1] .

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، وأرسلت قريش رجلين في طلبه " فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به،" واستطاع أبو بصير أن يقتل أحد الرجلين وعاد إلى المدينة وقال للرسول " يا رسول اللّه قد واللّه أوفى اللّه ذمتك قد رددتني إليهم، ثم نجاني اللّه تعالى منهم، فقال النبي ﷺ : "ويل أمه مسعر حرب (محرك لها وموقد لنارها) لو كان معه أحد "، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر ، قال: وتفلّتَ منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فواللّه ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ وسلم تناشده اللّه والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم "[2] .

ويروى سيدنا حذيفة بن اليمان سبب تخلفه عن القتال هو وأبيه في غزوة بدر وكان المسلمون في حاجة ماسة له فقد كان عدد المسلمين ثلث عدد الكفار فيقول :

---

(١) ابن كثير " البداية و النهاية " الجزء الرابع غزوة الحديبية .

(١) تفسير ابن كثير لقوله تعالى {وَهُوَ الذي كف أَيْدِيَهُمْ عنكمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أنْ أظفركمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا }

ما منعني أن أشهد بدراً إلا أني خرجت أنا وأبي، حسيل. قال : فأخذنا كفارُ قريش. قالوا: إنكم تريدون محمداً ؟ فقلنا: ما نريده. ما نريد إلا المدينة. فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر. فقال" انصرفا. نَفِي بعهدهم، ونستعين الله عليهم " (رواه مسلم) .

لقد أمر رسول الله ﷺ بالوفاء بعهد الكفار المحاربين وهو في مسيس الحاجة إلى رجل فإذا به يرفض اشتراك رجلين وفاء بعهد الكفار الذين جاءوا لقتاله ويقول : "نفي بعهدهم ونستعين الله عليهم ".

أي دين هذا ؟! وأي رجل هذا ؟! وأي خلق هذا ؟!

إنه دين الإسلام الذي جاء به صاحب الخلق العظيم محمد سيد الأنام ﷺ ، وكانت نتيجة الإيمان بالله والتمسك بأخلاق الإسلام وعلى رأسها الوفاء بالعهد أن نصر الله تعالى الإسلام وأعز المسلمين وأذل الشرك والمشركين . وهكذا كان صحابة الرسول الكرام محافظين على الوفاء بالعهد فعن " جُوَيْرِيَةَ بْنَ قُدَامَةَ التَّمِيمِي قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي اللَّهُ عَنْهُ قُلْنَا أَوْصِنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ أُوصِيكُمْ بِذِمَّةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ ذِمَّةُ نَبِيِّكُمْ وَرِزْقُ عِيَالِكُمْ " (رواه البخاري) .

ولا يجوز للمسلمين بعد أن عاهدوا قوماً أن يطلبوا منهم الزيادة وفى هذا يقول الإمام الشوكاني : " لا يجوز للمسلمين بعد وقوع الصلح بينهم وبين الكفار على شيء أن يطلبوا منهم زيادة عليه فإن ذلك من ترك الوفاء بالعهد ونقض العقد وهما محرمان بنص القرآن والسنة "[1].

والموفون بعهدهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا بروا في أيمانهم ، وإذا قالوا صدقوا في قولهم ، وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة ، وقد وعدهم الله على ذلك بأجزل الثواب ، وأعلى الدرجات .

{ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ } (الرعد: ٢٠)

(١) الشوكاني " نيل الأوطار " الجزء الثامن باب الأمان والصلح والمهادنة .

ولا ينقضون شيئاً من العهود والمواثيق التي التزموا بها . وصدَّر سبحانه وتعالى صفات أولى الألباب ، بصفة الوفاء بعهد الله ، وعدم نقضهم للمواثيق ، لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان ، وصدق العزيمة ، وصفاء النفس .

وأضاف سبحانه العهد إلى ذاته ، للتشريف وللتحريض على الوفاء به .

وجملة { وَلاَ يَنقُضُونَ الميثاق } تعميم بعد تخصيص ، لتشمل عهودهم مع الله تعالى ومع غيره من عباده . (١)

كما أن النبي ﷺ قد أكدَّ على وجوب الالتزام بالعهود التي اتفقوا عليها والشروط التي ارتضوا بها .

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : " المسلمون على شروطهم" (أبو داود، والحاكم ، والبيهقى)

تعسُّف سليمان وعدل عمر

مع كل هذه الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة التي تؤكد على وجوب الوفاء بالعهد وعدم نقض المواثيق إلا إن الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ) عيَّن أسامة بن زيد (٢) على الخراج في مصر ، وكتب إليه يأمره بالتشدد في جمع الخراج والجزية ونفَّذ أسامة سياسة الخليفة فتشدد في جمع الأموال ، وأخذ الجزية من الرهبان وكانوا يعفون منها . (٣)

وبدأ المصريون يتذمرون بسبب تعسُّف سليمان بن عبد الملك وعامله على الخراج ولكن شاءت حكمة الله تعالى أن يخفف عن المصريين فتُوفِّي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز الذي تبرأ من كل مظالم بني أمية ، وعمل على إنصاف كل من ظلموه وتعويض كل من حرموه مُعيداً سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب .

---

(١) د. محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " مرجع سابق ص ٢٣٧٧

(٢) أسامة بن زيد صحاب الخراج على مصر غير أسامة بن زيد الصحابي الجليل الذي تُوفِّي عام ٥٤ هـ .

(٣) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ٢٧ .

وكان من أوّل ما قام به عمر بن عبد العزيز من أعمال وحتى قبل أن يُدفَن سليمان بن عبد الملك هو عزل أسامة بن زيد صاحب الخراج على مصر ، لما بلغه عنه من استنزافه موارد مصر لصالح الدولة الأموية ، وأمر بالقبض عليه وسجنه جزاءً له على ما اقترفته يداه ، وأصدر الخليفة أمره بوقف تحصيل الخراج من المصريين لمدة عام على سبيل التخفيف والتعويض عن أهلها .

وكان من أثر عدل عمر بن عبد العزيز وسياسته أن دخل كثير من أقباط مصر في الإسلام ، مما أثّر على حصيلة الجزية والخراج فكتب حيانُ بن شريح ، والي جند مصر ، يقترح على عمر بن عبد العزيز أن تؤخذ الجزية من الأقباط حتى في حالة إسلامهم خوفاً من أن تنقطع موارد الدولة .

فكتب إليه عمر: " أما بعد : فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عن من أسلم قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه ." (١)

وكتبت امرأة مصرية مسكينة تشتكي لعمر: أن لها حائطاً قصيراً، وأنه يقتحم عليها فيسرق دجاجها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرتي من قصر حائطك وأنه يدخل عليك فيسرق دجاجك، فقد كتبتُ كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل آمره بأن يبني لك ذلك يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب

---

(١) المقريزي " المواعظ والاعتبار ذكر الخطط الآثار " ج١ ص ٩٧ .

ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصنه لها .[1]

نبوءة النبي ﷺ بثورة القبط

ولكن بعد وفاة عمر بن عبد العزيز لم ينهج خلفاء بني أمية نهجه في معاملة أهل مصر ففي عهد يزيد بن عبد الملك زادت الجزية قيراطاً على الدينارين المقررين ، وبهذا نقض يزيد عهد أقباط مصر فكيف يزيد عليهم وفي عهدهم أن لا يُزَاد عليهم شيء على الفرد منذ الفتح في شروط الصلح مع القبط ؛ مما أدى إلى ثورة القبط على هذه الزيادة ثورات مختلفة ، وفي أماكن مختلفة سنة ١٠٧ ، ١٢١، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ٢١٦ هـ وامتنعوا عن دفع الجزية ، والخراج أثناء تلك الثورات .

وقد تنبأ رسول الله ﷺ بثورة القبط أهل الذمة ومنعهم ما في أيديهم بسبب ظلم بعض الولاة المسلمين .

خَرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لم تجبوا ديناراً ولا درهماً؟ قالوا: وكيف نرى ذلك كائناً يا أبا هريرة ؟ قال: إي والذي نفس أبي هريرة بيده عن قول الصادق والمصدوق، قالوا: عم ذلك؟ قال: تنتهك ذمته وذمّة رسوله فيشدّ اللّه عز وجل قلوب أهل الذمّة فيمنعون ما في أيديهم . "

وصدق رسول الله ﷺ فقد ظلم الولاة الأمويين والعباسيين أقباط مصر وانتهكوا ذمة الله تعالى ورسوله ﷺ ؛ فثار أقباط مصر عليهم ومنعوا الخراج عنهم وقاوموا عمالهم وتعاقبت الثورات لأكثر من مائة عام (١٠٧ – ٢١٦ هـ) وللأسف قابل الولاة العرب هذه الثورات بكل عنف وقسوة وبهذا أضافوا إلى ظلم المصريين سفك دمائهم بغير حق !!

---

(١) ابن عبد الحكم " سيرة عمر بن عبد العزيز " ص ١٦٣، ١٦٤ نقلاً عن علي محمد الصَّلاَّبيّ "الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار" ج ٣ ص ٤٨٦ .

ثورات القبط على الولاة الظالمين

لم تكن ثورات أقباط مصر على والولاة العرب بسبب اضطهاد ديني كما حدث مع الهكسوس والفرس والبيزنطيين ، ولم يكن بسبب إهانة كرامتهم ، ولكن بسبب الطمع في أرزاقهم بزيادة الجزية والخراج ، ولم تكن الزيادة كبيرة أو مجحفة إنما كانت قيراطاً واحداً (١) لكن المصريين أبوا إلا إلزام جباة الجزية بما تعاهد المسلمون مع أقباط مصر عليه .

كتب عبد اللّه بن الحبحاب صاحب خراج مصر إلى هشام بن عبد الملك بأنّ أرض مصر تحتمل زيادة الجزية على المصريين ، فزاد على كل دينار قيراطاً ، فانتقضت كورة (٢) تنو ونمي وقربيط وطرابية ، وعامة الحوف الشرقيّ، فبعث إليهم الحر بن يوسف بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير، وذلك أول انتقاض القبط بمصر، وكان انتقاضهم في سنة ١٠٧هـ . (٣)

إذن لم تكن ثورة المصريين الأولى على العرب إلا نتيجة ظلم وقع عليهم ، وبرغم أن المصري هادئ ومسالم إلا أنه لا يقبل الضيم أبداً .

يقول د. حسين نصار " اشتهر المصري بالدعة ، وحب السلام ، والقناعة والرضا بما يتعاقب عليه من أحوال ، وكراهية العنف .

وتلقف تلك الخصائص المؤرخون الذين لا يتعمقون الأمور ، ولا يستقصون البحث، فظنوها ضعفاً في طبيعة المصري ، وخوراً في قلبه ، وقال قائلهم عن المصريين: " عبيد لمن غلب " .

ذلك ما شتهرت به مصر عند القدماء المؤرخين ، فما مبلغ صحة هذه الشهرة ، وما أسسها ؟ " (٤)

---

(١) القيراط : في القياس جزء من أربعة وعشرين . المعجم الوسيط .
(٢) الكورة : البقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال (ج) كور . المعجم الوسيط .
(٣) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ٩٩ .
(٤) د. حسين نصار " الثورات الشعبية في مصر الإسلامية " الهيئة العامة لقصور الثقافة ص ٨

إن ثورات المصريين ضد الطغاة سواء أكانوا حكاماً محليين ، أو أجانب تشــهد بكذب هذه المقولة التي وصم المؤرخون بها تاريخ مصر المجيد ، وقد سبق أن بينا ثوراتهم ضد ببي الثاني وابنه ، وثوراتهم ضد الهكسوس ، والفرس ، واليونــان ، والرومان ، وهاهم يثورون لأكثر من مائة عام ضد الظالمين من الحكــام العــرب بسبب زيادة قيراطين فقط على الجزية .

وتستمر ثورة المصريين على جور جباة الخراج ، ويرابط الحــرّ بــن يوســف بدمياط ثلاثة أشهر ، ثم ينتقض أهل الصعيد، ويحارب القبط جبــاة الخــراج فــي سنة ١٢١هـ ، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر، أهل الديوان، فقتلوا مــن القبط ناساً كثيراً، وظفر بهم وخرج بَخْنَسْ رجل من القبط في سمنود، فبعث إليــه عبد الملك بن مروان: موسى بن نصير أمير مصر، فقتل بخنس فــي كثيــر مــن أصحابه، وذلك في سنة ١٣٢هـ ، وخالفت القبط بمدينة رشيد ؛ فبعث إليهم مروان بن محمد الجعديّ فهزمهم.

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة أمير مصر بناحية سخا، ونابذوا العمال وأخرجوهم، وذلك في سنة ١٥٠ هـ ، وصاروا إلــى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهل البشرود والأريسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بــن حاتم، فعقد لنصر بن حبيب المهلبيّ على أهل الديوان، ووجوه مصر، فخرجوا إليهم فبيّتهم القبط، وقتلوا من المسلمين. فألقى المسلمون النار في عسكر القبط، وانصرف المسلمون إلى مصر منهزمين .

وفي ولاية موسى بن عليّ بن رباح على مصر خرج القبط ببلهيــب فــي ســنة ١٥٦هـ ، فخرج إليهم عسكر فهزمهم، ثم انتقضوا مع مــن انــتقض فــي ســنة ٢١٦هـ .[1]

(١) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ٩٩ .

وهكذا لم يستلم أقباط مصر لأي ظلم وإن كان صغيراً فقد شبُّوا على العزة والكرامة ، وعدم الرضا بالضيم .

والبعض يستشهد بثورات القبط هذه على اضطهاد العرب أقباط مصر ، وأن العرب المسلمين لا يختلفون عن غزاة مصر السابقين : الهكسوس ، والفرس ، واليونان ، والروم !!

وللرد على هؤلاء نذكِرهم بالحقائق الآتية :

١- أن ظلم أهل الذمة أو الاعتداء عليهم ليس من شريعة الإسلام ، وقد جلَّينا هذا الأمر بشيء من التفصيل فيما سبق .

٢- أن الظلم والاضطهاد ونقض العهود لم يقتصر على الأقباط المسيحيين فقط إنما شمل العرب الذين استوطنوا مصر ، والأقباط المسلمين وقد صاروا أغلبية بعد مرور نحو مائتي عام على الفتح العربي مصر كما سنبين لاحقاً .

٣- أن مقاومة الولاة العرب الظالمين كانت بالتعاون بين أقباط مصر والعرب الذين استوطنوا ريفها في الحوف ، وبلبيس ، والصعيد ...

٤- أن عدل الولاة العرب مع أقباط مصر هو الأصل ، وأن ظلمهم لهم هو الاستثناء ؛ بدليل اعتناق غالبية أقباط مصر الإسلام الذي يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي .

القبائل العربية التي استوطنت مصر

بعد أن فتح العرب مصر وبلغ القبائل العربية ما في مصر من الخير العميم هاجرت بعض القبائل إلى مصر واستوطنت بريفها واتخذت الزراعة معاشاً لها فعمَّرت قرى خاوية ، واستصلحوا أراضي بوراً ، وخالطوا أقباط مصر ولم

يجوروا على أرزاقهم ولا ممتلكاتهم ؛ فدخل الأقباط في دين الله أفواجاً راغبين غير مكرهين .

ففي ولاية الوليد بن رفاعة الفهميّ على مصر، نقلت قبيلة قيس إلى مصر في سنة ١٠٩ هـ، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك إلا ما كان من قبيلتي : فهم ، وعدوان، فوفد ابن الحبحاب والي مصر على الخليفة هشام بن عبد الملك، فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتاً (عائلات) ، فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر على أن لا ينزلهم بالفسطاط، فعرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم فأنزلهم الحوف الشرقيّ، وفرّقهم فيه.

ويقال: إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال: ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان. فكتب إلى هشام: إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرّف هذا الحيّ من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم وإني قدمت مصر ، ولم أر لهم حظاً إلا أبياتاً من فهم، وفيها كُوَر (قرى) ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجاً وهي بلبيس. فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس، فليفعل.

فكتب إليه هشام: أنت وذاك. فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر، ومائة أهل بيت من بني سليم، فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلاً فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر .

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت، فصار ببلبيس: ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد، وولى

الحوثرة بن سهيل الباهلي مصر . مالت إليه قيس فمات مروان، وبها ثلاث الاف أهل بيت، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم . (١)

وعاشت القبائل العربية مع أقباط مصر : مسلمين وغير مسلمين في تعاون وإخاء واختلطت أنسابهم ، وأصبحوا نسيجاً واحداً .

يقول المقريزي : " وكان من خبر أراضي مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشاً وكسباً وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات . " (٢)

كما أن الولاة العرب لا يفرقون في المعاملة بين عربي وقبطي ، والظالمون من هؤلاء الولاة لم يقصروا ظلمهم على القبط فحسب بل شمل ظلمهم العرب المستوطنين أيضاً .

وكما استعرضنا ثورات القبط على الولاة العرب نستعرض الآن ثورات العرب المستوطنين على الظالمين من الولاة العرب .

ثورات المستوطنين العرب على الولاة الظالمين

في عام ١٦٧ هـ ولي موسى بن مصعب على مصر وأخذ في أيام إمرته على مصر يتشدد على الناس في استخراج الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولاً ؛ ولقي الناس منه شدائد وساءت سيرته وارتشى في الأحكام ؛ ثم رتب دراهم على أهل الأسواق وعلى الدواب فكرهه الجند وتشغبوا عليه ونابذوه، وثارت قيس واليمانية وكاتبوا أهل مصر فاتفقوا عليه ثم خرج هو بنفسه في جميع جيوش مصر لقتال قيس واليمانية؛ فلما التقوا انهزم عنه أهل مصر بأجمعيم وأسلموه فقتل، ولم

---

(١) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ١٠٠ .
(٢) نفسه ج١ ص ١٠٢ .

يتكلم أحد من أهل مصر لأجله كلمة واحدة؛ وكان قتله لسبع خلون من شوال سنة ١٦٨هـ . (١)

وهكذا لم يستثن موسى بن مصعب والي مصر العرب من ظلمه بل عمَّ ظلمه كل المصريين : عرباً وأقباطاً فثاروا عليه وقتلوه .

وفي سنة ١٧٣هـ لما ولي عمر بن غيلان خراج مصر شدد على الناس وعلى أهل الخراج، فنفرت القلوب منه وثار عليه الجند وقاتلوه وحصروه في داره فلم يدافع عنه محمد بن زهير ، فانحط قمر عمر بن غيلان وتلاشى أمره مع الجند وغيرهم ؛ وبلغ الخليفة هارون الرشيد ذلك فعظم عليه عدم قيام محمد بن زهير بنصرة عمر بن غيلان المذكور فعزله عن إمرة مصر بداود بن يزيد بن حاتم المهلبي في سنة ١٧٣هـ ، وتوجه إلى الرشيد فزجره ثم جعله من جملة القواد وندبه للاستيلاء على مال محمد بن سليمان بالبصرة بعد موته . (٢)

وفي سنة ١٧٨هـ ، كشف إسحاق بن سليمان أمير مصر أمر الخراج، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم، فخرج عليهم أهل الحوف وعسكروا فبعث إليهم الجيوش، وحاربهم فقتل من الجيش جماعة، فكتب إلى أمير المؤمنين: هارون الرشيد يخبره بذلك، فعقد لهرثمة بن أعين في جيش عظيم، وبعث به إلى مصر، فنزل الحوف وتلقاه أهله بالطاعة، وأذعنوا بأداء الخراج فقبل هرثمة منهم واستخرج خراجه كله.

وفي عام ١٨٦ هـ خرج أهل الحوف على الليث بن الفضل البيودي أمير مصر، وذلك لأنه بعث بمساح يمسحون عليهم أراضي زرعهم، فانتقصوا من القصبة أصابع فتظلم الناس إلى الليث، فلم يسمع منهم فعسكروا، وساروا إلى الفسطاط، فخرج إليهم الليث في أربعة آلاف من جند مصر في شعبان سنة ١٨٦هـ ، فالتقى معهم في رمضان فانهزم عنه الجند ، فحمل بمن معه على أهل الحوف، فهزمهم

---

(١) ابن تغري بردي "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ج ١ ص ١٥٦ .
(٢) نفسه ج ١ ص ١٦٤

حتى بلغ بهم غيفة، وكان التقاؤهم على أرض جب عميرة، وبعث الليث إلى الفسطاط بثمانين رأساً من رءوس القيسية، ورجع إلى الفسطاط، وعاد أهل الحوف إلى منازلهم، ومنعوا الخراج .

فخرج الليث إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ هـ ، وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش يبعث معه، وكان محفوظ بن سليم بباب الرشيد، فرفع محفوظ إلى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا، فولاه الخراج، وصرف الليث بن الفضل عن صلاة مصر، وخراجها.

وفي عام ١٩١هـ في ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج، فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيى بن معاذ في أمرهم فنزل بلبيس في شوال سنة ١٩١هـ ، وصرف الحسين بن جميل عن أمارة مصر في شهر ربيع الآخر سنة ١٩٣هـ . (١)

وفي سنة ٢١٤ هـ وفي أمارة عيسى بن يزيد الجلوديّ على مصر ظلم صالح بن شيرزاد عامل الخراج الناس، وزاد عليهم في خراجهم، فانتقض أهل أسفل الأرض وعسكروا، فبعث عيسى بابنه محمد في جيش لقتالهم، فنزل بلبيس، وحاربهم فنجا من المعركة بنفسه، ولم ينج أحد من أصحابه وذلك في صفر سنة ٢١٤ هـ ، فعزل عيسى عن مصر.

وولى عمير بن الوليد التميميّ فاستعدّ لحرب أهل الحوف، وسار في جيوشه في ربيع الآخر، فزحفوا عليه واقتتلوا، فقتل من أهل الحوف جمع وانهزموا، فتبعهم عمير في طائفة من أصحابه، فعطف عليه كمين لأهل الحوف، فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر.

---

(١) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ١٠٠ .

فولى عيسى الجلولي ثانياً، وسار إليهم فلقيهم بمنية مطر فكانت بينهم وقعة آلت إلى أن انهزم منهم إلى الفسطاط، وأحرق ما ثقل عليه من رحله، وخندق على الفسطاط وذلك في رجب، وقدم أبو إسحاق بن الرشيد من العراق فنزل الحوف، وأرسل إلى أهله فامتنعوا من طاعته، فقاتلهم في شعبان ودخل وقد ظفر بعدة من وجوههم إلى الفسطاط في شوال، ثم عاد إلى العراق في المحرّم سنة ٢١٥ هـ بجمع من الأسارى . (١)

وهكذا كما ترى عزيزي القارئ أن الحكام العرب لم يخصُّوا أقباط مصر بالظلم إنما سوُّوا بين جميع سكان مصر عرباً وأقباطاً ، ولقد تعاون العرب المسلمين والأقباط : مسيحيين ومسلمين في مقاومة الظالمين من الخلفاء وولاتهم وعمالهم ، وامتزجت دماؤهم جميعاً بتراب مصر الطاهر ، نقول هذا للذين يحاولون تشويه العلاقة الحميمة والأخوة الصادقة واختلاط الأنساب التي كانت بين العرب والأقباط.

الثورة المصرية الكبرى على عمال الخليفة المأمون

في سنة ٢١٦هـ انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد، وقبطها وأخرجوا عمال الخليفة المأمون ، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال الخليفة فيهم، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدّت إلى أن قدم الخليفة المأمون إلى مصر لعشر خلون من المحرّم سنة ٢١٧ هـ ، فسخط على عيسى بن منصور الرافقي، وكان على أمارة مصر وأمر بحل لوائه، وأخذه بلباس البياض عقوبة له. وقال: لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد.

ثم عقد المأمون على جيش بعث به إلى الصعيد، وارتحل هو إلى سخا، وبعث بالأفشين إلى القبط وقد خلعوا الطاعة، فأوقع بهم في ناحية البشرود، وحصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال، وبيع النساء والأطفال، فسبى أكثرهم، وتتبع المأمون كل من يومي إليه بخلاف، فقتل ناساً كثيراً، ورجع إلى الفسطاط في صفر ومضى إلى حلوان، وعاد فارتحل لثمان

---

(١) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ١٠١ .

عشرة خلت من صفر ، وكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوماً. وكان خراج مصر قد بلغ في أيام المأمون على حكم الإنصاف في الجباية أربعة آلاف ألف دينار ومائتي ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينار. (١)

وبعض الكتابات المسيحية ، خاصة على المواقع الإلكترونية ، تسمي ثورة المصريين على جور عمال الخليفة المأمون بثورة البشروديين التي قاوم القبط فيها الغزاة العرب ووقفوا في وجه المحتلين المسلمين ، وهذا الكلام عارٍ عن الصحة فنعم اضطهد عمال المأمون أهل البشرود ونقضوا عهودهم ولما ثاروا نكّلوا بهم هذا حق ، والحق أيضاً كما سبق وأكدنا أن ظلم الولاة العرب ونقضهم للعهود لم يكن من شريعة الإسلام ، ولم يفرّق بين عرب وأقباط ، كما أن المأمون قد عاقب عماله على ما ارتكبوه في حقِ المصريين ، وسجّل التاريخ غضب المأمون على واليه بمصر والألفاظ التي عنفه بها إذ قال له : إن هذا الحدث العظيم لم يكن إلا عن أفعالك ، وفعل عمالك ، حمّلتم الناس مالا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد . (٢)

كما أن المأمون طاف القرى المصرية واجتمع بالمصريين ليمحوا آثار ما ارتكبه هو وعماله في حقهم .

ودونك هذه القصة التي تؤكد حب أقباط مصر للخليفة المأمون برغم ما صنعه عماله بهم .

قصة المأمون مع مارية القبطية

ذكر المقريزي أن المأمون، لما سار في قرى مصر كان يبني له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقة والعساكر من حوله، وكان يقيم في القرية يوماً وليلة، فمرّ بقرية يقال لها: طاء النمل، فلم يدخلها لحقارتها، فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة،

---

(١) المقريزي " المواعظ والاعتبار " ج١ ص ١٠١ .
(٢) نفسه ج١ ص ١٠١ .

فوقف لها وكان لا يمشي أبداً إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس، فذكروا لـــه إن القبطية قالت: يا أمير المؤمنين، نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي، والقـــبط تعيرني بذلك، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلوله في ضيعتي ليكون لـــي الشرف، ولعقبي، ولا تشمت الأعداء بي، وبكت بكاءً كثيراً. فرقّ لها المأمون وثنى عنان فرسه إليها ونزل فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ، وسأله كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيـــب والشـــمع والفاكهـــة والعلوفة، وغير ذلك مما جرت به عادته، فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة .

وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العباس، وأولاد أخيه الواثـــق والمتوكـــل ويحيى بن أكثم والقاضي أحمد بن داود، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده، ولم تكل أحداً منهم ولا من القوّاد إلى غيره، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيراً، حتى أنه استعظم ذلك .

فلما أصبح، وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مـــع كـــل وصيفة طبق. فلما عاينها المأمون من بعد. قال لمن حضر : قد جـــاءتكم القبطيـــة بهدية الريف الكامخ والصحناه والصبر فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته .

فقالت: لا واللّه لا أفعل فتأمّل الذهب، فإذا به ضرب عام واحد كله، فقـــال: هـــذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك .

فقالت: يا أمير المؤمنين، لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا .

فقال: إن في بعض ما صنعت لكفاية، ولا نحب التثقيل عليك فردي مالك بارك الله فيك، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين، هذا وأشارت إلى الذهب، من هذا وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض، ثم مـــن عـــدلك يـــا أميـــر المؤمنين وعندي من هذا شيء كثير فأمر به فأخذ منها، وأقطعهـــا عـــدة ضـــياع،

وأعطاها من قريتها طاء النمل مائتي فدّان بغير خراج، وانصرف متعجباً من كبر مروءتها وسعة حالها . (١)

ومن هذه القصة تتضح لنا عدة أمور منها :

١- كثرة خيرات مصر ، وغنى أرضها ، وأنها لا تحتاج إلا إلى حسن الإدارة والعدل حتى تؤتي أكلها وتصبح سلة غلال العالم كما كانت أيام يوسف عليه السلام.

٢- حب أقباط مصر للعرب المسلمين ، برغم ما قد يقع من بعضهم من تجاوزات.

٣- تنافس أهل القرى المصرية في استضافة المأمون خليفة المسلمين ورجاله ، واعتبار امتناعه عن دخوله قرية من القرى معرّة ، ودخوله القرية شرف لأهلها يتوارثه الأبناء عن الآباء .

٤- حسن سياسة المأمون مع المصريين فبعد أن قضى على الثورة استل السخائم من نفوسهم بجولته في القرى المصرية ، وتلطفه مع أهلها .

فلا عجب أن يكثر دخول أقباط مصر في الإسلام بعد زيارة الخليفة المأمون لمصر حتى صاروا أغلبية .

ويذكر أحمد حسين في موسوعته عن تاريخ مصر أنه منذ تاريخ قدوم الخليفة المأمون إلى مصر عام ٢١٧هـ - أصبحت الأغلبية في مصر إسلامية وذلك لدخول الكثير من الأقباط في دين الإسلام ومن بقي منهم على دينه كفّ عن المحاربة . (٢)

ونعود ونذكّر أن دخول الأقباط المصريين في الإسلام كان طواعية ولم يكرهوا عليه ليس فقط لأن الله تعالى نهى عن الإكراه في الدين لكن أيضاً لأن عقيدة

---

(١) المقريزي " المواعظ والاعتبار " مرجع سابق ج١ ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ج٢ ص ٤٦٣

المصري هي أعز ما يملك ويحرص عليه ولا يساوم عليها أبداً والتاريخ شاهد على ذلك .

يقول تعالى : { لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ } (البقرة:٢٥٦)

أي: لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بيِّن واضح جلـــي دلائلـــه وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هــداه الله للإســـلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم علـــى سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقسورًا . [1]

ومن هذه الثورات يتأكد لنا عدم قبول المصريين الجور في أي وقــت ومـــن أي حاكم، كما يتأكد لنا أن سبب الجور ناتج عن سوء سياسة الحكام وولاتهـــم لا عـــن تعاليم الإسلام وأحكامه .

مصر في عهد الدول المستقلة

ظلت مصر ولاية عباسية حتى تمكن أحمد بن طولون من الاستقلال بهـــا عـــن الخلافة العباسية عام ٢٥٤هـــ ولم يعد يربطها بالخلافة العباسية إلا ربـــاط شـــكلي يتمثَّل في ذكر اسم الخليفة قبل الوالي عند الدعاء على منابر المســـاجد أو ضـــرب العملة باسمه ، ثم أخيراً إرسال مبلغ من المال إلى عاصمة الخلافة سنوياً . [2]

وبعد سقوط الدولة الطولونية التي دامت ٣٨ عاماً عادت مصر ولاية عباسية لمدة ٣٠ عاماً ثم استقل محمد بن طغج الإخشيد بها عام ٣٢٣هـــ وخلفه بعد موته أربعة من أسرته ولقد دامت الدولة الإخشيدية مدة ٣٤ عاماً .

وانتهز المعز لدين الله الفاطمي عدم الاستقرار الموجود في مصر فـــي أواخـــر الدولة الإخشيدية بالإضافة إلى ضعف الدولة العباسية في بغداد لانشـــغالها بصـــد

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٨٢

(٢) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ١١٩ .

غارات البيزنطيين فبعث جيشاً لغزو مصر بقيادة الصقلي في سنة ٣٥٨ هـ وتمكن بهذا الجيش من إقامة الخلافة الفاطمية في مصر تلك الخلافة التي دامت نحو قرنين من الزمان .

وبهذا انقطعت صلت مصر بالخلافة العباسية تلك الصلة التي دامت من عام ١٣٢هـ إلى ٣٥٨ هـ .

ولقد نعمت مصر طوال فترات الاستقلال بالاستقرار ولم تندلع فيها ثورة مصرية تذكر برغم تعدد الدول واختلاف الحكام .

يقول حسين نصار : " إن مصر بقيت هادئة طوال العصر الأموي ، فلم تعرف الاضطرابات ولا الثورات الاقتصادية ، لكن ما إن أظلها العهد العباسي حتى كثرت الثورات وتعددت وخطر أثرها ، فلم يكن يمر عام أو عامان حتى تقوم ثورة سببها زيادة الخراج أو منع العطاء أو التحايل في استخراج أموال الأهالي ، أو فرض ضرائب جديدة ، وتلاحقت الثورات الاقتصادية الكبيرة ، ولم تسترح مصر من هذا اللون من الثورات إلا في عهود الاستقلال تحت ظل الطولونيين ثم الإخشيديين . وقام ببعض هذه الثورات الجند دون أن يتدخل المدنيون، وتدخلوا في بعضها بعد أن بدأها الجند . واشترك في بعضها الآخر المسلمون والأقباط ، وخاصة الثورات التي قامت بسبب فرض ضرائب جديدة أو بسبب زيادة الخراج ." (١)

كذلك لم ينخرط المصريون في جيوش هذه الدول ولم يشاركوهم في حروبهم .

فقد كان جيش الدولة الطولونية يتكون من الأتراك والسودانيين والعرب .

وكذلك كان جيش الدولة الإخشيدية نحو هذا ، أما الدولة الفاطمية فتكونت جيوشها من البربر والمغاربة والأتراك والأرمن .

ولم يكن لدى المصريين جيوشاً لتستقل بحكم مصر فرضت بحكم هذه الدول ما داموا لا يقتربون من المحظورات الثلاثة :

---

(١) د. حسين نصار " الثورات الشعبية في مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ٥٧ .

١- محاربة دينهم أو مذهبهم الديني .

٢- إهانة كرامتهم .

٣- نقض عهودهم ونهب ثرواتهم .

وقد حرص حكام هذه الدول على ألا ينتهكوا أي حرمة من حرمات المصريين ، كما عملوا على نشر العدل ومساعدة الفقراء فرضي المصريون بحكمهم ، ولم يتدخلوا في صراعاتهم الداخلية والخارجية .

الحاكم بأمر الله واضطهاد أهل الذمة

يعتبر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الاستثناء الوحيد من هؤلاء الحكام الذين استقلوا بمصر ، كان الحاكم بأمر الله قد أمضى السنوات العشر الأولى من حكمه ينتهج سياسة التسامح التي اتبعها أبوه وجده من قبله مع أهل الذمة (النصارى واليهود) من سكان مصر حيث كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية ويشاركون في الحياة العامة بكل سبيل وإذا بالحاكم بأمر الله في سنة ٣٩٥ هـ ينقلب على أهل الذمة وينكِّل بهم تنكيلاً بشعاً وخرج في معاملتهم عن تعاليم الإسلام ، وعهد الذمة ، وعن سمات البشر الأسوياء .

ولم يكن اضطهاد الحاكم لأهل الذمة منبعثاً من تعصب ديني بقدر ما كان انحرافاً عن الطبيعة الإنسانية ، وشذوذاً عن أخلاق البشر السوية لذا فلا عجب أن عمد الحاكم إلى امتهان الإنسان بصرف النظر عن أصله ودينه وجنسه ، وليس أدل على ذلك من أنه في هذه السنة نفسها أصدر أمره بسب الصحابة وأن تنقش ألفاظ السب على جدران المساجد وفي الأسواق والشوارع والدروب ، كما أصدر بتعميم المذهب الشيعي وإلغاء المذهب السني وغير ذلك . مخالفاً الأمر الذي قطعه جوهر الصقلي للمصريين وسار عليه العمل في أيام المعز والعزيز وهو ألا يتعرض للمصريين في مذهبهم ، وفي هذه السنة أيضاً على ما يقول المقريزي كان حظر

الحاكم على المصريين أكل الملوخية والجرجير وذبح الأبقار السليمة ومنع بيع القفاع [1] ولا يباع شيء من السمك بغير قشر ! [2]

كما أمر بقتل الكلاب ، ومنع بيع العنب ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً . ثم عدل عن كل أفعاله الشاذة بعدما أحس بموجة غضب شديدة تعمّ البلاد فراح يلغي كل ما أصدره من أوامر صدمت مشاعر الناس ، وأظهر التقشف والتنسك ، واستبدل ركوب الحمير بالسير في المواكب الفخمة ، وقرر الإحسان إلى الفقراء والغرباء وعابري السبيل ، وأجرى لهم الأرزاق ومضى على هذا السبيل سنوات . [3]

لقد كانت شخصية الحاكم تجمع متناقضات كثيرة مما جعل البعض يرون أنه كان مصاباً بنوع من اللوثة العقلية وعدم اتزان التفكير . [4]

وشكك بعض المؤرخين في صحة ما نسب إلى الحاكم بأمر الله فيقول ابن خلدون في تاريخه : " وكان حاله مضطرباً في الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته . " [5]

ولعلنا بعد ذلك نتساءل : ما السر وراء ما رمي به الحاكم بأمر الله من اتهامات ؟

وربما يرجع الأمر إلى أسباب منها :

١- استبداد الحاكم بالسلطة ، وانفراده بإصدار أوامر غريبة دون إبداء الحكمة من ورائها .

٢- تحرك الحاكم بين الرعية بطريقة لم يألفوها .

---

(١) القفعة : قفة واسعة الأسفل ضيقه الأعلى (ج) قفاع . المعجم الوسيط
(٢) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " مرجع سابق ج٢ ص ٥٥٤ .
(٣) نفسه ج٢ ص ٥٥٥ .
(٤) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ١٢٧ .
(٥) تاريخ ابن خلدون ج٤ ص ٦٠ .

٣- طعن العباسيين في نسب الفاطميين وعقائدهم .

٤- تعصُّب الحاكم للمذهب الشيعي الإسماعيلي وسبه للصحابة وقتله بعض علماء السنة مما جعل بعض المؤرخين يطعنون فيه ويتقولون عليه .

٥- انحراف رجال مخابرات الحاكم وإشاعتهم أخباراً كاذبة عن أعماله بين الناس .

٦- نجاح أخت الحاكم (ست الملك) في تدبير قتله ، وتشويه صورته لتبرير ذلك .

٧- ظهور دعوى إلى تأليه الحاكم جعلت الناس يطعنون فيه . (١)

وبرغم أن الحاكم بأمر الله كان شاذاً بين حكام مصر ، وشاذاً بين بني آدم ، وأنه صب شذوذه على كل سكان مصر باختلاف عقائدهم وأجناسهم ، وبرغم تشكيك بعض الباحثين في صحة ما نسب إليه من أعمال شاذة إلا أن البعض اتخذ مما نسب للحاكم دليلاً على اضطهاد المسلمين لأقباط مصر !!

والحقيقة أن الحاكم بأمر الله ، إذا سلمنا جدلاً بصحة كل ما نسب إليه ، لا يمثل الإسلام ، ولا شريعته ولقد أنكر علماء أهل السنة عليه أفعاله الشاذة ووصل الأمر ببعضهم إلى إصدار الفتاوى بتكفيره وإخراجه من الملة.(٢)

نهاية الخلافة الفاطمية

كانت الخلافة العباسية ترقب أحوال مصر ، ورأت اضمحلال المذهب الإسماعيلي فيها وازدياد الحركة السنية فتجدد الأمل لديها الاستيلاء على مصر ، وإعادتها إلى السيطرة السنية ، والقضاء على المذهب الشيعي الدخيل عليها ، وشجعها على ذلك تفوق القوة السنية في الشام ورجت أن يتحقق هذا الأمل على يد نور الدين محمود الرجل السني المتحمس في بلاد الشام ، ويروي السيوطي أنه عندما قُتل الخليفة الظافر الفاطمي سنة ٥٤٩هـ ، وتولى ابنه الطفل الصغير الفائز ،

---

(١) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ١٠٨ .
(٢) راجع الفتاوى الذهبية في بيان كفر مدعي الأنساب الفاطمية . شبكة الدفاع عن السنة .

وصلت أخبار ذلك إلى بغداد فكتب الخليفة العباسي المقتضي عهداً لنور الدين بتقليده على البلاد الشامية والمصرية .

وعرض شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمي بعد أن تمكن ضرغام من خلعه وتولي الوزارة سنة ٥٥٨ هـ بدلاً منه – على نور الدين أن يساعده على العودة إلى وزارة مصر وتعهّد له بألا يتصرف في أمور مصر إلا بأوامره واختياره .

نور الدين محمود يسعى لضم مصر والمصريون يساعدونه

وجد نور الدين محمود في عرض شاور فرصة للتدخل في أمور مصر لإعادة السيطرة السنيَّة عليها والقضاء على المذهب السني فيها ، والتقوي بها على الفرنجة الذين يخشى أن تقع مصر في أيديهم . فأرسل حملة مع شاور تحت قيادة قائده أسد الدين شيركوه إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ ونجحت في إعادة شاور إلى الوزارة ، إلا أن شاور تنكر لحملة شيركوه وعمل على إخراجها من مصر ، واستعان على ذلك بالفرنج ، وخرج شيركوه من مصر بعد أن حاصره شاور والفرنج في بلبيس ثلاثة أشهر وهو يقاتلهم .

عاود نور الدين محمود التدخل في أمور مصر ، فأرسل إليها حملة ثانية سنة ٥٦٢هـ تحت قيادة شيركوه أيضاً ، واستعان شاور بالفرنج عليها كذلك ، وتقاتل الفريقان شاور والفرنج من جانب . شيركوه من جانب آخر عند قرية البابين بمدينة المنيا ، وكان النصر حليفاً لشيركوه .

والذي يهمنا هنا أن حملتي شيركوه على مصر قد لاقت تأييداً من أهل مصر (السُنَّة) بسبب كرههم للمذهب الشيعي الإسماعيلي الذي حاول الفاطميون بشتى الطرق فرضه عليهم لذا بعدما توجَّه شيركوه إلى الإسكندرية كتب إلى أهلها يستنجد بهم على شاور الذي أدخل الفرنج إلى بلاد المسلمين في مصر[1] فخرج أهل

([1]) سبق أن ذكرنا أن المسلمين أصبحوا أغلبية في مصر منذ عهد الخليفة المأمون أي في أوائل القرن الثالث الهجري حيث اعتنق غالبية المصريين الإسلام ونطقوا باللسان العربي .

الإسكندرية لاستقباله وفي مقدمتهم نجم الدين محمد بن مصال والي الإسكندرية ، وقاضيه الأشرف بن الخباب ، وناظره القاضي الرشيد بن الزبير وسروا بمقدمه وسلموه المدينة .

أهل الإسكندرية ينصرون صلاح الدين على شاور

ترك شيركوه ابن أخيه صلاح الدين في الإسكندرية مع جماعة من العسكر ورحل في أقوياء عسكره إلى الصعيد ، وظن الفرنجة وشاور أن في استطاعتهم التغلب على صلاح الدين في الإسكندرية فتقدموا نحوها وحاصروها مدة ثلاثة أشهر لكنها لم تستسلم وظلت صامدة .

ويرجع صمود صلاح الدين هذه المدة إلى وقوف أهل الإسكندرية إلى جانبه ومناصرته بالمال والعتاد ؛ فقد حشدوا أربعة وعشرين ألف فرس واستعدوا لقتال شاور ، وقد حاول شاور أن يثنيهم عن موقفهم هذا ووعدهم بأن يضع عنهم الأموال التي تجبى عليهم ، بل ويعطيهم الخمس في الأموال التي يحصل عليها إذا سلّموا صلاح الدين فرفضوا ، وألحوا في قتاله فحصرهم وقل الطعام عندهم ، ويذكر النويري أن أهل الإسكندرية قالوا لشاور عندما طلب منهم تسليم صلاح الدين : "معاذ الله أن نسلّم المسلمين إلى الفرنج والإسماعيلية " . (١)

وهذه هي المرّة الأولى ، فيما نعلم ، التي يشترك المصريون فيها في الجيوش منذ الفتح العربي الإسلامي ، أو ينحازوا إلى طرف في الصراع على حكم البلاد ، وقد سبق أن قلنا أن المصريين – وليس العرب الذين يسكنون مصر – طوال هذه المدة لم ينضمُّوا إلى جيوش ولاة : الخلفاء الراشدين ، والأمويين ، والعباسيين ، وحكام الدولة : الطولونية ، والإخشيدية ، والفاطمية ، وأنهم طوال هذه المدة كانوا يدفعون الجزية أو الخراج كضريبة دفاع لمن يحكمهم ويدافع عنهم .

وبرغم العروض المغرية التي قدمها لهم شاور وزير الخليفة العاضد الفاطمي الرسمي فلم يسقط عنهم أموال الجباية فحسب بل عرض عليهم خمس خراج مصر

(١) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ١٩٤ .

لكنهم رفضوا في إباء وشمم وفضلوا الجوع وقلة الطعام ومناصرة صلاح الدين بالمال والعتاد والجنود على عروض شاور حليف الفرنج !!

وكان شيركوه قد ملك الصعيد وانضم إليه العربان ، وعندما علم بحرج الموقف بالنسبة لصلاح الدين وأهل الإسكندرية تقدم نحوها ، وهنا أرسل إليه شاور في طلب الصلح فتقبل لأن جيشه قد ضعف وحاقت به الأخطار .

وتقرر الصلح على يخرج شيركوه والفرنجة من مصر . وخرج شيركوه نحو الشام على أن ينصرف الفرنج كلهم عن مصر كذلك .

أما الفرنج فقد تقرر بينهم وبين شاور على أن تبقى منهم قوة في القاهرة وتكون بيدها أسوار المدينة لحمايتها من أي هجوم آخر من ناحية نور الدين ، ويكون لهم في كل عام مائة ألف دينار من دخل مصر . (١)

انظر عزيزي القارئ إلى أي حد وصل الأمر بشاور وزير العاضد ينقض اتفاقه مع شيركوه الذي يقضي بإخراج الفرنج ، ويبقي عليهم ، ويدفع لهم مائة ألف دينار من دخل مصر ليحموه من نور الدين محمود !!

مصر والحروب الصليبية

ولم يكتف الفرنج بذلك فراحوا يؤذوا المصريين وأرسلوا إلى عموري ملك القدس ليتقدم لأخذ مصر ، وانتهز عموري الفرصة وتقدم للاستيلاء على مصر ، وملك بلبيس ثم اتجه إلى القاهرة وحاصرها مما اضطر العاضد إلى الإرسال إلى نور الدين محمود بالشام ليستنجد به ضد الفرنج وضمّن مكاتبته خصلاً من شعور نسائه مبالغة في التضرع وطلب النجدة . فأرسل نور الدين محمود حملة ثالثة إلى مصر تحت قيادة شيركوه ، ولمّا اقترب شيركوه من مصر رحل عنها الفرنج ، ودخل شيركوه مصر وقتل شاور ، وأسند العاضد الوزارة إليه عام ٥٦٤ .

---

(١) د. أحمد محمد صالح " مصر الإسلامية " مرجع سابق ص ١٩٤ .

وكان استقرار شيركوه في مصر وتقلده الوزارة إيذاناً بتحول جديد في تاريخ مصر الإسلامية تعود به إلى الوضع الذي كانت عليه قبل سيطرة الفاطميين سنة ٥٣٨هـ .

وعندما تولى صلاح الدين الوزارة بعد موت عمه شيركوه الذي لم يمكث فيها سوى شهرين تقريباً عمل على إسقاط الخلافة الفاطمية بأمر من نور الدين .

وبالفعل استطاع صلاح الدين إسقاط الخلافة الفاطمية بعدما قضى على مؤامرات رجال القصر الفاطمي الذين أرادوا التخلص منه ، وثورة السودانيين عليه .

ومع مطلع سنة ٥٨١ هـ كان صلاح الدين جاهزاً لتحقيق غرضه في محاربة الصليبيين ، وإكمال ما بدأه أستاذه العظيم نور الدين محمود في تحرير القدس من الصليبيين ، وأعلن الجهاد الديني وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العسكر فجاءته من كل مكان من دولته الكبيرة ، وأتم الله تعالى على يديه هزيمة الصليبيين وتحرير بيت المقدس من أيديهم ، وكان لجند مصر ولسلطانها صلاح الدين الفضل الكبير في تحقيق ذلك .

معركة المنصورة

كانت معركة المنصورة صفحة مجيدة في تاريخ مصر في مقاومة المعتدين فعندما عجز الصليبيون عن استرداد بيت المقدس الذي حرره صلاح الدين سلطان مصر والشام رأوا أن يوجهوا حملاتهم إلى مصر بدلاً من الشام لأنها المركز الرئيسي للحملات الموجهة ضدهم فضلاً عن وفرة ثروتها وأهمية موقعها الحربي، والجغرافي .

جاءت الحملة الثالثة على مصر عام ٦٤٧ هـ بقيادة " لويس التاسع " ملك فرنسا"

الذي هاجم دمياط وانتصر على حاميتها التي كانت مرابطة تجاهها فتقهقرت هذه الحامية إلى معسكر الملك الصالح قرب المنصورة . وفي نفس الوقت كان الملك

الصالح نجم الدين أيوب قد عسكر بجنوده في المنصورة نفسها بعد أن عمّرها وحصّنها وجاءته السفن مشحونة بالميرة والذخيرة والرجال من الجنود والعربان .

وكان الملك الصالح مريضاً ، وما لبث أن اشتدت به العلة حتى قضت عليه ، وكان ما نعرفه من كتمان زوجته " شجرة الدر " خبر موته إلا عن اثنين من المقربين ، وأُرْسِل في استدعاء " توران شاه " ولي العهد .

أما المصرْيون فقد دفعهم حماسهم وخوفهم من تقدم الفرنجة إلى التطوع ، والإسراع إلى المنصورة من كل مكان للدفاع والجهاد . وحين تقدّم الصليبيون إلى الجنوب بعد استيلائها على دمياط كان الفلاحون والأعراب يسطون على مؤخرة جيشهم ويتخطفون الجنود ويرسلونهم أسرى إلى القاهرة دفعة بعد دفعة ، وأخيراً وصل الصليبيون أمام المنصورة لا يفصلهم عن المصريين والمسلمين إلا ترعة .

وبدأت المناوشات براً بين الفرسان وبحراً بين سفنهما ، وكانت كفة المصريين راجحة ، وما من يوم إلا وفيه من الصليبيين قتلى وأسرى ، وكان المصريون يتحايلون على خطف الصليبيين ، وكان بعضهم يعبر خلسة إلى معسكرهم فإذا أحس أدرك أنهم أحسوا به ألقى بنفسه في الماء ،وعاد مسرعاً .

وتقدم الصليبيون ودخلوا المنصورة نفسها وانتشروا في أزقتها على حين غرة ، واضطرب معسكر المصريين لكل هذا وكادوا أن يهزموا لولا أن تقدم فريق من المماليك بقيادة فارس شجاع هو الذي صار فيما بعد سلطاناً على مصر وهو "بيبرس" وكرُّوا على الفرنجة وأعملوا فيهم السيوف والرماح ضرباً وطعناً حتى قتل من الفرنجة في هذه المعركة ألف وخمسمائة رجل على رأسهم القائد "كونت دارتوا".

كما أن سكان المنصورة أمطروا الأعداء وابلاً من السهام والحجارة . فلما جنَّ الليل انسحب بقية الإفرنج إلى معسكرهم مهزومين . وأخيراً وصل " توران شاه " وأعلن وفاة أبيه رسميّاً ، وكان أول ما فعله محاولته استرداد دمياط فأمر بصنع

المراكب وحملت على ظهور الجمال قطعاً مفصّلة ، وسارت بها إلى نقط شمال دمياط ، وقطع المدد عن الصليبيين فأصبحوا محصورين في وسط الطريق إذ لم يستطيعوا الاستيلاء على المنصورة والتقدم إلى القاهرة ، ولم يستطيعوا الحفاظ على خط رجعة يمكنهم من الانسحاب عن طريق البحر .

وأصبحت الحملة مقضياً عليها بعد أن ظلّت مرابطة أمام المنصورة أربعة أشهر دون طائل ، وأحس الملك " لويس التاسع " بهذا الحرج فحاول التقهقر ، وأحرق عُدّته واستحكاماته وسار نحو دمياط إلا أن المصريين اعترضوه عند " فارسكور " حيث دارت المعركة الفاصلة التي قتل فيها عدد كبير من العدو قدَّره بعض المؤرخين بثلاثة آلاف وقدره البعض بعشرة آلاف ، وأسر منهم أكبر من هذا العدد بينهم عدد من الأمراء ، كما أُسر " لويس التاسع " نفسه وسجن في دار القاضي " ابن لقمان " في المنصورة . (١)

وفي هذه المعركة تبدّى التعاون بين المصريين : مسلمين ومسيحيين ، عرباً وأقباطاً ، ومماليك ، عسكريين ، ومدنيين . دافع هؤلاء جميعاً عن بلادهم ضد الفرنج حبّاً في وطنهم ، وبغضاً في الصليبيين الذين غزوا بلاد العرب وارتكبوا من الفظائع ما سوَّد تاريخهم ، وجعل أحفادهم يعتذرون عما ارتكبوه في حق العرب والمسلمين . (٢)

جيش مصر الباسل والتتار

انتهى عهد الأيوبيين في مصر بعد أن أدى مهمته ، وجاء المماليك عام ٦٤٨ هـ

ويظلم التاريخ كل الظلم ويتجنى على الحقيقة والعلم من يزعم أن المماليك شعب آخر غير شعب مصر ، وإلا فما هي الدولة التي استعمروا مصر لحسابها ؟!

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع " الثورات في الشرق " عبد الهادي مسعود الفصل المعنون بـ "المنصورة ودار ابن لقمان " .

(٢) أواخر نوفمبر ٢٠٠٧ قام ما يزيد عن ٣٠٠ رجل دين وعالم مسيحي بتقديم اعتذار للمسلمين عن الحروب الصليبية .

وإذا كانت الجنسية تمنح لمن يمضي عشر سنوات في بلد من البلاد فكيف بمن يأتي إلى مصر ولمّا يبلغ الحُلم ، ثم كيف بأبنائه ، ثم بأحفاده وأنساله من بعده ؟!(١)

وقد كتب لهؤلاء المماليك المصريين مشاركة مع سائر فئات الشعب المصري أن يقضوا على التتار الذين لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً في وحشيتهم وخسة أعمالهم .

وقد قتلوا مليوناً وثمانمائة ألف إنسان بعد خربوا بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

يقول المؤرخ **ابن تغري بردي** : " أمر هولاكو بعدِّ القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسراً . " (٢)

وبعد أن قضوا على الخلافة العباسية ومدن الشام وصلت رسل هولاكو إلى مصر بكتاب جاء فيه : " يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلَّطنا على من حلَّ به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم ... فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع .. فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل .. قد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى . "

فجمع قطز الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية .

ونودي في القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ .

---

(١) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ٤٥ .
(٢) ابن تغري بردي " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ج٢ ص ٢٦٠

وأمر الملك قطز الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله، وملك هو غزة .

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوماً، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر الملك المظفر بالأمراء فجمعوا وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفعهم عن البلاد. فأمر السلطان حينئذ أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بقطعة من العسكر، فسار حتى لقي طليعة التتر. فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو، لما بلغهما مسير العساكر المصرية، جمعا من تفرق من التتر في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشري شهر رمضان: التقى الجمعان، وفي قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس. وقد امتلأ الوادي وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، فتحيز التتر إلى الجبل، فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته على رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: وا إسلاماه، وحمل بنفسه

وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره وقتل كتبغا مقدم التتر، وقتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز وكان مع التتر. وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون ويأسرون، وأبلى الأمير بيبرس أيضاً بلاء حسناً بين يدي السلطان.

ومر العسكر في أثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر وصافوا مصافاً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم. وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: واإسلاماه ثلاث مرات، يا الله انصر عبدك قطز على التتار. فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم . (١)

وهكذا كسرت مصر وسلطانها المصري قطز شوكة التتار ثم أتت مصر وسلطانها المصري بيبرس على فلول التتار فهل ترى لهم من باقية ؟

فهل شعب مصر بمختلف طوائفه الذين قهروا الصليبيين وردوهم على أعقابهم والذين قضوا على التتار وأخرجوهم من التاريخ شعب ضعيف وخاضع لكل حاكم كما يزعم المؤرخون ؟!!

هل هذا الشعب البطل الباسل الذي قضى على أقوى قوتين في العصور الوسطى (الصليبيين والتتار) بعد الفرس والروم شعب جبان ، وخانع شعب يجمعه مزمار ، ويفرقه سوط كما يقولون ؟!!

اللهم لا .. فما تعرَّض شعب لمثل ما تعرَّض له من غزاة ومحتلين ومع ذلك ما وهنت عزائمه ، وما خارت قواه .

---

(١) المقريزي " السلوك لمعرفة دول الملوك " ج١ ص ١٤٣

مصر تحت الاحتلال العثماني

دخل العثمانيون مصر عام ١٥١٦م وكانوا قوماً جبارين في الأرض لا يختلفون كثيراً عن التتار كثيراً قوة غاشمة بلا علم قويم ولا خُلُق كريم ، ولا حضارة ناهضة ولا عمارة متطورة .

فما كاد العثمانيون يغزون مصراً حتى حملوا معهم من مصر كل ما وصلت إليه أيديهم من التحف والذخائر ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما جمعوا كل رجل ماهر ذي موهبة فنية أو براعة في الصناعة لتستفيد منه الأستانة العاصمة العثمانية ، وتحرم من فنونه وعلومه مصر التي أنبتته .

وقد كانت الصناعة في عهد المماليك مزدهرة قوية وآثارهم من المساجد والأسبلة والمدارس وكذلك المصنوعات الدقيقة المحفوظة بدار الآثار العربية تشهد برقي الصناعة في تلك العهود ... وحينما ارتحل هؤلاء العمال المهرة مع العثمانيين كان رحيلهم إيذاناً بارتحال الرقي الصناعي من البلاد وأغفل العثمانيون مصالح مصر وانتقل مقر الخلافة إلى الآستانة .

غير أنَّ الأتراك العثمانيين اضطروا أمام قوة المماليك المصريين أن يعملوا لهم ألف حساب ، وأن يعتبروهم دولة لها مقوماتها . لقد ظلَّ هؤلاء المماليك يمثلون قوة حربية متماسكة بعض التماسك ، كانوا بالنسبة لهؤلاء يمثلون قوة وطنية وشعبية مصرية ، بل كانوا يعبِّرون إلى حد كبير عن إرادة مصر في الاستقلال وفي القضاء على مظالم العثمانيين .

ويخطئ كل الخطأ من يظن أن بقية طبقات الشعب المصري ، غير المماليك ، وقفت موقفاً سلبيّاً خلال تلك الفترة الطويلة ، وإنما الثابت أن الحيوية المصرية هي التي جعلت لهؤلاء الولاة طابعاً مصريّاً شجع البعض أن يستقل عن العباسيين حيناً،

ثم شجّع البعض أن يستقل عن العثمانيين حيناً ، وأذاب هؤلاء الحكّام في الكيان المصريّ العام . (١)

علي بك الكبير ومحاولة الاستقلال بمصر

عندما تولى على بك الكبير منصب شيخ البلد – وهو أعلى المناصب التي يتقلدها المماليك – دعم نفوذه وتحالف مع الشيخ ضاهر العمر في فلسطين ضد السلطان وقام بطرد الوالي العثماني ١٦٧٩م وأعلن استقلاله بمصر ، واستطاع أن يمد نفوذه إلى بلاد الحجاز ، واليمن وأرسل جيشاً لمؤازرة حاكم فلسطين حليفه ضد السلطان العثماني بقيادة محمد أبو الذهب ، واستطاع السلطان العثماني أن يستميل جيش أبو الذهب بجانبه والقضاء على سيادة على بك الكبير عام ١٧٧٣م ، وعادت مصر ولاية عثمانية وعين أبو الذهب والياً عليها ولكن العثمانيين دسُّوا عام ١٧٧٥م ، وكان لعلي بك الكير تلاميذ مشهورون فمن مماليكه إبراهيم بك ، ومراد بك اللذان حكما مصر بعد أبي الذهب حتى جاءت الحملة الفرنسية ، ومنهم أحمد باشا الجزار والي عكا الذي حارب نابليون وصده عن دخول عكا وأوقف أطماعه في الشام والشرق الأدنى . (٢)

المصريون وأول وثيقة لحقوق إنسان

منذ عهد الأمير الكبير علي بك الى أن جاءت الحملة الفرنسية والشعب المصري يتابع جهاده ليظهر على مسرح التاريخ وليتحكم في تقرير مصيرد ،أو على الأقل ليشارك تلكم الطبقة العسكرية المستبدة التي كانت تعتبر نفسها صاحبة الكلمة النهائية في مصير البلاد وهي طبقة المماليك .

وضجّ فلاحو بلبيس من استبداد بعض المماليك هناك فقامت حركة دستورية ممتازة سجّلها الرئيس محمد نجيب في كلمته التي افتتح بها لجنة الدستور .

---

(١) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " ص ٤٧ ، ٤٨ بتصرف .
(٢) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ٥٥ .

جاء فيها : " لقد كان ماضي أمتنا ضحيَّة من ضحايا أعداء تلك الأمة ؛ فقلد افهموا ناشئتنا ، وعلَّموا معلمينا أننا كنَّا كمّاً مضيّعاً لا يأبه به الحاكمون ولا يحفلون بوجوده ، وهذا كذب صراح أودُّ أن أصححه في دار النيابة وفي يوم الدستور ، وأمام اللجنة التي ستضع لنا مشروع نظام أساسي يسمع فيه رأي البلاد بعد حين .

أود أن أعلن وبأعلى صوت أن أبناء مصر لم يكفُّوا عن العمل لاستكمال حقوقهم ورد العدوان عن دستورهم غير المكتوب دستور حرية الفرد ، وشرف العقيدة ، والتزام الحاكم لصالحهم ، فالغلاف الخارجي لحياة المصريين في القرنين الماضيين غلاف الاستسلام والإذعان والمهادنة ، غلاف خادع كاذب ، وَأنا باسم الأمة أزحه من مكانه ، بل باسمها أمزقه تمزيقاً ؛ ليتضح للعاملين صورة مصر الحرة على حقيقتها .

في نحو سنة ١٢٠٠ هـ وقبل أن يستتب الأمر لثورات أوربا الكبرى قامت مصر بإحدى ثوراتها بقيادة الشيخ الدرديري ثمَّ الشيخ السادات ، طالبت بما طالبت به أمم الغرب بعد ذلك من ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب ، وأن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم ، وألا تمتد يد ذي سلطان إلى أي فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع ، وقد كبر على الأمراء في ذلك الحين أن يذعنوا لشيء من هذا ، لكنهم لم يثبتوا حتى اضطروا إلى ذلك اضطراراً فكتبوا فيما بينهم وبين الشعب حجة وقَّعوا عليها وسجلها القاضي الشرعي ، وقد توافق رأي أكثر المؤرخين الفرنجة على أن هذه الحجة بمثابة وثيقة إعلان حقوق إنسان .. " (١)

وتفصيل هذه الثورة كما يرويها الجبرتي هي :

في سنة ١٢٠٩هـ حضر أهل بلبيس إلى الشيخ الشرقاوي وشكوا من محمد بك الألفي وذكروا أن أتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا منهم مالا قدرة لهم عليه واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع

(١) نقلاً عن عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " ص ٥٧ ، ٥٨ .

وذلك بعد ما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبديا شيئاً ففعل ذلك في ثاني يوم وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ .

بلغ براهم إبراهيم بك اجتماعهم فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها . فقال:لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات. فقيل: له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ .

فقال : حتى أبلغ وانصرف ولم يعد لهم بجواب وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد وأرسل إبراهيم بك إلى المشايخ يعضدهم ويقول لهم إنا معكم وهذه الأمور على غير خاطري ومرادي وأرسل إلى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك فبعث مراد بك يقول أجيبكم إلى جميع ما ذكرتموه إلا شيئين ديوان بولاق وطلبكم المنكسر من الجامكية (المنح السلطانية) ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم وندفع لكم جامكية سنة تاريخه أثلاثاً ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم فذهبوا إليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح على ما ذكر ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة .

وفي اليوم الثالث حضر الباشا إلى منزل إبراهيم بك واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير وكان المرسل إليهم رضوان كتخدا إبراهيم بك فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعي خلفهم ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح على أن

يدفعوا سبعمائة وخمسين كيساً موزعة وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ما عدا ديوان بولاق وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ويرسلوا صرة الحرمين والموائد المقررة من قديم الزمان ويسيروا في الناس سيرة حسنة وكان القاضي حاضر بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وأقر من عليها الباشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضا .

وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وإمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية وفرح الناس وظنوا صحته وفتحت الأسواق وسكن الحال . " (١)

وهذه الوثيقة التي انتزعها الشعب المصري من حكامه تعتبر وثيقة لحقوق الإنسان كأقدم ما تكون الوثائق أعلنها شعب مصر منذ أكثر من مائتي عام ليفهم الناس عن هذا الشعب غير ما يحاول المؤرخون أن يذيعوه في الناس .

وليدرك العالم أن مصر العظيمة صاحبة أول حضارة عرفها التاريخ هي مصر صاحبة أعظم ثورة شعبية سلمية ثورة ٢٥ يناير هي مصر الحريصة على العزة والكرامة وحقوق الإنسان .

***

---

(١)عبد الرحمن بن حسن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار " دار الجيل – بيروت ج ٢ ص ١٦٦– ١٦٨

الفصل الرابع

ثورات المصريين في العصر الحديث

الفصل الرابع

ثورات المصريين في العصر الحديث

لقد جنى موقع مصر الجغرافي المتميز ، وكثرت خيراتها – عليها فما من أمة من الأمم عندما تعظم قوتها ويشتد بأسها إلا وتطمع في غزو مصر لتجني خيراتها وتحوز شرف حكمها .

فقد طمع فيها قديماً : الهكسوس ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، وفي العصور الوسطى : العرب ، والصليبيون ، والعثمانيون ، وفي العصر الحديث : فرنسا ، وانجلترا .

مصر قُبَيْل الحملة الفرنسية

كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م جزءاً من التنافس الاستعماري بين انجلترا وفرنسا على المستعمرات ، ومصر هي واسطة العقد ، ودرة التاج بالنسبة لسائر المستعمرات .

كان المجتمع المصري قبل الحملة الفرنسية ينقسم إلى قسمين متمايزين أشد ما يكون التمايز ، وهما : الحكام ، والمحكومين .

الحكام من الأرستقراطية التركية والبكوات المماليك ، ولهم السلطة والنفوذ ، وعاشوا في عزلة اجتماعية عن سائر فئات المجتمع .

أما المحكومون المصريون فكان منهم : المشايخ والعلماء ، والتجار ويمثلون شريحة الطبقة الوسطى .

وفلاحون ، وصغار الحرفيين ، وعامة الناس وهم الغالبية فيمثلون الطبقة الدنيا أو البروليتاريا بحسب مصطلح كارل ماركس .

لقد مرت بمصر خلال تاريخها الطويل حروب ومنازعات وأحداث ضخام غير أن الحالة كانت أسوأ ما تكون في عهد الأتراك والمماليك .

كان الحكام منهمكون في حروبهم ، وأهل البلد مشغولون على مصيرهم وحياتهم، أهملت الزراعة فطغت الرمال على الوادي الخصيب ، وصار الحاكم عربيّاً كان أو تركياً أو مملوكاً لا دراية له بالزراعة ولا إدراك بأهميتها ، فتناقصت المساحات المزروعة ، وتزايدت الأرض البور ، وانتشر الفقر وتوابعه من المرض والانحلال واليأس ... لم تكن هناك عناية صحيَّة ، ولم يكن هناك علاج أو وقاية ، وحين هاجم الطاعون أرض مصر اجتاح الموت والوباء أرجاء البلاد ، ومات الناس بغير حساب ، وكان اختلال النظام واستبداد الحكام في أيام الأتراك والمماليك مساعداً على كل ذلك حيث قُدِّر السكان على عهد الحملة الفرنسية بمليوني نفس .

وكانت كل هذه الأحوال معروفة لدى الأوربيين عن طريق عيونهم والمستكشفين والمستشرقين ، بالإضافة إلى أن الاختراعات الحديثة لم تدخل البلاد المصرية ، فطمأن الأوربي إلى سهولة غزوها ، وإلى وجود سخط عام بين صفوف الشعب يمهده للوقوع فريسة للغزاة بغير مقاومة جدية . (١)

مصر العثمانية وفرنسا الأوربية

وبسبب العزلة التي فرضها العثمانيون على مصر ، وإغلاقهم المدارس ، وترحيلهم العلماء والصناع المهرة إلى الآستانة – انتشر الجهل ، وسادت الخرافات والشعوذة، ولم يبق من نور علم إلا البصيص في الأزهر الشريف ، مع إغلاق باب الاجتهاد في الدين .

(١) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ٦٢ ، ٦٣ .

لذا عند المواجهة بين الحملة الفرنسية ، والمقاومة المصرية ظهر الفارق الكبير بين ما وصلت إليه أوربا من تقدم ونهضة وديمقراطية ، وما انحدرت إليه مصر من تخلف ورجعية واستبداد .

فالمجتمع الفرنسي كان قد تقدّم بالإنتاج اقتصادياً ووصل إلى مرحلة من التنوير سياسيّاً من حيث الثورة على الحكم المطلق وإقامة الجمهورية ، وإعلان مبادئ الحرية والإخاء والمساواة لكافة المواطنين . أما المجتمع المصري الشرقي العثماني فكان لا يزال نظاماً عسكريّاً ، واقتصاديّاً راكداً بشكل عام وجد فيه الأجانب وسيلة سهلة للسيطرة . وبالمقارنة بين المجتمعين يلاحظ أن ميزان القوة المادية والتفوق الحضاري كان في صالح الغرب الفرنسي . (١)

والأحداث تؤكد مدى اتساع هذا الفارق بين مصر وفرنسا ذلك الفارق الذي سهّل استيلاء الحملة الفرنسية على مصر .

فعندما طلب نلسون قائد الأسطول الإنجليزي من محمد كريم حاكم الإسكندرية "أن يسمح له بالمرابطة في المياه المصرية في انتظار مقْدِم الأسطول الفرنسي الذي لا قِبَل للمصريين بمواجهته ... انتهر السيد محمد كريم في كبرياء وصلف رسل الأسطول الإنجليزي وطلب منهم أن يسرعوا بالابتعاد عن المياه المصرية وإلا أطلق عليهم المدافع فإن مصر أرض السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها من سبيل فاذهبوا عنها .

ولم تكن هذه المدافع التي هدد محمد كريم بإطلاقها إلا أربعة مدافع قديمة عفا عليها الزمن ولعله ليس هناك ما يكشف عن العزلة والجهل بأحوال الدنيا وما تطورت إليه أكثر من هذه العبارة من أن مصر أرض السلطان . لقد كان محمد كريم لا يزال يعيش في الوهم القديم من أن مجرد ذكر اسم السلطان من شأنه أن

---

(١) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٧٨ ، ٧٩ .

يخلع القلوب من الرعب ... وعندما جاء نابليون أبدى محمد كريم ومن معه بعض المقاومة لكن الأسلحة الحديثة حسمت قصة احتلال الإسكندرية . " (١)

الحملة الفرنسية ومقاومة المماليك

واصلت القوات الفرنسية زحفها ، بعد احتلالها مدينة الإسكندرية ، في طريقها إلى العاصمة فالتقت بقوات مراد بك بالقرب من شبراخيت في البحيرة (١٣ يوليه ١٧٩٨م) حيث هُزِم وتقهقر جنوباً للدفاع عن القاهرة ورابط عند إمبابة ، وهناك واجه المماليك الفرنسيين مرة أخرى حيث هزموا وفر مراد بك إلى الصعيد ، وهرب إبراهيم بك ومعه الوالي العثماني إلى الشام ، وبذلك خلت القاهرة من أية قوة للدفاع .

وبرغم خلو القاهرة من المقاومة ظلت القوات الفرنسية تحارب حرباً واسعة مترامية الأطراف من الجيزة شمالاً وحتى أسوان جنوباً ، ومن القصير شرقاً إلى واحات الصحراء الغربية دون أن تخضع البلاد خضوعاً تاماً ، وهكذا أخذت المقاومة في الصعيد شكل الشعور الوطني تجاه الأجانب الفرنجة ، وهو الشعور الذي أخذ يتعاظم ويتبلور فيما بعد عند مواجهة محاولة انجلترا دخول مصر فيما بعد عام ١٨٠٧ .

ثورة القاهرة الأولى (ثورة الرعاع)

خلال معارك القوات الفرنسية لإخضاع الصعيد اندلعت ثورة في القاهرة ضد الحكم الفرنسي ، وتتخلص أسبابها فيما يلي :

- فرض ضرائب فادحة وخاصة على التجار خلافاً لما وعد به نابليون من حيث إنصاف المصريين من ظلم المماليك .

- تفتيش البيوت ، واقتحام الدكاكين بحثاً عن الأموال .

---

(١) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " دار الشعب المجلد الثالث ص ٨٧٩

– هدم أبواب الحارات والدروب حتى يسهل اقتحام الحارات لمطاردة عناصر المقاومة .

– هدم كثير من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة .

على أن فرض الضرائب الكثيرة كان أكبر عوامل الثورة . (١)

وبهذا تكون الحملة الفرنسية قد انتهكت المحظورات الثلاثة : إهانة المقدسات الدينية، وإهدار الكرامة ، ونهب ثروات البلاد .

يقول الجبرتي عن هذه الثورة : " في يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا (أي الفرنسيون) الديوان واحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة (٢) والأوسط ستة والأدنى ثلاثة وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى وأما الوكائل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم وألصقوها بالمفارق والطرق وأرسلوا منها نسخاً للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى وشرعوا في الضبط والإحصاء وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها .

ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور ولم يتفكر انه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاء .

وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية وذعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام نصر الله دين الإسلام فذهبوا

---

(١) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٨٢ .
(٢) ثمانية فرنكات فرنسية .

إلى بيت قاضي العسكر وتجمعوا وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجّابَه فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر .

وفي ذلك الوقت حضر دبوى (حاكم مدينة القاهرة) بطائفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية وذهب إلى بيت القاضي فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وتلك الأخطاط بالخلائق مزحومة فبادروا إليه وضربوه وأثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه .

فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ومن كل حدب ينسلون ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القاهرة كباب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما حاذاها ولم يتعد جهة سواها وهدموا مساطب الحوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة لتعوق هجوم العدو في وقت المعركة ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس .

وأما الجهات البرانية والنواحي الفوقانية فلم يفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر ولم تزل طائفة المحاربين في الأزقة مُتَتَرِّسين .

فوصل جماعة من الفرنساوية وظهروا من ناحية المناخلية وبندقوا على متراس الشوائين وبه جماعة من مغاربة الفحامين فقاتلوهم حتى أجلوهم وعن المناخلية أزالوهم عند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال .

وخرجت العامة عن الحد وبالغوا في القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات

وأكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحل مستمرين . " (١)

والمتأمل فيما كتبه الجبرتي ، وهو شاهد عيان ، يلاحظ الآتي :

١- أن السبب الذي ثار من أجله الثوّار هو كثرة الضرائب وتنوعها .

٢- أن الثوّار لم يكن لهم قائد ، ومشايخ الأزهر الكبار لم يشتركوا في الثورة لا تخطيطاً ولا تنفيذاً ، وكل ما فعلوه أنه لم يجيبوا دعوة نابليون وماطلوه عندما دعاهم ليشاورهم فيما جرى من الثائرين .

٣- أن هذه الثورة لم تستهدف الجنود الفرنسيين فقط إنما امتدت لتشمل المسحيين، والمسلمين ، والأروام ، والشوام ، وهي بذلك تتشابه مع ثورة مصر الأولى على بيبي الثاني . لقد صورها الجبرتي على أنها ثورة رعاع وأنها داست كل القيم والأعراف ، ولم يمنعها من ارتكاب الفواحش والمنكرات دين ، ولا خلق كريم . وإن رددوا في صياحهم " نصر الله ودين الإسلام " .

٤- أن الجبرتي هاجم تلك الثورة ، ووصف أصحابها بالغوغاء الذين لا رئيس لهم يسوسهم وأنهم خرجوا عن الحد ، وأنهم أكثروا من المعايب ولم يفكروا في العواقب، وحتى المتعممين الذين وافقوا هؤلاء الغوغاء قال عنهم أنهم : " لم ينظروا في عواقب الأمور " .

لذا لا تأخذنا الحماسة في الدفاع عن أصحاب هذه الثورة ونهمل الجرائم التي ارتكبوها ونعتبر الرعاع الذين قاموا بها أبطالاً ، وقدوة لأبناء الأمة حتى لا تتكرر مثل تلك المآسي ، ويصبح المجرمون أبطالاً يحتفى بهم ، كما حدث مع الذين اقتحموا السفارة الإسرائيلية واستولوا على كثير من أوراقها ، وحاولوا تشويه صورة الثورة النقية بأفعالهم الإجرامية .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

فالثورة الحقيقية لها أصول وضوابط وإلا سوَّينا بين الثوَّار السلميين الشرفاء الذين قاموا بثورة ٢٥ يناير بالبلطجيَّة المسلحين المجرمين الذين روَّعوا الآمنين ، ونهبوا الدور والمحال ، وسرقوا السلاح ، وقتلوا الأبرياء ، واغتصبوا لفتيات والنساء أيام الثورة وبعدها !!

وهذا لا يعني السكوت على الظلم ، والرضا بالهوان ، والسكوت على العـدوان ، إنما أقصد أن العدوان لا يكون إلا على الظالمين لا على الأبرياء المسالمين كما قال تعالى : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ } (الأنفال:٦٠)

يقول الإمام الأكبر د. محمد سيد طنطاوي : " إن المقصود من إعداد العدة فـي الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا في الاعتداء على المسلمين ، وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين في ديارهم ، وحتـى يستطيعوا أن يبلغـوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحداً سواه – عـز وجـل – ولـيس المقصود بأعداد العدة إرهاب المسالمين ، أو العدوان علـى الآمنـين ، أو القهـر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله تعالى .

ولذلك وجدنا الآية صريحة في بيان المقصود من هذا الإعـداد ، وهـو – كمـا عبَّرت عنه { تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِـن دُونِهِـمْ لاَ تَعْلَمُـونَهُمُ اللهُ يعْلَمُهُمْ } .

وهناك آيات أخرى صريحة في بيان سبب مشروعيته القتال في الإسلام ومن ذلك قوله تعالى : { وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلاَ تعتـدوا إِنَّ الله لاَ يُحِـبُّ المعتدين } وقوله تعالى : { وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدين للَّهِ فَإِنِ انتهوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظالمين } .

والخلاصة : أن من تتبع آيات القرآن الواردة في القتال يجدها جميعها تقرر أن سبب القتال في الاسم ينحصر في رد العدوان ، وحماية الدعوة الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقدية ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان ." (١)

ولقد استغل الفرنسيون هذه الثورة وصبُّوا جام غضبهم على المصريين ولم يفرقوا بين مجرم وبريء ، ولا بين قصر وكوخ ولم يراعوا شرائع السماء ولا مبادئ الثورة الفرنسية : الإخاء والعدالة والمساواة .

يقول الجبرتي : " ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص بالجامع الأزهر وجروا عليه المدافع والقنبر وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا في عمرهم عاينوه نادوا يا سلام من هذه الآلام يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل .. وبعد هجعة من الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل ومروا في الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند إبليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا إلى الغورية وكروا ورجعوا وترددوا ما هجعوا وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا إرسالا ركباناً ورجالاً ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات .

وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها

---

(١) الإمام الأكبر الشيخ محمد سيد طنطاوي " التفسير والوسيط " ج١ ص ١٨٥٩ .

وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه وأصبح يوم الثلاثاء فأصطف منهم خرب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعاً ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي أفواجا واتخذوا السعي والطواف بها منهاجاً وأحاطوا بها إحاطة السوار ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون وللنجاة بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع . " (١)

لقد أبدت الأفعال التي ارتكبها الفرنسيون بأهل مصر روح الحروب الصليبية المتغلغلة في هؤلاء القوم الذين التي حاول التظاهر بمظهر التحضر والرقي ، وها هم يعيدون سيرة أسلافهم الذين انتهكوا حرمة المسجد الأقصى وحولوه إلى مربض لخيولهم بعدما نهبوه !!

{ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ } (آل عمران:١١٨)

ثورة القاهرة الثانية

أخمد الفرنسيون ثورة القاهرة الأولى بالقمع والإرهاب الشديد حيث دخلت القوات الفرنسية الجامع الأزهر بخيولهم فأهاج هذا التصرف الشعور الديني لدى المصريين، وامتدت ثورة القاهرة إلى الأقاليم المجاورة .

ويترك نابليون مصر والأخطار تهدد الحملة الفرنسية من كل جانب ، فالجيش في تناقص عدده بسبب المعارك والحروب الداخلية والخارجية ، والدولة العثمانية أرسلت حملة إلى العريش ودمياط ، والمماليك عادوا للمقاومة مرة أخرى ، وتجددت ثورة المصريين في الشرقية ، وامتدت إلى وسط الدلتا وغربها .

وانتهز المصريون في القاهرة فرصة متاعب الفرنسيين على ذلك النحو فقاموا بالثورة الثانية في مارس – أبريل ١٨٠٠م وهاجموا معسكرات الجيش الفرنسي

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٢ ص ٢٢٠، ٢٢١ .

وسرعان ما أخمدت القوات الفرنسية الثورة في القاهرة ، وبعض بلدان الوجه البحري ، أما الوجه القبلي فقد توصل الفرنسيون إلى إخضاعه بالاتفاق مع مراد بك لكي يحكم الصعيد تحت الحكم الفرنسي فقبل مراد بك حتى لا يعود الأتراك مرة أخرى لحكم مصر .(١)

وفي يوم ١٤ يونيه ١٨٠٠م قُتِل كليبر على يد سليمان الحلبي أحد طلاب الأزهر الشريف ، وتولى " مينو " أمور الحملة .

ويصف لنا الجبرتي كيفية قتل سليمان الحلبي لكليبر فيقول : " وفي ذلك اليوم أعني يوم السبت وقعت نادرة عجيبة وهو أن سارى عسكر كليبر كان مع كبير المهندسين يسيران بداخل البستان الذي بداره بالأزبكية فدخل عليه شخص حلبي وقصده فأشار إليه بالرجوع وقال له ما فيش وكررها فلم يرجع وأوهمه أن له حاجة وهو مضطر في قضائها .

فلما دنا منه مد إليه يده اليسار كأنه يريد تقبيل يده فمد إليه الآخر يده فقبض عليه وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى أربع ضربات متوالية فشق بطنه وسقط إلى الأرض صارخاً فصاح رفيقه المهندس فذهب إليه وضربه أيضاً ضربات وهرب .. ولم يزالوا يفتشون على ذلك القاتل حتى وجدوه منزوياً في البستان المجاور لبيت سارى عسكر المعروف بغيط مصباح بجانب حائط منهدم فقبضوا عليه فوجدوه شامياً فاحضروه وسألوه عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه حلبيّاً واسمه سليمان . " (٢)

استغلّت انجلترا حالة الاضطراب التي عمت الحملة ، وحالة الضعف التي نزلت بهم بعد مقتل كليبر فأرسلت أسطولاً جديداً إلى أبي قير (فبراير ١٨٠١م) وانضم إليه الجيش العثماني ، ولم تستطع القوات الفرنسية المقاومة حيث استسلمت أمام القوات الإنجليزية العثمانية التي دخلت مصر ومعها زعماء المماليك : إبراهيم بك ،

---

(١) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٨٣ .
(٢) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٢ ص ٣٥٨ .

والبرديسي ، والألفي ، وأيضاً السيد عمر مكرم ، وغادرت الحملة مصر في ١٨ سبتمبر ١٨٠١ م . (١)

مصر تختار حاكمها

بعد خروج الفرنسيين من مصر حدث تنازع بين ثلاث قوى هي : الدولة العثمانية، والإنجليز ، والمماليك ، وكانت هذه القوى الثلاث قد اتحدت من قبل ضد الفرنسيين ، لكن بعد خروج الفرنسيين أصبحت كل منها تتطلع إلى الانفراد بالحكم.

ولم يكن أي من هذه القوى يحسب حساباً للقوى الوطنية التي تبلوت أثناء الحملة الفرنسية وقامت بدور بارز في مقاومتها ، وقد اتسعت خبراتها بالدخول في تجارب الحكم والسياسة مع الفرنسيين والإطلاع على المعارف الجديدة ، ولقد أسهمت كل هذه الحوادث في بروز شخصيات معينة من العلماء والأشراف والتجار من أمثال : السيد عمر مكرم (نقيب الأشراف) والسيد محمد السادات (من قيادات الطرق الصوفية) والشيخ عبد الله الشرقاوي (من العلماء) ، والشيخ محمد المهدي (من العلماء) ، والسيد (.أحمد المحروقي (من كبار التجار) ، والذي حدث أن هذه القوة هي التي ساعدت أساساً في التخلص من الفرنسيين والمماليك والإنجليز . وتعيين محمد علي حاكماً على مصر ، وكان قد جاء مع الحملة العثمانية التي قدمت لمصر سنة ١٨٠١ م لإجلاء الفرنسيين . (٢)

وقصة تولي محمد على حكم مصر تبدأ بعد خروج الحملة الفرنسية وتعرض مصر لكثير من الاضطراب والصراعات وتعدد الولاة من قبل السلطان العثماني الذين كان آخرهم خورشيد باشا .

اندلعت ثورة شعبية، قادها "مجلس الشرع" -المكوَّن من علماء الأزهر- سنة ١٨٠٥م، ضد الوالي التركي" خورشيد باشا"، وخلعته عن حكم البلاد، رغم أنه

---

(١) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٨٣ .
(٢) نفسه ص ٩٠ ، ٩١ .

مولّى من قِبل السلطان ..ويومئذ أعلن السيد عمر مكرم باسم "مجلس الشرع" أن الأمّة هي مصدر السلطات، وقال: "إن أولي الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، ولقد جرت العادة من قديم الزمان، أن أهل البلد يعزلون الولاة، حتى الخليفة والسلطان، إذا ساروا فيها بالجور، فإن أهل البلد يعزلونه ويخلعونه."..

ولقد اختار "مجلس الشرع" -باسم أهل البلاد- محمد علي باشا واليًا على مصر، ونزل السلطان العثماني على إرادة أهل البلاد. (١)

واختيار مجلس الشرع محمد علي والياً على مصر حدث له ما بعده فهذه أول مرة في تاريخ مصر الحديث يُعزل فيها الوالي بإرادة الشعب ، ويعين آخر بإرادة الشعب ، وأن يكون اختياره بمعرفة زعماء الشعب .

كذلك أول مرة توضع شروط للولاية فقد أخذ زعماء الشعب من العلماء على محمد علي العهود والمواثيق التي تمثلت في :

١- أن يسير فيهم بالعدل .

٢- ألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم . (٢)

وفي ذلك يقول الجبرتي : " ركب الجميع وذهبوا إلى محمد علي وقالوا : له إنا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولابد من عزله من الولاية .

فقال : ومن تريدونه يكون والياً .

قالوا له : لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير .

فامتنع أولاً ثم رضي ، واحضروا له كركاً وعليه قفطان وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه له وذلك وقت العصر ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة . (٣)

---

(١) د. محمد عمارة " ثورات مصر الشعبية " موقع الإسلام اليوم .
(٢) د. عطية القوصي وآخرون " تاريخ مصر الحديث " مرجع سابق ص ٩٣ ، ٩٤ .
(٣) عبد الرحمن الجبرتي " تاريخ عجائب الآثار " مرجع سابق ج ٣ ص ٦٢ ، ٦٣ .

ولكن الوالي المخلوع رفض أن ينزل عن منصبه حتى يأتيه أمر من السلطان فقاد عمر مكرم المقاومة المسلحة حتى صدر فرمان السلطان بخلعه وتولية محمد علي .

حملة فريزر

بعد خروج الفرنسيين من مصر، كان الإنجليز يحلمون بتولية محمد بك الألفي صنيعهم علي مصر ليضمنوا بذلك سيطرتهم علي مصر التي تمثل طريق التجارة إلي مستعمراتهم في الهند.

أصيبت إنجلترا بالصدمة عندما علمت بتولية زعماء الشعب محمد علي وموافقة السلطان العثماني ، لأنها تعرف أن محمد علي ليس بالشخصية السهلة التي تكون أداة طيعة في يد إنجلترا. لذلك حاولت إنجلترا إقناع السلطان العثماني بخلع محمد علي وإسناد الولاية لمحمد الألفي أو أي والٍ آخر .

واستجاب السلطان العثماني وأصدر فرماناً بتعيين محمد علي والياً علي سالونيك. فأسرع محمد علي بالاتصال بعمر مكرم واتفقا علي رفض فرمان السلطان والترتيب لمقاومة السلطان والمماليك معاً. وهنا اضطر السلطان العثماني إلي الرجوع عن فرمانه لأنه كان يخشي أن الثورة الشعبية تفقده مصر فيسيطر عليها المماليك والإنجليز معاً .

وعندما وجدت إنجلترا عدم نجاح الأساليب الدبلوماسية مع السلطان العثماني، انتهزت فرصة تدهور علاقتها معه بسبب انحيازه لفرنسا، واتفقت مع روسيا علي ضرب الإمبراطورية العثمانية في مصر. ومن هنا وجهت حملة عسكرية في مارس ١٨٠٧ م لاحتلال مصر وخلع محمد علي وتنصيب محمد بك الألفي وهي الحملة المعروفة بحملة فريزر .

نزلت الحملة إلي الإسكندرية في مارس ١٨٠٧ م، وكان محافظ الإسكندرية حينئذ أمين أغا، وهو من ضباط الأستانة وكان متواطئاً مع الانجليز أن يسلم لهم

المدينة على رشوة من المال، وفي مساء ذلك اليوم أخذ جنود الحملة ينزلون إلـــى البر بشاطئ العجمي، ثم زحف الإنجليز إلى الإسكندرية وعسكروا تحت أسوارها، وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة أبو قير شرق الإسكندرية، وانقضى يومان فـــي مفاوضات صورية بينهم وبين أمين أغا محافظ المدينة انتهت بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه حامية المدينة وعددها نحو ثلاثمائة مقاتل، ودخل الإنجليز الإسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أن تطلق رصاصة واحدة !

معركة رشيد

وبعد أن استولى الإنجليز على الإسكندرية بالخيانة زحفوا على رشيد وقد امتلأت نفوسهم ثقة في سهولة احتلال مصر ؛ فمحمد علي يحارب المماليك في الصـــعيد ، والمصريون لن يستطيعوا أن يصمدوا طويلاً أمام جيوش إنجلترا الحديثة المدربة .

وكان الجنرال فريزر بالإسكندرية قد تلقي تقريراً من قنصل إنجلترا في رشيد عن حالة مصر وما بها من قوات مما جعله يزحف براً إلى رشيد لاحتلالها واتخاذهـــا قاعدة حربية لقواته، وكلف القائد ويكوب بهذه المهمة العسكرية، وكان معـــه ألـــف جندي، تحركوا من الإسكندرية إلى رشيد .

لكن الإنجليز خاب ظنهم فقد كانت تنتظرهم مفاجأة غير سارة في رشيد اعدها لهم

محافظها علي بك السلانكي الذي عقد العزم هو وقواته التي تبلغ ٧٠٠ جندي فقط على مقاومة الإنجليز. كما استنفر الشيخ حسن كيريت الأهالي للمقاومة الشـــعبية، وكانت خطة المقاومة تتلخص في تواري الأهالي بالمنازل داخل مدينة رشيد، وترك الإنجليز يتوغلون داخل المدينة دون مقاومة حتى إذا ما تفرق جنود الإنجليز فـــي شوارع المدينة ودروبها صدر الأمر بالتحرك وإطلاق النار عليهم .

فتقدم الإنجليز ولم يجدوا أي مقاومة، فاعتقدوا أن المدينة ستستسلم كمـــا فعلـــت حامية الإسكندرية، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين، وأخذوا يستريحون بعد الســـير في الرمال من الإسكندرية إلى رشيد، وانتشروا في شـــوارع المدينـــة والأســـواق

للعثور على أماكن يلجئون إليها ويستريحون فيها. وما كادوا يستريحون حتى انطلق نداء الآذان بأمر السلانكي من فوق مئذنة سيدي زغلول مردداً : الله أكبر ، حي على الجهاد، فانهالت النيران من الأهالي وأفراد حامية رشيد من نوافذ المنازل وأسطحها، فقتل جنود وضباط من الحملة وهرب من بقي حيّاً وبلغ عدد قتلي الإنجليز ١٧٠ قتيلاً و ٢٥٠ جريحاً و ١٢٠ أسيراً . (١)

هذه هي مصر الأبية مصر المؤمنة المحبة لوطنها الحريصة على فدائه المستجيبة لنداء ربها " حي على الجهاد " ولم تكن رشيد وحدها هي التي وقفت هذا الموقف البطولي إنما شاركتها شرف الجهاد مدينة حماد والبحيرة والقاهرة .

فبعد هزيمة الإنجليز في رشيد وعجزهم عن احتلالها هاجموا مدينة حمَّاد لعل حظهم يكون أحسن ، ولكنها لقيت هزيمة كبيرة علي يد المتطوعين من رشيد والحماد والبحيرة والقاهرة . مما اضطر الإنجليز إلى التقهقر إلى الإسكندرية للاحتماء بها .

وفي تلك الأثناء عاد محمد علي من الصعيد وزحف إلي الإسكندرية لإخراج الإنجليز وضرب حصار حول المدينة فلم يجد فريزر مفراً من طلب الصلح والجلاء مقابل الإفراج عن الأسري، فوافق محمد علي ودخل الإسكندرية منتصراً .

وكان انتصار محمد علي على الإنجليز سبباً في رضاء الباب العالي علي محمد علي، مما وطد سلطانه في مصر .

وهكذا أحبط أهالي رشيد وحماد والقاهرة المشروع البريطاني لاحتلال مصر .

الثورة في عهد محمد علي

رغم أن شعب مصر هو الذي عين محمد على والياً عليهم ، وأعانوه على التخلص من مقاومة السلطان العثماني ، ودفعوا له ما أراد من المال ليدفع للجند المتمرد أجره وجرايته ، وأخذوا عليه المواثيق ، كما بينا ، وأنهم وقفوا معه موقفاً

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة في العصر الحديث " مرجع سابق ص ٢٦٧ ، ٢٦٨

بطوليًا في صد حملة فريزر وإجلائها إلا أن محمد على نَكَصَ على عَقِبَيْهِ ونقض ميثاقه مع قادة الشعب وتنكر لفضلهم عليه ، بل راح يتخلص من قادة الشعب واحداً تلو الآخر ثم كبت الحريات وأوقف النقد ، واستبد بحكم مصر .

وحرصاً من محمد علي على استتباب حكم مصر له فإنه لم يشرك المصريين في جيشه خوفاً من ثورتهم عليه ، فعلى الرغم من الانتصارات التي سجلها أبناء الفلاحين بأيديهم ودمائهم إلا أن محمد علي كان يحد من مناصبهم ، وكان يظنها مخاطرة منه أن يكون من أبناء الفلاحين قوّاداً أو ضباطاً عظام قد تكون لهم في حكم البلاد آراء. (١)

ومع حرص محمد علي بإبعاد المصريين عن الجيش إلا أنه حدث ضده تمرد قاده الضابط المصري لطيف باشا الذي كانت ولزملائه من الضباط المصريين مطالبهم، فانتهزوا فرصة وجود محمد على في بلاد الحجاز وأحدثوا لوناً من التمرد والاحتجاج الذي عاد محمد علي للقضاء عليه ، وكان مركزه من الحرج بحيث استدعى ابنه طوسون من البلاد الوهابية فعاد مسرعاً لمعاونته تاركاً أمر النصر ضد الجيوش الوهابية تحت رحمة القدر ، وفي هذا دليل على خطورة موقف محمد علي في مصر ، وعلى أهمية هذا التمرد الذي يقوده ضابط مصري له مركزه المعروف في الجيش . (٢)

محمد علي ونظرية المستبد العادل

ورغم أن محمد علي يعد رائد النهضة المصرية الحديثة وأنه نقل مصر من غياهب العصور الوسطى التي كان العثمانيون يفرضونها على الشعب المصري إلى نهضة العصر الحديث التي كانت تعيشها أوروبا ، إلا أن هذا لا يمنع أن نذكر أنه كان ديكتاتوراً مستبداً حرم مصر الحريات وسار في المصريين سير الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق .

(١) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ١٣٤ .
(٢) نفسه ص ١٣٥ .

نقول هذا لأن بعض الناس يقولون لا يُصلِح أمر مصر إلا دكتاتور عادل ، والحقيقة أن الحاكم إن كان عادلاً فإنه لن يكون ديكتاتوراً ، فالعدل والاستبداد لا يجتمعان في شخصية واحدة ، وإلا جار أحدهما على الآخر .

ولنا أن نقرر مطمئنين منذ البدء أن نابليون بحملته قد أيقظ البلاد المصرية ، كما أيقظ ألمانيا وإيطاليا وغيرهما من دول أوربا .

وكان من الطبيعي أن ينهض الشعب المصري ليساير غيره من الشعوب وقد نهضت الأمة المصرية بالفعل فسبقت دول شرق أوربا جميعاً .

وحين هزمت الدولة لم يستطع الشعب المقهور والمُقْصَى عن المشاركة في الحكم أن يقيمها بالسرعة اللازمة ، فمن المهم أن تنهض بالبلاد لكن الأهم أن تنهض بالإنسان سكان هذه البلاد لأن النهضة التي تقوم على رجل تسقط بسقوطه أما النهضة التي تقوم على شعب حر مشارك فلن تسقط بسقوط أي فرد من أفرادها مهما كان مركزه .

تقييم تجربة محمد علي في الحكم

صحيح أن محمد علي بنى جيشاً مقتدراً ، ولكن جيشه وحده لا يكفي ، صحيح أنه أوجد مصر الحديثة ، ولكنه لم يحسن توجيه الحيوية الكامنة في هذا الشعب العريق. لنا أن نقرر محاسن هؤلاء الناس ، ولكن علينا ألا نغفل الأخطاء الكبرى التي هددت كياننا .

ولقد وضع محمد علي زمام الوطن في يده ، كان في يده الجند والعتاد ؛ فبدده في سبيل مطامع خيالية مجنحة ، وجمع في يده أراضي الفلاحين ؛ فلجئوا إلى العصيان المدني فأضربوا عن الزراعة ، وتكاسلوا عن بذل أي مجهود تذهب ثماره لطائفة معينة هم عائلة محمد علي ومن حولهم من العصابات الشركسية والتركية .

ولو أن محمد علي التفت إلى الشعب المصري وقوّاه ، ووفّر له القوت والرفاهية واكتفى بالتعمير والتمدن لكان اسمه في الخالدين ، لكنه بدد القوى ، وبعثر الجيش ،

وضحَّى بالحرية وبالحياة في غير هدف وفي غير اتزان ؛ فأفقد بلادنا ذخيرة ضخمة من المال وذخيرة ضخمة من الرجال ، وذخيرة ضخمة من النفوس الحرية الأبية ، أذلها أشنع إذلال .

لقد أفسد محمد علي رسالة التمدن لأنه أفقد البلاد كثيراً من الجهد والمال بغير هدف واضح ، وبغير نتيجة سوى هذا الجانب المظهري من تكوينه لدولة ذات مظهر عسكري برَّاق ، وسوى هذا التاريخ الذي يُروى فيبث الحمية في النفوس المليئة العاطفة والحماس . (١)

إرهاصات الثورة العرابية

استمرت نهضة محمد علي واستبداده طوال مدة حكمه فلما مات توقفت النهضة واستمر الاستبداد لقد مهَّد محمد علي لقيام الحكم الخديوي المطلق ، وفي ركابه نظام إقطاعي يرتكز على أخلاط غير مصرية من : أتراك ، وشركس ، وأرمن ، وأوربيين ، وبقايا المماليك . واحتكر الجميع مغانم الحكم والمراكز المهمة في الدولة وقامت بينهم روابط من التساند لمواجهة الشعب الذي رزح تحت ظلم أسرة محمد علي دهوراً طويلة ، ومالبث أن زاد من إثقال كاهله عبء أتت هذه المرة من أوربا التي تأثرت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر بالانقلاب الصناعي ، وما جرَّه من رأسمالية واستعمار ، فقد تدفق على البلاد الرأسماليون ورجال الشركات ، كما تدفقت عليها الجاليات الأوربية على اختلاف أجناسها ، وتولدت فيها مصالح ومشروعات أوربية متنوعة ساندتها الحكومات الأوربية ، ولم يفعل الولاة من أسرة محمد علي شيئاً جديّاً لدفع أخطارها ، بل على الضد نجدهم يمهدون لها سبيل التغلغل بضعفهم وترددهم وميلهم السطحي إلى الغرب والحضارة الغربية . وناهيك بقصة حفر قناة السويس والديون وغير ذلك مما دلَّ على أن الأوربيين جميعاً قد عمدوا إلى إقامة مصالحهم في البلاد على أشلاء شعبها وميزانيتها في

---

(١) عبد الهادي مسعود " الثورات في الشرق " مرجع سابق ص ١٦٩- ١٧١ بتصرف .

الوقت الذي تميز فيه أولاد محمد علي بالإسراف والبعد عن الاهتمام بمصالح الشعب الحقيقية . (١)

وبلغ فساد الحكم المدى في عهد الخديو توفيق ، الذي حرم المصريين التدخل في إدارة شئون بلادهم في المقابل سمح للأجناب بهذا التدخل مما أثار مشاعر الكراهية ضد الأجانب والخديو معاً ومن ثمَّ الاحتجاج على التدخل الأجنبي.

كانت بذور الوطنية المصرية بمعناها الحديث قد ألقيت في عصر محمد علي حين وضعت نواة الجيش الأهلي ، وتشكل التعليم الوطني ، وبدأت نبرز الدواوين والإدارات الجديدة ، وتقوم المالية الإنشائية والوزارات المختلفة ، فالجيش المصري هو الذي أثار في المصريين شيئاً من الأنفة والنظام ، وطبقة الموظفين الوطنيين ، وطائفة الملاك الزراعيين المحليين هما اللتان احتضنتا مصالح أهلية انفردت بأوضاعها الخاصة ، وقامت بذاتها لتساهم في خلق مجتمع جديد يقوم على العنصر المصرية في مواجهة الطبقات الأجنبية الممتازة ، وإدخال التعليم الحديث وإرسال البعثات واستقدام الأوربيين وترجمة الكتب وفك طلاسم اللغة الهيروغليفية ، وكشف معالم تاريخ البلاد القديم ونشر ما كتبه الأوربيون عن مصر والمصريين كل ذلك ساعد على خلق وعي يربط بين المصريين وبلادهم . (٢)

ولقد حمل لواء المعارضة صفوة من أعيان المصريين من كبار ملاك الأراضي الزراعية ، ومن المتعلمين ، وانضم إليهم العسكريون ، وكان نفوذ هؤلاء الأعيان قد تعاظم أواخر أيام الخديو إسماعيل من خلال عضويتهم في مجلس شورى النواب الذي سمح به إسماعيل (١٨٦٦م) ، ولقد رحَّب إسماعيل بذلك ليستعين بالأعيان في مواجهة الضغط السياسي الأنجلو- فرنسي وموازنة نفوذ العنصر التركي الشركسي ومن ناحية أخرى لم عد هؤلاء الأعيان طبقة ريفية فقط إذ انتقل عدد

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٢٧٨ .
(٢) نفسه ص ٢٧٩، ٢٨٠ .

كبير منهم إلى المدينة ، وشارك في الحياة العامة ، ودخلوا تدريجياً في دائرة العمل السياسي المباشر .

لقد تسببت الأزمة المالية (التي تسبب فيها إسماعيل بإسرافه وبذخه) والواقع السياسي في تذمر أعيان المصريين بشكل عام على نظام الحكم ، وأبدوا اعتراضهم على سياسة رياض باشا رئيس الوزراء الذي كان يعارض في إقامة حياة نيابية ، وينحاز للنفوذ الأوربي ، ويضطهد الوطنيين ، ويعطل الصحف التي تنتقد تصرفات الحكومة ، وأدرك المثقفون أن الإصلاح يأتي بتطبيق الدستور الذي سبق أن وضعه شريف باشا في أواخر حكم إسماعيل (دستور ١٨٧٩ م) وإنشاء مجلس النواب.

كانت مظاهر التذمر على الأوضاع الفاسدة في مصر أوضح ما يكون بين ضباط الجيش المصريين لأسباب تتعلق بسوء معاملة رؤسائهم الأتراك لهم .

وبرز من بين ضباط الجيش ضابط من صميم الشعب المصري وهو أحمد عرابي الذي ما لبث أن مد يده إلى الفئات الوطنية التي سيطر عليها السخط وأخذ يجمع التوقيعات لعريضة شاملة تهدف إلى زيادة عدد الجيش ، وإعادة الحياة النيابية وإسقاط وزارة رياض باشا ، ووجدت العريضة صدى واسعاً لدى طوائف المصريين جميعاً ؛ فإن سخط الجيش كان يلتقي في البلاد والسخط العام الذي غمرها بشتى طبقاتها ، مما ترتب عليه أن اتسعت الهوّة بين المصريين والأجانب من كل لون .

عرابي يقود الثورة على الخديو توفيق

سرت الشائعات بأن الخديو قد استصدر فتوى من شيخ الإسلام تدين زعماء الضباط بالخيانة العظمى ، وحينئذ اتصل عرابي بالعلماء والأعيان وزعماء البدو الذين خولّوه التكلم باسم الأمة ، ووعدوا أن يؤازروه في المظاهرات الوطنية التي أزمع القيام بها في ٩ سبتمبر ١٨٨١ م لتقديم العريضة الوطنية إلى الخديو .

وكانت مظاهرة شعبية رائعة ساند فيها الشعب الجيش وأصبحا يداً واحـدة فقـد امتلأت القاهرة بوفود الأقاليم التي جاءت لنصرة عرابي ، وفشل الخديو في ضم أي فرقة من فرق الجيش إلى صفه ، بل إن حرسه الخاص انضم لعرابي .

ويقف التاريخ ليرى أحمد عرابي يتقدم على حصانه الأبيض إلى " أفندينا " شاهراً سيفه ووراءه حرس شاكين السلاح .

ويسأله الخديو عن سبب مجيئه ويخبره بأنه جاء ليعرض مطالب الشعب والجيش .

التي تمثلت في :

١- عزل رياض باشا رئيس الوزراء .

٢- تشكيل مجلس النواب .

٣- زيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندي .

فقال الخديوي : كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.[1]

إلا أن عرابي قال : لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثا أو عقار فوالله الـذي لا إله إلا هو لن نورث ولن نستعبد بعد اليوم .

وأمام إصرار أحمد عرابي على هذه المطالب اضطر الخـديو إلـى الاسـتجابة لمطالب الأمة، وعزل رياض باشا من رئاسة الوزارة، وعهد إلـى شـريف باشـا بتشكيل الوزارة، وكان رجلا كريمًا مشهودًا له بالوطنية والاستقامة، فألف وزارتـه في (١٩ ١٤ سبتمبر ١٨٨١م)،وكان محمود سامي البارودى وزيراً للحربية بهـا، وسعى لوضع دستور للبلاد، ونجح في الانتهاء منه وعرضه على مجلس النـواب الذي أقر معظم مواده، ثم عصف بهذا الجهد تدخل إنجلترا وفرنسا في شئون البلاد بإرسال المذكرة المشتركة الأولى في ٧ يناير ١٨٨٢ والتي أعلنتا فيهـا مسـاندتهم للخديو، وتأزمت الأمور، وتقدم" شريف باشا" باستقالته في (٢ فبرايـر ١٨٨٢ م) بسبب قبول الخديو تلك المذكرة .

وتشكلت حكومة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي، وشغل عرابي فيها منصب وزير الحربية، وقوبلت وزارة البارودي بالارتياح والقبول من مختلف الدوائر العسكرية والمدنية؛ لأنها كانت تحقيقًا لرغبة الأمة، ومعقد الآمال، وكانت عند حسن الظن، فأعلنت الدستور، وصدر المرسوم الخديوي به في (٧ فبراير ١٨٨٢ م). وسميت هذه الوزارة باسم وزارة الثورة لأنها حققت رضا الشعب والجيش كليهما ، غير أن الأمور في البلاد ازدادت سوءًا بعد حدوث مذبحة الإسكندرية .

مذبحة الإسكندرية

وكان سبب مذبحة الإسكندرية قيام أحد رعايا بريطانيا بقتل أحد المصريين فاستغلت إنجلترا الفرصة، فشب نزاع تطور إلى قتال سقط خلاله العشرات من الطرفين قتلى وجرحى .

وقد أجمع شهود العيان من الأجانب على أن هذه المؤامرة كانت مدبرة ، وأن الغاية منها إثبات أن الحال في مصر قد غدت اخطر من أن يسكت عليها ، وكان هدف بريطانيا من خلق هذه الحال الخطيرة أن تنفرد بالعمل في مصر بدعوى إعادة الأمن في البلاد ؛ فقد أرسلت إلى الدول غداة وصول أسطولها إلى مياه الإسكندرية " إن الحكومة البريطانية لم تفكر قط في أن تنزل إلى البر جنوداً ولا أن تحتل البلاد عسكرياً ، وفي عزم حكومة جلالة الملكة متى أعيدت السكينة إلى مصر وزال الخوف على مستقبلها أن تترك مصر وشانها وتسحب سفنها الحربية "

ولكن بريطانيا لم تسحب سفنها ، ولم تترك مصر وشأنها ، بل أنذرت السلطات المصرية في العاشر من يوليه بأن الأسطول البريطاني سيبدأ ضرب الإسكندرية إذا لم تسلم قلاعها . (١)

في أعقاب مذبحة الإسكندرية تعهّد عرابي أمام الخديو وفي حضور الأجانب عن مسئوليته في حفظ النظام في مصر ، لكن عرابي يشكو من التهديد المستمر نتيجة

---

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣١٣ .

مرابطة الأسطول الإنجليزي أمام سواحل الإسكندرية ، وتسود البلاد اضطرابات عدة ، ويشكل الخديو وزارة ائتلافية جديدة برئاسة راغب باشا يتولى فيها عرابي منصب ناظر الجهادية أيضاً . ويبدو أن الإنجليز قد وجدوا أن الموعد قد حان لتنفيذ مآربهم ، ففي نفس اليوم وهو الحادي عشر من يوليو ١٨٨٢ انسحب الأسطول الفرنسي من ميناء الإسكندرية بناء على تعليمات من حكومته وفي نفس الوقت بدأ الأسطول الإنجليزي في قصف المدينة وشرع في احتلالها . (١)

يقول عرابي في مذكراته عن احتلال الأسطول الإنجليزي الإسكندرية : " انصبَّت نيران المدافع – الإنجليزية – على القلاع والحصون والترسانة وسراي رأس التين وبالجملة على جميع أرجاء المدينة ولم تجاوبها مدافع القلاع – المصرية – إلا بعد أن أطلق الأسطول – الإنجليزي – نحو ٢٠ طلقة من مدافعه ، ثم استمر القتال بين الأساطيل الإنجليزية وقلاع الإسكندرية بعد ذلك إلى منتصف النهار ثم أخذت الاستحكامات في التناقص والاضمحلال حتى تم تدميرها قبل الغروب . وحيث كانت استحكامات الإسكندرية قديمة كما هو معلوم وجميعها يبنى بالحجارة من مدة ٦٧ سنة أو ٧٠ سنة وقد باغتنا الإنجليز بالعدوان على غير استعداد منا وتأهب فقد كان تأثير شظايا الأحجار المتناثرة وضررها أكثر من تأثير مقذوفات العدو نفسها . ولم يكن بالإسكندرية من حاميات الحصون غير ٧٠٠ رجل فقط من رجال المدافع ... وكانت قذائف المدافع القديمة لا تصل إلى المراكب الإنجليزية ومدافع أرمسترونج – المصرية– لم يكن لها مساطر تعرف بها المسافات وحكم الإصابة بواسطتها " (٢)

ورغم سوء استحكامات الإسكندرية وضعف حامياتها وقدم المدافع في مقابل قوة الأسطول الإنجليزي إلا أن أهالي الإسكندرية وقفوا وقفة الأبطال في الدفاع عن مدينتهم .

---

(١) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٢٢٢ .
(٢) نقلاً عن أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " مرجع سابق ج٢ ص ١٠٩٨

يقول احمد عرابي في مذكراته : " وفي أثناء القتال تطوّع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية ، وإعطائهم الماء ، وحمل الجرحى ، وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات . " (١)

معركة كفر الدوار

احتل الإنجليز الإسكندرية بعد أن أخلاها الجيش المصري وانسحب إلى موقع في كفر الدوار ، وكانت مناعة هذا الموقع راجعة إلى أنه يحيط به من الجانبين أراض لا تصلح لسير الجنود وزحف الجيوش لأنها مستنقعات أو بحيرات ضحلة لذلك أستطاع المصريون أن يصدوا هجمات الإنجليز عليه نحو خمسة أسابيع ، ولم يكتفوا بصد الهجمات عليهم بل إنهم تعقبوا الجيش البريطاني المنهزم حتى أبواب الإسكندرية .

وهذا يدعونا إلى الحديث عن موقف الشعب : أغنيائه وفقرائه في هذه المرحلة من مراحل الغزو الأجنبي . وقد يكون من الخير أن ندع الشيخ محمد عبده يروي الدور الشعبي العظيم وهو أحد أقطاب الثورة العرابية .

يقول محمد عبده : " هل يقدر أحد أن يشك في كون جهادنا وطنيّاً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ؛ فكان يتألب المسلمون والأقباط ، اليهود لنجدته بحماس غريب وبكل ما أتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز .. ولقد تبرّع الأحرار والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية حتى النساء بالخيل والحبوب والنقود والميرة (الطعام) اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتبة غيرة وحميّة في جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعة ولسائر الأشغال العسكرية .

ولقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين إلى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الإنجليز ، وقد شمل هذا الحماس الأقباط ، وكان يشجعهم على ذلك

---

(١) نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣٢٢ .

رؤساؤهم . وفي أي اجتماع ذكرت فيه الحرب كان النـاس يـدعون الله طـالبين النصر لجيوشنا . " (١)

ومن كتابات شهود العيان للثورة العربية يتضح لنا جليّـاً أن الشـعب المصـري أصبح نسيجاً واحداً ، فالمصريون جميعاً على اختلاف ديانتهم (إسلامية ، مسيحية، يهودية) وطبقاتهم (فلاحين ، وعمال ، وعلماء دين ، وأعيان ، وتجار ، وحرفيين) وبيئاتهم (قرى ، ومدن ، وبدو) وثقافتهم (أميون ، وخريجو مـدارس مدنيـة ، ومعاهد دينية ، وكتاتيب) الكل مواطنون ، والكل حريصون على مصلحة الوطن ، والكل يد واحدة على أعداء الوطن الكل على قلب رجل واحد لا تمييز بيـنهم فـي الجهاد في سبيل حرية مصر وكرامتها .

هذا شعب مصر الحقيقي الذي يظهر معدنه الأصيل في الكروب والمحن وسوف يتكرر هذه المشهد في كل ثورات مصر الكبرى بعد ذلك في ثـورة ١٩ ، وثـورة يوليو ٥٢، وثورة ٢٥ يناير .

يقول احمد عرابي في مذكراته : " قامت هذه الحرب الشعواء وليس في خزانـة الحكومة درهم لأن المراقب الإنجليزي المستر كلفن أخذ الأموال من خزينة المالية، وأنزلها في السفن الإنجليزية قبل إعلان الحرب بأيام ، وكذلك الأموال التـي فـي صندوق الدين العمومي ، وقد حملها أعضاء قومسيون الصـندوق إلـى المراكـب الحربية حيث أمنوا عليها .

وبناء على ذلك تحرر من المجلس العام إلى المديريات لتحصيل الأمـوال مـن الأهالي عن كل فدان عشرة قروش ، ومن شاء أن يتبرع بشيء إعانـة لإخوانـه المجاهدين في سبيل المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبـل منـه مـع إعلان الشكر .

---

(١) نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣٢٥ .

ولما أعلن ذلك للعموم جادت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها بالمال والغلال والخيل والجمال والأبقار والجواميس والأغنام والفاكهة والخضروات حتى حطب الحريق .

ومن الأهالي من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشي ، ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم مقدرته على الدفاع بنفسه .

وبالجملة إن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسق إليه عهد من قبل في القرون الخالية . " (١)

وكما عبَّر الشعب المصري عن إيمانه بالقتال وعزمه على مواصلته بالثبات في كفر الدوار وبتموين الجيش وتمويله بالتبرع بالمال والأقوات والتطوع بالأعمال اللازمة في إنشاء التحصينات ، وشق الخنادق – فقد عبَّر عنه نفسه أيضاً بالأشعار والخطب ، وكان في مقدمة شعراء المعركة وخطبائها لسان الثورة الفذ عبد الله النديم صاحب جريدة " الطائف " التي كانت تصاحب الجيش في تنقلاته ، وتسجل الأحداث وتعلق عليها ، وتهيب بالمواطنين لبذل أقصى الجهد في حماية ظهر الجيش والضرب على أيدي خصوم الأمة وأعدائها الداعين إلى التفرقة أو التخاذل المروجين للإشاعات والأراجيف المثبطة للهمم والعزائم .

طعنة الخونة وهزيمة عرابي

لما أخفق الإنجليز في اختراق تحصينات كفر الدوار استداروا إلى قناة السويس وقرروا غزو مصر من هذه الناحية ، وقد فكَّر عرابي في ردم القناة أو تعطيلها مؤقتاً ولو نفَّذ ما فكر فيه لاستحال على الإنجليز احتلال مصر لكنه أعطى ثقته لدليسبس الذي أكد له عدم السماح للأسطول الإنجليزي عبور القناة .

---

(١) نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣٢٦ ، ٣٢٧.

ولم تكن خيانة دليسبس وحدها هي التي سببت هزيمة عرابي في التل الكبير إنما انضاف إليها خيانة الخديو توفيق وسلطان باشا الذين زيَّنا للسلطان العثماني إصدار قرار بعصيان عرابي وخروجه على الخلافة (١) ، وخيانة بعض بدو الصحراء الشرقية الذين أغراهم الإنجليز بالمال فأرشدوهم إلى دروب الصحراء ، وخيانة بعض ضباط الجيش المصري.

يقول نينه السويسري عن الخيانة وأبطالها : " كان بجانب الأمناء في الجيش بالشرقية فريق من الخونة يسوقهم الإنجليز ويمدونهم بالمال ويحرضهم توفيق ويعدهم ، وفريق من الشراكسة الباشوات الذين يحقدون على الفلاحين المصريين ، ومن هؤلاء علي يوسف الشهير بخنفس ، وكان مع الأسف الشديد قائد قلب الجيش المصري وهو الذي اشترى سلطان باشا ذمته للإنجليز ، فانسحب بفرقته فأفسح الطريق لجيش الإنجليز . " (٢)

فتح خنفس وأمثاله أمام الجيش البريطاني فكانت واقعة التل الكبير واقعة حارب فيها ضد المصريين الجنيه الإنجليز أكثر مما حارب فيها الجندي الإنجليزي .

وهكذا اجتمعت على هزيمة عرابي أنواع من الخيانة ليس أحقر ولا أبشع منها .

وفي ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ خارت قوى عرابي وانهارت مقاومته واضطر إلى الاستسلام حقناً للدماء على وعد بأن دولة الإنجليز لا تريد الاستيلاء على مصر لأنها دولة موصوفة بحب الإنسانية والاعتدال في الأمور .

---

(١) جاء في القرار أن " الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعي في مصر هو الخديو توفيق ، وأن أعمال عرابي مخالفة لإرادة الدولة العلية .. وأن عرابي باشا ورفقاءه وأعوانه من العصاة وعلى سكان الأقطار المصرية أن يطيعوا أوامر الخديو وكيل الخليفة على مصر وإلا تعرضوا لمسئولية عظيمة وأن تعامل عرابي باشا مع حضرة السادات الأشراف هي مخالفة للشريعة الإسلامية الغراء ومضادة لها " نقلاً عن د. ناصر الأنصاري ".مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٢٢٢ .

(٢) نقلاً عن د. أحمد عبد الرحيم مصطفى " كفاحنا ضد الغزاة " مرجع سابق ص ٣٣٣.

وقبض على عرابي وتمَّ تقديمه للمحاكمة وحكم عليه بالنفي إلى جزيرة سيلان ، وبدأت مرحلة أخرى من مراحل التاريخ المصري وهو احتلال إنجلترا وسيطرتها على الجيش والبوليس وشيئاً فشيئاً على باقي المرافق المهمة في الدولة . [1]

ومنذ أن احتلت بريطانيا أرض مصر عام ١٨٨٢ ما فتئت الدعوة إلى الجلاء والجهاد تستعر داخل القوى الوطنية التي حاولت جهدها الخلاص والتحرير من نير الاحتلال الأجنبي ، وكانت أول مفاوضة في سبيل الجلاء عام ١٨٨٥ ، وتظاهرت بريطانيا بالرغبة في تحقيقه وشغلت الرأي العام في مصر والخارج بهذه المفاوضات المسماة درومندولف والتي استمرت سنتين من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٧ وانتهت بالإخفاق وبقاء الاحتلال قائماً .

فلما بعثت الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل كان شعارها الجلاء الذي ظل شعار الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل ، واستمر الشعب ماضياً في جهاده في عهد محمد فريد .

ثورة ١٩١٩ والكفاح من أجل استقلال مصر

أعلن الرئيس الأمريكي " نلسون " مبدأ حق تقرير المصير ، أي حق أي أمة في الحصول على حريتها ، كما أعلن "تأليف عصبة الأمم" للقضاء على تحكيم القوة في أي نزاع لذا سعى الشعب المصري بعد الحرب العالمية الأولى ليس فقط إلى التخلص من الاحتلال البريطاني إنما من الحكم العثماني أيضا وذلك بعرض قرض قضية مصر أمام مؤتمر الصلح الذي كان مقرراً عقده في باريس في ٢٨ يونيو ١٩١٩م من أجل التخلص من إنجلترا ، والدولة العثمانية وتشكل الوفد المصري (سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي) واعترض المندوب السامي على سفر هذا الوفد بحجة عدم تمثيله للشعب المصري فسارعت طوائف الشعب على توقيع توكيلات ، لكن إنجلترا إذ عرفت التفاف الشعب المصري حول الوفد قامت باعتقال سعد زغلول وبعض أفراد الوفد ونفيهم .

([1]) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٢٢٣ .

لكن الشعب المصري بمختلف فئاته وطوائفه قام بثورة عارمة اشترك فيها المسلمون والأقباط الرجال والنساء الفلاحين والعمال والطلبة والموظفين ، كانت جميع طوائف الشعب ممثلة في هذه الثورة الكبرى .

بدأت الثورة في ٩ مارس ١٩١٩ بالإضراب والمظاهرات احتجاجاً على القبض على زعماء الوفد ، واندلعت الشرارة الأولى من المدارس العليا (الجامعات) والمدارس الثانوية تماماً كما ستكون ثورة ٢٣ يوليو ثورة شباب ، ومظاهرات الطلبة في ١٩٦٨ ثورة شباب ، وثورة ٢٥ يناير بدأت بثورة شباب .

وانضم جميع طوائف الشعب لمظاهرة الشباب ، ورغم أن الإنجليز اعتقلوا منهم ثلاثمائة طالب إلا أنهم لم يستطيعوا تفريق المظاهرات إلا بعد عناء وعندما حل المساء ، واستمرت المظاهرات في اليوم التالي بل اشتدت ، وامتدت إلى الأقاليم ، وساد الاضطراب أنحاء البلاد فدمرت عربات الترام في القاهرة ، واقتلعت الأشجار ، وقطعت خطوط البرق ، وأتلفت خطوط السكك الحديدية ، وواجه الإنجليز الأمر بإصدار الأوامر العسكرية إلا أن الأمور استفحلت وتفشت الإضرابات بين مختلف الهيئات والموظفين وعمال الترام والحوذية وسائقي العربات والنقل والأجرة ثم المحامين ، وأغلقت المتاجر ، وامتدت الثورة إلى مختلف الأقاليم من الإسكندرية إلى طنطا وشبين الكوم وبركة السبع ورشيد ودمنهور والوجه القبلي كما اشترك فيها طلاب الأزهر وعلماؤه ووقع كثير من الضحايا .

وزاد العنف يوماً بعد يوم ، وشمل البلاد كلها ، وجميع طوائف وهيئات الشعب . وتحت الضغط الشعبي الهائل اضطرت إنجلترا للاعتراف بأن في مصر ثورة فأرسلت لمواجهتها قائداً عسكرياً مشهوراً بفظاظته وشراسته لمقاومتها وهو الجنرال اللنبي كمندوب سامي .

وما عن وصل اللنبي إلى مصر حتى أبرق إلى حكومته يقترح الإفراج عن سعد وصحبه باعتباره المفتاح لحل الموقف المتأزم في مصر ،فاستجابت الحكومة

الإنجليزية على مضض لذلك الاقتراح فأطلقت في السابع من أبريل ١٩١٩ سراح الزعماء المنفيين في مالطة وسمحت لهم بالسفر إلى فرنسا لحضور مؤتمر الصلح ، بل وسمحت لأعضاء آخرين من الوفد بالانضمام إليهم .

ورغم سفر الوفد ومجهوداته في باريس فإن الثورة في مصر لم تهدأ ، واستمرت فيضرب الموظفون والطلاب احتجاجاً على الاحتفال في مصر بعيد جلوس ملك إنجلترا في ٧ مايو ١٩١٩ ، وتفشل وزارات : رشدي باشا ، ومحمد سعيد باشا ، ويوسف وهبة باشا ، وتوفيق نسيم باشا المتتابعة في السيطرة على الموقف . بل ويعلن بعض أمراء الأسرة الحاكمة انضمامهم للأمة ، ويوقعون رسالة إلى اللورد ملنر رئيس لجنة ملنر بضرورة الاستقلال التام ، ويوقعها الأمراء : كمال الدين حسين ، وعمر طوسون ، ومحمد على إبراهيم ، ويوسف كمال ، وإسماعيل داود ، ومنصور داود في ٢ يناير ١٩٢٠ .

وكانت لجنة ملنر قد وصلت إلى مصر لمحاولة التباحث في موضوع الاستقلال ولكنها لقيت مقاطعة كاملة من الأمة المصرية ، فعادت إلى إنجلترا وهي تضمر مفاوضة الوفد المصري فأرسلت تدعوه للحضور من باريس إلى لندن للتفاوض ، ولبَّى الوفد الدعوة ببعض أعضائه برئاسة سعد باشا زغلول ، ولكن تعثر الوصول إلى اتفاق مرضٍ ، وأمام الاحتجاجات في مصر أعلنت إنجلترا أن الحماية على مصر أصبحت علاقة غير مرضية ودعت إلى الدخول في مفاوضات رسمية للوصول إلى علاقة جديدة تربط الدولتين .

وتفشل المفاوضات ويطالب سعد زغلول الأمة باستمرار الجهاد وظل يعقد الاجتماعات ويخطب في الناس لتحميسهم فأنذرته السلطات الإنجليزية بعدم إلقاء الخطب أو عقد الاجتماعات ولما أصرَّ على موقفه اعتقل وصحبه في ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ونفي في سيشل في ٢٩ ديسمبر ثم عدّل منفاه تقديراً لظروفه الصحية إلى جبل طارق .

واستمرت روح الثورة بعد نفي سعد ، وتم توحيد الصفوف في مواجهة الإنجليز بعدم التعاون معهم ، بل ومقاطعتهم في التعامل في التجارة والبنوك والسفن وشركات التامين . (1)

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

كان تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ نتيجة طبيعية لثورة الشعب ووقوفه خلف زعمائه المطالبين بالجلاء والدستور،ذلك التصريح الذي أعلنت فيه إنجلترا انتهاء الحماية البريطانية على مصر وأن تكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة مع بعض التحفظات (2) وبهذا التصريح أصبحت مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، كما أصبح من حق مصر اتخاذ الدستور نظاماً للحكم فيها مما أدخل مصر ولأول مرة مرحلة جديدة من حياتها السياسية هي مرحلة الديمقراطية التي تعني أن الأمة – لا الملك ولا غيره – مصدر السلطات ، ووضع دستور ١٩٢٣ الذي يجعل الأمة مصدر السلطات لكن الملك فؤاد استطاع أن يفرض بعض المواد في الدستور الجديد تتيح للملك سلطة حل البرلمان المنتخب من الشعب دون قيد أو شرط ، كما جعل من حق الملك إقالة الوزارة ، وهذان الشرطان هما ما أفسدا الحياة الديمقراطية في مصر إلى حد كبير .

مباحثات سعد زغلول ومكدونالد والحقوق المقدسة

وجرت مباحثات أخرى حول الجلاء بين سعد زغلول ومكدونالد في أواخر سبتمبر ١٩٢٤م في لندن لكن سير المفاوضات أكد لسعد أنها فاشلة فقد تمسك كل من الطرفين بموقفه وخاصة فيما يختص بالسودان وهو أحد الموضوعات الأربعة المتحفظ عليها في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م وعلى ذلك فلم تمض فترة طويلة

---

(1) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠ بتصرف .

(2) وهذه التحفظات هي : حق انجلترا في تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر ، و حقها في الدفاع عن مصر ، وحقها في حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات ، وحقها في التصرف في السودان .

على بداية المفاوضات حتى قطعها سعد وعاد إلى القاهرة ليؤكد من جديد عدم التخلي عن أي حق من " الحقوق المقدسة " لمصر في وادي النيل . " [1]

وهذه الحقوق المقدسة هي :

أولا : سحب جميع القوات البريطانية من الأراضي المصرية .

ثانيا : سحب المستشار المالي والقضائي .

ثالثا : زوال كل سيطرة بريطانية على الحكومة المصرية .

رابعا : عدول الحكومة البريطانية عن دعواها حماية الأجانب والأقليات في مصر .

خامسا :عدول الحكومة البريطانية عن دعواها الاشتراك بأي طريقة كانت في حماية قناة السويس . " [2]

ويتمكن محمد محمود باشا (رئيس حزب الأحرار الدستوريين) في مباحثاته مع مستر هندرسون وزير خارجية إنجلترا في تحقيق " تقدماً في بعض المسائل الخاصة فيما يتعلق بالنصوص العسكرية التي أقرت انسحاب القوات البريطانية إلى منطقة القناة ، واعتراف بريطانيا للحكومة المصرية بأنها المسئولة منذ ذلك الوقت عن أرواح الأجانب وأموالهم إلى جانب عدة أمور أخرى خاصة بالجيش في السودان . " [3]

معاهدة ١٩٣٦

بعد وفاة الملك فؤاد جرت انتخابات حرة نزيهة في ٢ مايو ١٩٣٦ وأسفرت عن فوز الوفد بالأغلبية البرلمانية .

---

(١) د. علي شلبي " الانقلابات الدستورية في مصر ١٩٢٣ – ١٩٣٦ " الهيئة العامة للكتاب ص٢٤ .

(٢) د. عبد العظيم رمضان " تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى ١٩٣٦ " مكتبة مدبولي ط٢ص ٤٥١

(٣) نفسه ص ١٢٢ .

في تلك الأثناء كانت الأجواء العالمية تنذر بحرب عالمية فقد كانت العسكرية الألمانية قد وصلت إلى قمة قوتها ، وطمح هتلر النازي في اجتياح العالم كله ، وقام الحكم الفاشيستي في إيطاليا بغزو الحبشة ، لذا أحست انجلترا بالخطر من هذين الماردين الجديدين : هتلر ، موسوليني لما لهما من رغبة استعمارية جامحة تساندها قوة عسكرية جبارة " لذا سعت إنجلترا إلى تغيير سياستها تجاه الوفد ، ومشت إليه تمد يد الصداقة ومد الوفد يده إليها لكي يكسب لمصر استقلالها ، بعد أن طالت شقة الجهاد نيفاً وخمسين عاماً وتشكلت هيئة للمفاوضات ضمت جميع رؤساء الأحزاب وذوي الرأي المستقلين وعقدت معاهدة ١٩٣٦ " (١) في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ بوزارة الخارجية البريطانية .

وقد حققت المعاهدة المزايا الآتية :

١- انتهاء احتلال مصر عسكرياً بواسطة قوات إنجلترا .

٢- انضمام مصر لعصبة الأمم باعتبار مصر دولة مستقلة ذات سيادة .

٣- إلغاء الامتيازات الأجنبية .

٤- تقوية الجيش المصري إلى الدرجة التي تمكنه من الدفاع عن قناة السويس بمفرده فإذا وصل إلى هذه القوة تجلو القوات البريطانية الحليفة من مصر .

٥- سحب جميع الموظفين البريطانيين من الجيش المصري ، وإلغاء إدارة الأمن الأوربية ، وخروج العنصر الأوربي من البوليس ، واعتبار مصر هي المسئولة عن حماية الأجانب .

٦- حرية مصر في عقد المعاهدات السياسية مع الدول الأجنبية ، بشرط ألا تتعارض مع المعاهدة .

٧- إرجاع الجيش المصري إلى السودان ، واعتراف بريطانيا بالإدارة المشتركة مع مصر والسودان .

٨- أن تسري المعاهدة مدة عشرين سنة .

---

(١) محمد شوكت التوني " أحزاب وزعماء " مطبعة الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع ص ٤٢

" على هذا النحو انتهت صفحة من نضال الشعب المصري من أجل الاستقلال الخارجي والداخلي .. وتحولت العلاقة بين بريطانيا ومصر من علاقة احتلال إلى علاقة تحالف . وقد فضلت مصر التحالف مع بريطانيا نظراً لأن خطراً مشتركاً كان قادماً في الطريق وهو الخطر الفاشي المتمثل في ألمانيا وإيطاليا " (١)

مصر وميثاق الأمم المتحدة

ووقعت مصر ميثاق الأمم المتحدة ، وأقر البرلمان المصري الميثاق ، وقد حظيت مصر بتقدير كبير في مؤتمر سان فرنسسكو الذي عُدّت فيه مصر من الدول المؤسسة لهيئة الأمم المتحدة .

ورأت وزارة النقراشي في ميثاق سان فرنسسكو " ما يعينها على التفكير في التخلص من قيود المعاهدة التي وقعتها مصر في سنة ١٩٣٦ فقد كان الأساس الذي يقوم عليه الميثاق أن الدول التي وقعته متساوية في السيادة ، ولا يجوز أن تفرض دولة كبرى إدارتها على دولة صغرى أو تمس سيادتها ، وبقاء قوات أجنبية بمصر يمس سيادة مصر فمن حق مصر ، وهذه الحال أن تطلب جلاء هذه القوات عن أراضيها مع استعدادها لعقد اتفاق مع إنجلترا في حدود الميثاق الجديد " (٢)

لذا كان شغل وزارة النقراشي الأولى في تلك الأثناء مفاوضة الإنجليز على الجلاء عن مصر ، لكن للأسف بسبب صراع الأحزاب ، وتقديم المصلحة الشخصية على المصلحة العامة حالا دون إتمام المفاوضات .

جلاء الإنجليز عن القاهرة والإسكندرية

وتحت ضغط الكفاح الشعبي المتزايد جلا الإنجليز عن قلعة القاهرة في ٤ يوليه ١٩٤٦ وسلموها إلى الجيش المصري وأنزل العلم البريطاني الذي كان يرفرف

---

(١) د . عبد العظيم رمضان .

(٢) د. محمد حسين هيكل " مذكرات في السياسة المصرية " ج٢ دار المعارف ص ٢٦٥ .

عليها طوال أربعة وستين عاماً ثم جلو أيضاً عام ١٩٤٧ عن المواقع التـي كـانوا يحتلونها في القاهرة والإسكندرية وضواحيها وانتقلوا إلى منطقـة قنـاة السـويس وقاعدتها .

إلغاء معاهدة ٣٦ وبدء الكفاح المسلح ضد الإنجليز

ونتيجة ضغط الرأي العام أعلنت حكومة الوفد في أكتوبر ١٩٥١ إلغاء معاهـدة عام ١٩٣٦ وكان هذا الإلغاء إذاناً باستئناف الكفاح المسلح بين الفدائيين المصريين والجيش البريطاني وكان كفاحاً مريراً بذل فيـه الفـدائيون وجمـوع المـواطنين التضحيات الكثيرة .

وقف النحاس باشا على منبر مجلس النواب مساء يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٥١ ، وألقى بياناً مستفيضاً عن سياسة الحكومة نحو معاهدة ١٩٣٦ ، أعلن فيهـا قطـع المباحثات السياسية بين الحكومتين المصرية والبريطانية بعد أن تبين بجلاء عـدم جدواها كما أعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ بكلمته التاريخية : " من أجل مصر أبرمـت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها " كما ألغـى اتفـاقيتي ١٩ يناير و ١٠ يوليه سنة ١٨٩٩بشأن إدارة السودان ، كما قدم مرسوماً بمشروع قانون بتبديل الدستور وجعل لقب الملك " ملك مصر والسودان " (١)

إن الكفاح ضد الإنجليز وما تخلله من بطولة وفداء ، وجهاد وتضحية ، ومقاطعة تامة ،وعدم تعاون مع الاحتلال ، ومنع التموين عن قواته قد أنتج ثمرات طيبة كان لها أثرها في تغيير وجهة النظر البريطانية في فائدة القاعدة الحربيـة فـي قنـاة السويس ، فإن هذه القاعدة لا تكون صالحة للقتال أو إيواء جيش كبير إلا إذا كانت مسنودة من شعب صديق ، وحكومة صديقة ، وأن تكـون مواصـلاتها ووسـائل تموينها سهلة ميسرة مكفولة في حالة السلم ، وخاصة في وقت الحرب . ولقد تبين

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " في أعقاب الثورة المصرية " ج٣ الدار القومية للطباعة والنشر ص ٣٣٥

من كفاح المصريين سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢ أن هذه القاعدة مهددة بالخطر، وعديمة الجدوى للإنجليز في حالتي السلم والحرب جميعاً .

فالتضحيات التي بذلت والدماء التي سفكت في معارك القتال لم تذهب عبثاً ، بل إن لها فضلاً كبيراً في جنوح الإنجليز إلى قبول الجلاء . بعد أن كانوا مُصرِّين على الرفض ، ولقد اعترف الإنجليز في غمرة الكفاح بهذه الحقائق .

قال اللورد ستانسجيت في هذا الصدد في مجلس اللوردات : " إن القاعدة البريطانية في منطقة القناة أصبحت لا تصلح عسكرياً ، وإن الكُره الذي يحف بها يجعلها مهددة ، فلا معنى لبقائها " .

وبلغ من شدة توتر أعصاب الجنود البريطانيين أنهم باتوا يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فقدت قيمتها نتيجة الشعور الوطني المعادي وعما إذا كان من الأوفق تجنب احتكاكات سياسية جديدة بالبدء في إنشاء قاعدة أخرى في جهة تعرب حكومتها عن رغبتها في الانضمام إلى قيادة الشرق الأوسط أو على الأقل في منطقة لا يكون وجود القوات الإنجليزية فيها مدعاة للسخط والاستنكار . " [١]

***

(١) نقلاً عن عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " ص ١١٨ ، ١١٩

الفصل الخامس

ثورات المصريين في التاريخ المعاصر

الفصل الخامس

ثورات المصريين في التاريخ المعاصر

حالة البلاد قبيل ثورة يوليو

قبل الثورة بعامين كان الموقف السياسي يتدهور ، وهيبة النظام تتآكل ، وحماقات الملك في نفس الوقت تتضاعف ، وتتسم بعدم المبالاة أو سلامة التقدير ، والتهبت الصحف بمقالات نقدية عنيفة تفضح التصرفات الشخصية للملك ورجال الحاشية بعبارات مستهترة ، ولم يفلح قانون حماية أخبار القصر في وقف هذه الحملة .

وألقى محمد صلاح الدين (١) بيانه أمام مجلس النواب يوم ١٦ أغسطس ١٩٥١ حمل فيه حملة عنيفة على الاستعمار البريطاني والسياسة الإنجليزية في فلسطين التي انتهت بإنشاء إسرائيل ، وأشار إلى وجوب جلاء الإنجليز عن قاعدة قناة السويس قبل الموعد المحدد في معاهدة ١٩٣٦ وهو عام ١٩٥٦ ، وتأكيد الوحدة بين مصر والسودان . وإلا ستعمل حكومة الوفد على إلغائها .

وتلقت الجماهير خطاب وزير الخارجية ليكون نقطة انطلاق لها في حركتها التي كانت تتصاعد يوماً بعد يوم حتى ٢٦ أغسطس – تاريخ توقيع معاهدة ١٩٣٦ – فقررت التنظيمات السياسية التظاهر وخرجت القاهرة عن بكرة أبيها على حد تعبير جريدة المصري ،وحدث تصادم بين البوليس والمتظاهرين فأصيب البعض من الطرفين ، واستمرت المظاهرات تموج في القاهرة حتى المساء .

(١) وزير الخارجية في الحكومة الوفد الأخيرة التي تشكلت في ١٩٥٠/١/١٢

ووجدت الحكومة الوفدية أنها تفقد كثيراً من رصيدها الشعبي أمام موجة الحماس التي تجتاح الشعب ، ووجدت أيضا أنها قد أصبحت محاصرة بوعدها الذي قطعته على نفسها بإلغاء المعاهدة . (١)

المظاهرات تعم البلاد عقب إلغاء معاهدة ٣٦

كانت المظاهرات عقب إلغاء النحاس باشا لمعاهدة ١٩٣٦ وإعلان الكفاح المسلح ضد الإنجليز - قد عمت معظم المدن المصرية مطالبة بالقتال والسلاح ، وكانت القوات الإنجليزية تتصدى بعنف لهذه المظاهرات ، ولم تتورع عن سفك دماء المتظاهرين مما ترتب عليه قتل ٧ متظاهرين وجرح ٤٠ في الإسماعيلية ، وقتل ٥ متظاهرين وجرح الكثير في بور سعيد ثم وضعت القوات البريطانية منطقة القنال تحت حكم عسكري مباشر متجاهلة السلطة المصرية .

وفي يومي ١٧ ، ١٨ نوفمبر ١٩٥١ أطلق الإنجليز النار على ثكنات البوليس في الإسماعيلية فردَّ هؤلاء وسقط القتلى والجرحى من الجانبين ، وفي ٣ ديسمبر أطلق الإنجليز النار على بعض قوات البوليس في السويس واستشهد ٢٨ مصرياً منهم ٧ من رجال البوليس ، وقتل من الإنجليز ٢٢ وتجدد الاشتباك في اليوم التالي وسقط ١٥ شهيداً .

وفي ٨ ديسمبر طلب الإنجليز إخلاء حي (كفر أحمد عبده) بدعوى تحصن الفدائيين به ، واجتمع مجلس الوزراء وقرر رفض الطلب ؛ فحشد الإنجليز آلاف الجنود ودبابات ومصفحات لم يكن ممكناً لقوة بوليس لا يزيد عددها عن ٤٠٠ أن تقاوم فانسحبت وهدم الإنجليز كفر أحمد عبده . (٢)

كانت هذه الأحداث المتكررة تهيج مشاعر الشعب في مصر فتنطلق المظاهرات ، ويحدث من أفرادها اعتداءات على الممتلكات المصرية ، مما نبه العقلاء من

---

(١) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليو " الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج١ ص ١٥٢ ، ١٥٣
(٢) نفسه ص ١٦٦ .

المثقفين إلى التنبيه إلى خطورة هذا حتى لا يتخذ الإنجليز هذه الاعتداءات على الممتلكات والمنشآت الأجنبية ذريعة لمواصلة التنكيل بالمتظاهرين واتهامهم بالفساد والفوضى والخروج على النظام ، مما يترتب عليه تحويل المظاهرات الوطنية المشروعة إلى بلطجة غير مشروعة .

مجزرة الإسماعيلية

في يوم الجمعة ٢٥ يناير ١٩٥٢ وصلت الاستفزازات البريطانية إلى الذروة عندما احتشدت قوات ضخمة من الجيش البريطاني تشد أزرها قوات كبيرة من الدبابات والمصفحات ومدافع الميدان وحاصرت مبنى محافظة الإسماعيلية وثكنات بلوكات النظام ، وطالبت تسليم أسلحة جميع قوات البوليس من بلوكات النظام وغيرهم الموجودين بالإسماعيلية ، وجلاء تلك القوات عن دار المحافظة وعن الثكنات مجردة من أسلحتها في الساعة السادسة والربع من صباح ذلك اليوم ورحيلها عن المنطقة جميعها .

فاتصل قائد بلوكات النظام اللواء أحمد رائف بوزير الداخلية فؤاد سراج الدين فطلب منه عدم التسليم ومقاومة أي اعتداء يقع على دار المحافظة أو على ثكنات بلوكات النظام أو على رجال البوليس أو الأهلين ، ودفع القوة بالقوة ، والصمود في الدفاع حتى آخر طلقة مع القوات كما طلب تبليغ ذلك إلى القيادة البريطانية .

وبعد دقائق عاد القائد البريطاني وأبلغ قائد البوليس المصري بأنه إذا لم تسلم القوات المصرية أسلحتها فوراً فستهدم دار المحافظة والثكنات على من فيها . فأصر القائد المصري على رفض التسليم ، وأصدر أمره إلى القوات التي تحت إمرته بالمقاومة إلى النهاية إذا بدأ العدوان الإنجليزي .

وبعد دقائق نفّذ البريطانيون إنذارهم وأخذوا يضربون دار المحافظة والثكنات بالمدافع ويطلقون عليها القنابل ، وانهال الرصاص من الدبابات والسيارات المصفحة على جنود البوليس .

فردَّ جنود البوليس البواسل على هذا العدوان بالدفاع المشرف وقابلوا الضرب بضرب مثله مع الفارق بين القوتين في العدد والمعدات الحربية والأسلحة ، فإن قوة البوليس لم تكن تزيد على ثمانمائة جندي بثكنات بلوكات النظام وثمانين بالمحافظة، وليس لديهم من سلاح سوى البنادق ، أما قوات الإنجليز فكانت تبلغ سبعة آلاف جندي مسلحين بالدبابات الثقيلة والمصفحات والسيارات والمدافع .

ونشبت معركة بين الطرفين دموية رهيبة ، وظلت القوات المصرية تقاوم ، ولم تتراجع ، ولم يضعف من استبسال الجنود المصريين تهدم مبنى المحافظة من ضرب المدافع واشتعال النيران فيه ، واستمروا في مقاومتهم حتى نفدت ذخيرتهم،ومن ثم استسلموا للأمر الواقع .

وأحنى قائد القوة البريطانية رأسه احتراماً لهم ، وقال لضابط الاتصال بأن رجال القوات المصرية جميعاً قد دافعوا بشرف واستسلموا بشرف فحق عليه احترامهم جميعاً ضباطاً وجنوداً .

وقد سقط في ميدان الشرف في هذه المعركة من جنود البوليس خمسون شهيدا،وأصيب منهم نحو ثمانين جريحاً . وقدرت القيادة البريطانية خسائر الإنجليز بثلاثة عشر من القتلى ، و١٢ جريحاً ، والراجح أنهم حوالي عشرين قتيلاً وثلاثين جريحاً . (١)

حريق القاهرة المقدمات والنتائج

في مساء يوم الجمعة ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ نشرت وزارة الداخلية عن طريق دار الإذاعة أنباء مجزرة الإسماعيلية التي حدثت في ذلك اليوم ، وتوالت منذ استفاضة أنباء مجزرة الإسماعيلية بأن يوم السبت سيكون يوماً عبوساً قمطريراً ففي الساعة السادسة من صباح ٢٦ يناير تمرد جنود بلوكات نظام الأقاليم في ثكنتهم بالعباسية ،

(١) عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " الدار القومية للطباعة والنشر ص ١٠١ – ١٠٣ بتصرف .

وامتنعوا عن القيام بما كلفوا به من الذهاب إلى الجهات المخصصة لهم لحفظ الأمن بالعاصمة وخرجوا من ثكناتهم حاملين أسلحتهم في مظاهرة صاخبة يتصايحون بالسخط على ما أصاب زملاءهم في الإسماعيلية طالبين السلاح للقتال وساروا بجموعهم من العباسية إلى الأزهر إلى ميدان العتبة الخضراء ومنه إلى ميدان الإسماعيلية (التحرير) فالجيزة واتجهوا إلى جامعة فؤاد (جامعة القاهرة) وكانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً ، وهناك اختلطوا بالطلبة ، وتبادلوا وإياهم شعور السخط والهياج وسار الجميع في موكب المظاهرة إلى العاصمة يطوفون بالشوارع صائحين صاخبين .

ومنذ الساعة التاسعة صباحاً أخذت مظاهرات عدة تتدفق على ميدان عابدين ومنه إلى رياسة مجلس الوزراء وقد التقت هذه المظاهرات بمظاهرة جنود بلوكات النظام وطلبة جامعة فؤاد ووصل الجميع تباعاً إلى دار رياسة مجلس الوزراء وكان ذلك حوالي الساعة الحادية عشر والنصف . وفي فناء هذه الدار أطل على المتظاهرين وزير الشئون الاجتماعية عبد الفتاح حسن وألقى فيهم خطبة حماسية جارى فيها شعورهم .

ثم تركت هذه الجموع دار الرياسة وانسابت في قلب العاصمة صائحة منادية بحمل السلاح والسفر إلى القنال لمحاربة الإنجليز،وكانت أنباء هذه المظاهرات وتحركاتها تبلغ في حينها إلى وزارة الداخلية ولكنها لم تخرج لتفضها . (١)

وكيف تقوم وزارة الداخلية بفض المظاهرات التي ما قامت إلا لتندد بما فعله الإنجليز بجنود البوليس التابعين لوزارة الداخلية !

لكن المظاهرات أخذت بعد ذلك منحى أخر فلم يكتف المتظاهرون بالصياح والهياج بل بدءوا يهاجمون المحال والمنشآت الإنجليزية وهذا ما لم تكن تتوقعه وزارة الداخلية .

---

(١) نفسه ص ١٢١ – ١٢٣ بتصرف .

فقد قام بعض عناصر الشغب المندسة بين المتظاهرين بإضرام النار في كازينو أوبرا ، وللأسف انتشرت عدوى إشعال الحرائق وإتلاف الممتلكات وسببها بين المتظاهرين فتوالت حوادث إشعال النار والإتلاف والنهب فيما بين الظهر والمغرب فاجتاحت شوارع وميادين بأكملها .

بلغ عدد المحلات المنشآت التي أصابها الحريق والدمار نيفاً وسبعمائة معظمها مملوكة للأجانب ، وبعضها مملوكة لمصرين وكلها تقع في أجمل وأكبر أحياء العاصمة . وبلغ عدد القتلى في هذا اليوم ٢٦ شخصاً منهم ١٣ في بنك باركليز وتسعة في التورف كلوب وواحد أمام بنك باركليز واثنان أمام محل عمر أفندي وواحد توفي أثناء حريق أحد المتاجر بشارع شريف ، وبلغ عدد من أصيبوا بحروق أو كسور أو جروح ٥٥٢ شخصاً .

وترتب على حوادث الحريق أن تشرد الموظفون والعمال المصريون في المحلات والمتاجر والمنشآت التي نكبت بالحريق ويبلغ عددهم بضعة آلاف يعولون نحو عشرين ألفاً نسمة .

وبالجملة فإن القاهرة نكبت هذا اليوم في عمرانها ، بما لم تنكب بمثله في تاريخها الزاهر . (١)

إن ثقافة المظاهرات السلمية ما زالت قاصرة على الشعوب المتقدمة فقط فما من مظاهرة قامت في بلادنا إلا واكبها التخريب والتدمير وإشاعة الفوضى مما يترتب عليه نتائج عكسية . كما أن المظاهرات عندنا يغلب عليها الانفعال لا التعقل لذا يسهل توجيهها عن مسارها ، ولا يستثنى من هذه التظاهرات إلا القليل على قمته ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ التي كانت مثالية في كل ما قامت به فلم تخرج أبداً عن سلميتها ولم يقدم من شارك فيها على تخريب أو إتلاف للممتلكات إنما كانوا دائماً يحافظون عليها وينظفون الأماكن التي يتواجدون فيها بشكل حضاري لم يسبق له

---

(١) نفسه ص ١٢٦ ، ١٢٧ بتصرف .

مثيل وهذا لا يمنع من وقوع أحداث سلب ونهب واقتحام لأقسام الشرطة والسجون، وأعمال بلطجة . لكن ثوار ٢٥ يناير لا علاقة لهم بهذه الأحداث المؤسفة التي أساءت إلى ثورتهم العظيمة .

موقف الجيش من حريق القاهرة

لما قام الكفاح في القنال في أكتوبر سنة ١٩٥١ بعد إلغاء المعاهدة ، لم يشترك الجيش في المعركة لأن الظروف لم تكن مواتية لاشتراكه فيها ، ولكن بعض ضباط الجيش ساهموا سراً بتدريب الفدائيين على حرب العصابات وإمدادهم بالسلاح والذخيرة والمفرقعات وبالمساهمة الشخصية فيها . (١)

وبعد حريق القاهرة فإن الجيش هو الذي أعاد الأمن والنظام ، وأوقف الحريق والنهب والفوضى وشاهد الضباط الأحرار مبلغ ما جره انحدار الحكم وفساده على البلاد من كوارث وويلات ، وأي كارثة أكبر من شبوب الحرائق التي كادت تدمر عاصمة البلاد ورمز حضارتها .

ومن هنا سارعوا الخطى في إعلان الثورة وقدموا موعدها عما كانوا يعتزمون من قبل . (٢)

أسباب نجاح تنظيم الضباط الأحرار

لم يكن تنظيم الضباط الأحرار هو التنظيم الوحيد في داخل الجيش وخارجه فقد دفعت أحوال البلاد السيئة كثير من المخلصين من أبناء الوطن إلى تكوين تنظيمات سرية بهدف تخليص البلاد من المتسببين في شقائه ، وكانت وسائل هذه التنظيمات للوصول لهدفهم هذا تتمثل في اغتيال بعض الخونة والمفسدين ، أو كتابة منشورات تحريضية ضدهم ، أو تنظيم مظاهرات ، أو تدمير بعض المنشآت .

---

(١) عبد الرحمن الرافعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " مرجع سابق ص ١١٤ .
(٢) نفسه ص ١٣١

لكن هذه التنظيمات إذا استثنينا جماعة الإخوان المسلمين كانت قليلة العدد والعدة لا تملك الرؤية الشاملة - وإن حسنت نواياها - للإصلاح ، فهي وإن آمنت ببعض مبادئ الإصلاح فإنها لا تملك وسائل تحقيقها .

والحقيقة بعد حل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال قادتها ، واغتيال الشيخ حسن البنا زعيمها ، لم يعد هناك تنظيم قوي يعوّل عليه في تغيير النظام القائم الذي لم يعد هناك أمل في إصلاحه .

التنظيم الوحيد الذي يمكن أن يعوّل عليه فعل شيء لهذا الوطن كان تنظيم الضباط الأحرار فقد كان يملك بعض الأفكار الإصلاحية التي تتمثل في إصلاح الجيش وتطهيره من عناصر الفساد والمفسدين وإقامة جيش وطني قوي ، والقضاء على الاستعمار وأعوانه الخونة في وادي النيل . وكان التنظيم يملك تحقيق هذه الأفكار الإصلاحية بما لديه من تواجد قوي بين القوات المسلحة تمكنه من فرض رأيه ، واختيار من يمثله ، كما تمكنه من إمكانية القيام بانقلاب عسكري إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك وكان وراء نجاح هذا التنظيم عدة عوامل أهمها :

السبب الأول يتضح في حسن اختيار أعضاء التنظيم وخاصة أعضاء اللجنة التأسيسية الذين تكوّن منهم مجلس قيادة الثورة بعد ذلك .

السبب الثاني في نجاح حركة الضباط الأحرار يكمن في شخصية جمال عبد الناصر التي فرضت على كل الضباط الأحرار احترامها وتقديرها ، والثقة فيها ، ولم يكن جمال عبد الناصر يمتلك شخصية كاريزمية فحسب بل كان شعلة نشاط يتواجد في كل مكان يتطلبه التنظيم التواجد فيه ، فلا يوجد اجتماع يخص التنظيم إلا كان عبد الناصر أبرز أعضائه ، ولا يوجد مناقشة حول التنظيم إلا كان له رأياً معتبراً فيها ؛ فلا عجب أن ينتخبه أعضاء لجنة القيادة ثلاث مرات بالإجماع رئيساً عليهم أعوام ١٩٥٠ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢ .

السبب الثالث هو جماعية القرار فلم يكن هناك قرار مهم إلا وتناقش الضباط فيه مناقشة حرة يدلي فيها كل بدلوه لا حجر فيها على رأي ولا مصادرة فيه لفكرة

وهذا في رأيي أهم ما ميز تنظيم الضباط الأحرار فقد قام على الشورى داخل لجنة القيادة .

السبب الرابع في نجاح حركة الضباط الأحرار هو محمد نجيب فعلى الرغم من أن محمد النجيب لم يكن يشارك في اجتماعات لجنة القيادة لدواعي أمنية فإن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم كانا على اتصال دائم به والتشاور معه في كل خطوة خاصة بعد أن اختير قائداً للتنظيم في يناير ١٩٥٢ كذلك فإن كثيراً ممن انضموا للتنظيم كان أكبر حافز لهم للانضمام للتنظيم وجود نجيب على رأسه .

السبب الخامس يتمثل في منشورات الضباط الأحرار تلك التي روجت للتنظيم ، وعرّفت الناس به .

أما **السبب السادس** فهو انتخابات نادي الضباط والنجاح الساحق الذي حققه محمد نجيب مرشح الضباط الأحرار .

كل هذه العوامل تضافرت لتجعل من التنظيم قوة لا يستهان بها تهدد النظام الحكام .

عوامل نجاح ثورة يوليو

كان من أهم أسباب نجاح ثورة يوليو، أنها جاءت لتحقق رغبة جموع الشعب المصري في التخلص من الظلم والإقطاع والاستعمار، والعديد من المظاهر السلبية التي ترتبت على فساد الحكم الملكي. ففي أواخر العهد الملكي، ساءت حالة البلاد واستشرى الفساد والمحسوبية والتسيب الشديد، وأصبح التخلص من الملك وحاشيته مطلباً شعبيّاً ضرورياً لأي إصلاح .

وجاءت الظروف الدولية المواتية لتوفر مناخاً مناسباً قلّل من حدة المقاومة الدولية لنجاح الثورة، فقد خرجت الإمبراطوريات الاستعمارية من الحرب منهكة القوى وغير قادرة على السيطرة على المستعمرات مترامية الأطراف، وبرزت الولايات المتحدة كقوة عظمى، تقود وحدها المعسكر الغربي، ويعتمد حلفاؤها عليها في توفير الدعم المالي اللازم لإعادة إعمار اقتصادهم المنهار. وتاريخيّاً، لم يكن لأمريكا

أطماع استعمارية مثل حلفائها، بل كان تدخلها في شئون الدول الأخرى مستتراً وبصورة أساسية مرتبطاً بمصالحها ومصالح مؤسساتها. وبرز الاتحاد السوفيتي باعتباره القوة العظمى الأخرى في العالم، وكان الاتزان بين هاتين القوتين وخوف كل منهما من الأخرى، عامل استقرار يحجمهما معاً ويحد من أطماعهما الإقليمية.(١)

ويمكن تلخيص عوامل نجاح الثورة في النقاط الآتية :

أولاً : تمت حركة ٢٣ يوليه، في توقيت مناسب سليم، كان الشعب قد وصل فيه إلى ذروة النقمة، على الملك، ورجال الحاشية، وحكومات الأقلية التي عطلت الدستور عملياً. واستندت إلى الأحكام العرفية. ولذا جاء استقبال الجماهير للحركة، معبراً عن التأييد الكامل، مشجعاً الضباط الأحرار على مواصلة الطريق .

ثانياً : كانت أحزاب الأقلية، تضم فريقاً من الإقطاعيين، وكبار الرأسماليين بعيداً عن ساحة الشعب، ولذا فإنها، مع ظهور الحركة، لم تعد أحزاباً منظمة، وإنما تحولت إلى شخصيات يسلك كل منها سبيلاً خاصاً يدافع به عن نفسه، وعن مصالحه. مما كشف للضباط مدى التفسخ والتمزق، الذي كانت تعاني منه هذه الأحزاب، وسقطت بعض الأسماء الكبيرة بسبب بتصرفات صغيرة .

ثالثاً : احتفظ الوفد بوحدته، ولم يحدث له مثل ما حدث، في أحزاب الأقلية. ومع ذلك ظل موقفه غير واضح. ولعله كان حذراً، يتحسب السير في اتجاه مضاد للتيار الشعبي المتدفق، المؤيد للحركة، الذي كان يضم بالتأكيد جماهير الوفد من القوى العاملة، التي طال بها الحرمان .

رابعاً : كان نجاح حركة ٢٣ يوليه، فرصة الإخوان المسلمين الفريدة، للسيطرة على الحكم والسلطة، فقادتها ليسوا غرباء عن تنظيمهم، بل إنهم نشئوا واستمر اتصال بعضهم به، وواصل البعض الآخر علاقته الطيبة بهم .(٢)

---

(١) ناصر " شركة الأفق للبرمجيات التفاعلية ١٩٩٩ تصحيح ومراجعة تاريخية أ.د. رءوف عباس حامد .

(٢) احمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليه " مرجع سابق ج١ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨

خامساً : موقف يوسف صديق البطولي ليلة ٢٣ يوليو . لقد أجمع كل الضباط الأحرار على الدور البطولي الذي قام به يوسف صديق ، والذي أنقذ به الانقلاب من الفشل المحقق .

فقد تصور البكباشي يوسف صديق ساعة الصفر هي الحادي عشرة مساء وليست منتصف الليل . فحرك قواته واستطاع أن يستولي على مركز قيادة الجيش والقبض على كل القادة العسكريين الذين اجتمعوا فيه ليتخذوا الإجراءات الحاسمة للقبض على الضباط الأحرار وإفشال مخططهم . وتقديمهم إلى الحكمة العسكرية لكن يوسف صديق استطاع أن ينقذ الانقلاب من الفشل ، وينقذ الضباط الأحرار من المحاكمة العسكرية .

سادساً : هناك دور بارز قام به محمد نجيب لإتمام نجاح الثورة ولا أظن أن أحداً غيره كان يمكن أن يقوم به فكان اختيار الضباط الأحرار له موفقاً ، فقد أثبتت الأيام بعد ذلك أنه كان يتمتع إلى جانب شجاعته الفائقة ، ونزاهته الكاملة ، بجاذبية لا تقاوم ولذلك ما كاد يقع نظر الشعب عليه وهو يلوح بقبعته العسكرية، حتى تعلق به ، ووقع في حبه ، فأصبح يجري في أعقاب مواكبه ، وهو منجذب إليه ، مشدوداً إلى شخصه ، يود أن يلمسه ، أو يقبله أو يعانقه لو استطاع .

يقول محمد نجيب : " تحول الانقلاب إلى ثورة من ساعة أن وضعنا عيوننا على الشعب قبل الجيش ، وعلى الصغير قبل الكبير . وهذا ما كنت أحلم به ، والجماهير تكاد تحمل سيارتي ، التي تقلني من رأس التين ، بعد وداع الملك ، إلى ثكنات الجيش في مصطفى باشا . (١)

لقد كان اسم محمد نجيب كقائد للثورة باعثاً على طمأنينة الداخل والخارج ، كما كان دافعاً إلى التأييد الكاسح من ضباط الجيش والبوليس ومن أفراد الشعب ورجال الأحزاب والسياسة .

---

(١) محمد نجيب " كنت رئيسا لمصر " المكتب المصري الحديث ص ١٤٦

وهكذا توفرت، في محمد نجيب، في أوائل ١٩٥٢، أفضل الصفات، التي تؤهله لقيادة حركة عسكرية ناجحة، يقوم بها الجيش؛ فقد أصبح، إضافة إلى ما يتمتع به من سمعة وشهرة، حائزاً على ثقة الضباط، مما يضمن معه سرعة انضمام باقي الجيش إلى الحركة بمجرد الإعلان عن قيامها، تحت قيادته . .

أسباب استقالة محمد نجيب

وتنجح ثورة ٢٣ يوليه وتتمكن من طرد الملك ، والقيام بالعديد من الإصلاحات لكن سرعان ما دبَّ الخلاف بين أعضاء مجلس قيادة الثورة فلم يرض محمد نجيب عن كثير من القرارات التي يضطرُّ لإصدارها نزولاً على رأي أغلبية المجلس .

يقول نجيب : " في ١٥ يناير ١٩٥٤ بعد عام من حل الأحزاب تقريباً صدر قرار حل الإخوان المسلمين بأغلبية الأصوات ، وفي نفس اليوم اعتقل ٤٥٠ عضواً من الإخوان .. وأحسست أن موقفي أصبح في غاية الحرج ، هل أنا موافق على كل هذا ؟ هل أنا رافضه وغير مقتنع به ؟

أين أنا من كل هذا بالضبط ؟

ولم أجد مفرّاً من أن أقدم استقالتي !

قدمت استقالتي في ٢٢ فبراير ١٩٥٤ لكن قبل هذه الاستقالة جلست استعرض كل ما حدث لنا في خلال الفترة من قيام الثورة إلى الآن ، السلبيات ، والإيجابيات ، ما كسبناه ، وما خسرناه ، وما كسبته البلد وما خسرته ، لم أستطع أن أحدد بدقة نتيجة كشف الحساب ، فقد طردنا الملك ، لكن جئنا بالضباط إلى الحكم ، حققنا العدالة الاجتماعية لكن ظهرت المحسوبية ، واصلنا مشوار النضال لتحرير مصر ، لكن قضينا على الديمقراطية ، كنت مخلصاً ولكن زملائي يدفعون كل شيء نحو الاستجابة لشهواتهم الخاصة والعامة ونحو الديكتاتورية العسكرية أيضاً ، كنت أول رئيس لمصر لكني رفضت أن أوصم بأكثر مما وقع ، وانتهيت إلى الاستقالة .

وقبل هذه الاستقالة واجهت أعضاء المجلس بمنتهى الصراحة والشجاعة ، واجهتهم بالأموال العامة التي سحبوها بلا مبرر وبعثروها بلا حساب . وطلبوا المزيد منها .

واجهتهم باستغلالهم لنفوذهم ، وواجهتهم بكل فضائحهم وعيوبهم .

حتى أن جمال سالم سألني : لماذا أنت غاضب علينا إلى هذا الحد ؟

فقلت له : سأذكر لك أنت وأسرتك واقعة واحدة تجعلني غاضباً ، واقعة شقيقك الذي طبع اسمه على بطاقة وكتب تحتها : " شقيق جمال سالم وصلاح سالم " ليسهل بها أموره ويكسب من ورائها الكثير .

وسألني آخر : هل هذا فقط ما يغضبك ؟

فقلت : إذا كان هذا لا يكفي فأنا غاضب من الأموال السرية التي تنفقونها على أغراضكم الشخصية وأنا غاضب على دولة المخابرات التي تكونونها الآن بإشراف بعض ضباط المخابرات المركزية ، وبعض الضباط الألمان الذين كانوا في الجستابو النازي .

إذا كان للقيادة الجماعية بعض المزايا فإن عيوبها أكثر ، وأخطر هذه العيوب أن يظهر شخص مثل جمال عبد الناصر ينجح في تحريك المجموعة من تحت المنضدة لتصوت حسب أهدافه وأغراضه .

إن عبد الناصر الذي كنت أحترمه ، كان شاباً صغيراً ذو قدرات متميزة ، وقد اقترحت عليه أن أدير وأقود البلاد لعدة سنوات إلى أن يكتسب الخبرة اللازمة التي تمكنه من أن يخلفني في الرئاسة ، وأكدت له في ذلك الوقت أنني سأكون سعيداً أن أستقيل من أجله ولصالحه ، وخيرته في ذلك ، أو أن أستقيل حالاً حتى لو أدى الأمر إلى خلق أزمة داخلية لأنني لم أعد أتحمل ، أو تسامح عن الأخطاء التي يرتكبها أعضاء المجلس .

ولم يختر عبد الناصر !

قلت له : من الأفضل أن تقود المسيرة من الآن بدوني !

لم يكن لي سلطة تعيين أو فصل الوزراء بدون موافقة المجلس ، ومع ذلك كنت مضطراً لمساندة الوزراء سواء كنت موافقاً عليهم أم لا !

وكنت مضطراً للتصديق على قرارات أركان حرب الجيش حتى التي صدرت دون استشارتي ، أو أخذ رأيي فيها .

وأنا لم أطلب سلطات مطلقة لي ولكني ببساطة كنت أطلب الحد الأدنى الضروري لممارسة مهامي ، وكنت مستعداً لمناقشة المجلس في أي قرار أتخذه .

لقد كان عبد الناصر بحماس الشباب يعتقد أنه من الممكن أن يحول كل معتقدات الشعب المصري إلى الطريق الذي اخترناه نحن الضباط لتحقيق أهدافنا ، ولم يكن ليستطيع أن يحول أهدافنا إلى طريق الشعب المصري . لكنني بخبرة وحكمة الكبار كنت أعتقد أن أفكاره خاطئة وأننا في حاجة إلى مساندة شعبية حقيقية ، وإن من الممكن تأجيل بعض الأهداف أو التضحية بها حتى لا نفقد ثقة الشعب فينا .

كنت باختصار أعتقد أن نصف رغيف أفضل من لا شيء .

لكن عبد الناصر كان يعتقد أنه يجب أن يأخذ الرغيف كله .

وقد طال بي العمر حتى رأيت أن اعتقاده كان خاطئاً وأن الإنجازات الضخمة التي أقامها لم يكن لها أي أساس ، وكان من السهل هدمها والتضحية بها في أيام .

وفي ٢٥ فبراير أصدر مجلس قيادة الثورة بيان إقالتي : وجاء فيه : أنني طلبت سلطات أكبر من سلطات أعضاء المجلس ، وأن المجلس رفض ذلك لأنه خروج على نظامه المتبع منذ سنوات وهو أن أعضاء المجلس متساوون بما فيهم الرئيس.[1]

---

(1) محمد نجيب " كنت رئيسا لمصر " مرجع سابق ص ٢٢١- ٢٢٩ بتصرف .

ثورة الجماهير لإعادة محمد نجيب

وما إن قدم محمد نجيب استقالته وعاد إلى منزله حتى فوجئ بأن تلفونه بدون حرارة . وظهرت الجرائد في صباح ٢٥ فبراير تحمل هذه المانشتات :

قبول استقالة محمد نجيب من جميع الوظائف التي يشغلها ، وتعيين جمال عبد الناصر رئيساً للوزراء .

وتوهم مجلس قيادة الثورة أن الفرصة قد حانت للتخلص من آخر عقبة أمامهم للسيطرة الكاملة على مقاليد الحكم، وبذل صلاح سالم وزير الإرشاد غاية جهده في تلفيق التهم لمحمد نجيب ، ونسي عبد الناصر و أتباعه في سكرة الفرحة أن الناس منذ اندلاع الثورة لا تعرف إلا محمد نجيب بطل حرب ٤٨ ورئيس نادي الضباط وزعيم الثورة الذي خلصهم من الملك والملكية فاندلعت ثورة عارمة في كل من مصر والسودان تطالب بعودة محمد نجيب وبالحكم بالسجن على عبد الناصر وصلاح سالم . وبدأ ما عرف في التاريخ بأزمة مارس .

فبعض رجال الثورة المبعدين مثل خالد محيي الدين " يقف ومن ورائه سلاح الفرسان معترضاً على قبول الاستقالة، وبعض الوحدات العسكرية في الجيش والتي كانت ترى في محمد نجيب واجهة ديمقراطية خرجوا من أجلها ليلة ٢٣ يوليو كانت هي الأخرى ترفض قبول الاستقالة وحان لابد أن يتفجر الموقف .

امتلأت الشوارع بالمظاهرات ، ونشطت جماعة الأخوان في قيادتها لهذه المظاهرات وكذلك نشطت القوى السياسية المصرية في التعبير عن وجودها وراحت تختبر نفسها كقوة سياسية لازالت قادرة على العمل .

تحرك الإخوان والوفديون وأعضاء الحزب الاشتراكي وأحزاب الأقلية المتعاطفون مع الصورة التي جسدتها الدعاية لمحمد نجيب سقط ثلاثة عشر قتيلاً من المدنيين وسقط عدد آخر من الجنود ورغم ذلك واصلت المظاهرات سيرها إلى

ميدان عابدين وهي تهتف بالحرية وسقوط الديكتاتورية ، وتنادي بحياة نجيب و " السجن لجمال وصلاح . " (1)

يقول أحمد طعيمة المسئول عن هيئة التحرير في مذكراته : " كان الموقف خطيراً للغاية وقد استدعى ذلك عدم مغادرتنا مكاتبنا أنا والطحاوي لعدة أيام إذ كانت المظاهرات تعج بشوارع القاهرة وميدان عابدين منادية بسقوط جمال عبد الناصر وصلاح سالم لدرجة أن صلاح سالم نام في دواسة السيارة وهو في طريقه للقاء عبد الناصر خوفاً من بطش الجماهير . " (2)

ويؤكد حمروش هذا فيقول " كانت المظاهرات تزداد انتشاراً في شوارع القاهرة وتهتف (لا ثورة بلا نجيب .. إلى السجن يا جمال .. إلى السجن يا صلاح) " (3)

لم تتوقف المظاهرات على مصر فقط بل امتدت إلى السودان أيضا فقد " عمت المظاهرات شوارع الخرطوم وبعض مدن السودان تهتف " لا وحدة بدون نجيب " وكان محمد نجيب قد أصبح رمزاً للوحدة عند السودانيين فمدة خدمته الطويلة هناك، ودفن والده وخاله الضابطين بالجيش في السودان وعلاقته الوثيقة ومعرفته بكثير من الزعماء والبسطاء هناك جعلت منه شخصية شعبية محبوبة في السودان كما في مصر . " (4)

درس في أسباب استبداد الحاكم

أفقدت هذه المظاهرات العارمة صواب أعضاء مجلس قيادة الثورة " وكانت الاستجابة التي تمت بطريقة عفوية وتلقائية أن توجه صلاح سالم بصفته وزيراً للإرشاد إلى دار الإذاعة ودون أخذ رأي أحد من أعضاء مجلس قيادة الثورة وأذاع

(1) كرم شلبي " عشرون يوماً هزت مصر دراسة ووثائق في أزمة مارس " دار أسامة للطباعة والنشر ص ١٠
(2) أحمد طعيمه " شهادة حق " حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ص ٧٩ .
(3) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليه " ج١ مرجع سابق ص٣٤٠ .
(4) نفسه ص ٣٣٩

في السادسة مساء يوم ٢٧ فبراير بياناً بأن المجلس قرر دعوة اللواء محمد نجيب للعودة إلى رئاسة الجمهورية البرلمانية وفي اليوم التالي نشرت الصحف نص البيان ونص رسالة بعث بها محمد نجيب إلى مجلس الثورة يقول فيها " حرصاً على حفظ وحدة الأمة في الظروف الحاضرة وبناءً على دعوة مجلس قيادة الثورة قبلت رئاسة الجمهورية البرلمانية المصرية . " (1)

أرأيتم كيف أحبط الشعب المصري أول خطوات عبد الناصر نحو الديكتاتورية وأجبره على العودة إلى الدستور وإعادة الأحزاب والديمقراطية والبرلمان ؟

هل صدقتم أن سكوت الناس على الحاكم الظالم يطغيه ، وأنه ما كان الطاغية ليطغى إلا بسكوت شعبه عليه ؟

يقول المثل المصري الشعبي : " قالوا لفرعون إيش فرعنك قال ملقتش حد يلمنى"

" لقد كان واضحاً أن القوى السياسية المصرية رغم التناقض بينها قد التفت في لحظات معينة وسار الإخوان مع الشيوعيين والوفد مع أحزاب الأقلية ، والذين حاكمتهم الثورة إلى جانب الذين قامت الثورة من أجلهم ، وتحرك الجميع في مسيرة واحدة ضد الثورة من أجل الحرية والديمقراطية ." (2)

يقول نجيب عن مظاهرات الاحتفال بعودته : " فوجئ الناس بعناوين الصحف تحمل نبأ عودتي فخرجت المظاهرات ، وانهالت البرقيات على المجلس ودور الصحف ورئاسة الجمهورية . كما فرحت مصر فرح السودان أيضاً، فنحر الناس الذبائح ، ووزعوا الفاكهة والشربات ، وأرسلوا في أول يوم من الخرطوم إلى القاهرة ٢٠ ألف برقية تهنئة .

وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح ٢٨ فبراير خاطبت الجماهير الغفيرة من قصر عابدين وحاولت التخفيف من حدة الأزمة ، وطلبت منهم أن يحافظوا على الوحدة وأن يساعدوا إخوانهم أعضاء مجلس قيادة الثورة .

---

(1) كرم شلبي " عشرون يوما هزت مصر دراسة ووثائق في أزمة مارس " مرجع سابق ص ١١

(2) نفسه ص١٢ .

وفي ذلك اليوم خرجت مظاهرات ضخمة من جماعة القاهرة ، قاصدة ميدان الجمهورية ، وكان المتظاهرون يهتفون بحياتي ، وحياة الديمقراطية ، وردد بعضهم هتافات معادية ضد مجلس قيادة الثورة ، فوقعت اشتباكات بينهم وبين رجال الأمن والبوليس بقيادة البكباشي أحمد أنور الذي كان شديد القسوة والعنف في التعامل مع المتظاهرين ، وأطلق رجال الأمن النيران ؛ فأصابت البعض ، وقبضت على البعض الآخر ، وكان من بينهم عدد من الإخوان الذين ازداد نشاطهم بعد حل جماعتهم .

لقد حوّل أعضاء المجلس مظاهرات الفرح بعودتي إلى مآتم ، حتى أن البعض رفع قمصان الضحايا الملوثة بالدماء في وجهي وأنا أخطب في قصر عابدين بمناسبة عودتي ، ورفع الإخوان عبد القادر عودة على أكتافهم أمامي .

ورغم إنني قلت ساعتها : إنني لم أقبل العدول عن الاستقالة إلا من أجل الحرية والديمقراطية وإجراء انتخابات برلمانية وتأليف جمعية تأسيسية تمثل هيئات الشعب، ستجري الانتخابات التي تعيد الحياة النيابية للبلاد ، إلا أن هتافات الاحتجاج على مجلس قيادة الثورة لم يتوقف ، كانوا يصفونهم بالأعداء ؛ فطلبت من عبد القادر عودة أن يصعد إلى الشفرة بجواري ، وأكدت لهم أن النيابة ستحقق في الحوادث التي وقعت ، وساعتها فقط هدأت الجماهير الغاضبة وانصرفت . " [1]

عبد الناصر والتفجيرات الستة

لكن عبد الناصر الطامع في السلطة الراغب في الاستبداد بها يلجأ إلى سلاح الغدر والخيانة فيدبر وقوع ستة انفجارات في أماكن متفرقة ، منها السكة الحديد ، والجامعة ، وجروبي ، ولم يُقبض على الفاعل . لإثبات أن الأمن غير مستقر ولا بد من العودة بالبلاد إلى حكم العسكر ولا تفكر في الحكم الديمقراطي أبداً .

---

(1) محمد نجيب " كنت رئيسا لمصر " مرجع سابق ص ٢٣٦- ٢٣٧ .

تماماً كما تعمل فلول نظام حسني مبارك ، وأعضاء حزبه الوطني ، وعملاء بعض البلاد العربية التي تخشى على نظمها من ثورة الشعوب ضدها .

يقول جمال حماد مؤرخ الثورة " ذكر كل من خالد محيي الدين وبغدادي في مذكراتهما إن فترة ما بعد أزمة محمد نجيب شهدت انفجارات متعددة في القاهرة .. قال عبد الناصر إنها من تدبيره ليشعر الناس بحاجتهم لمن يحميهم . " (١)

انظروا إلى أي حد يدفع حب السلطة إلى قتل وترويع الآمنين .
ثم تأتي المظاهرات المأجورة كحلقة في مسلسل الغدر بمحمد نجيب الذي ألفه وأخرجه وأشرف على تنفيذه عبد الناصر لينفرد بالحكم .

عبد الناصر والمظاهرات المأجورة

كان عبد الناصر قد دبَّر أمراً بليل مؤامرة على محمد نجيب وعلى قرارات ٢٥ مارس والديمقراطية جميعاً ؛ فقد اتفق مع صاوي أحمد صاوي رئيس اتحاد عمال النقل على قيام عمال النقل بالإضراب التام عن العمل حتى يعود مجلس قيادة الثورة إلى مباشرة سلطاته مرة ثانية ، وتلغى قرارات ٢٥ مارس الديمقراطية .

يقول عبد اللطيف بغدادي : " اعتكف عبد الناصر في منزله وبدأت الأزمة تنفجر وتوقفت الحياة تماماً في مدينة القاهرة يوم ٢٧ مارس بعد أن قام عمال النقل بإضرابهم مطالبين استمرار مجلس قيادة الثورة في مباشرة سلطاته وعدم السماح بقيام أحزاب ، ومعارضة إجراء أي انتخابات حتى يتم جلاء المستعمر ، كما قامت مظاهرات صاخبة تعترض على تلك القرارات وتطالب ببقاء المجلس ، وكانت تهتف هتافات موحدة : لا تتخلى عنَّا يا جمال .. إلى القتال يا جمال .. لا حزبية ولا انتخابات .

واستمرت الفوضى تعم البلاد ثلاثة أيام وكان آخر ما قام به المتظاهرون هو الهجوم على مبنى مجلس الدولة والاعتداء على الدكتور عبد الرازق السنهوري

(١) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو " مركز الأهرام للطباعة والنشر ص ١٦١ .

رئيس المجلس على أساس أنه هو الذي أعد قرارات إجراء الانتخابات وتشكيل الجمعية التأسيسية وسيتولى رئاسة الوزراء ، وفي ٢٩ مارس اجتمع مجلس الثورة وقرر العدول عن قراراته السابقة ، والبقاء في الحكم حتى يتم الجلاء .

وانتصر عبد الناصر على نجيب في هذه المرة ، وكان ثمن انتصاره ٤ آلاف جنيه دفعها إلى صاوي أحمد صاوي رئيس اتحاد عمال النقل " (١)

ويعترف جمال عبد الناصر نفسه لصديقه العزيز خالد محيي الدين بهذه المؤامرة.

يقول خالد محيي الدين : " لابد أن أقرر أن عبد الناصر والزملاء في مجلس الثورة كانت لهم أيضاً حساباتهم التي تنطلق أولاً وأساساً من ضرورة احتفاظهم بالسلطة بشكل أو بآخر ، ولم تكن قرارات ٥ مارس نابعة إلا من الإحساس بالمأزق، ومحاولة وجود مخرج يكفل لهم الاستمرار ، فلما تراكمت المشاكل وتبينت لهم احتمالات نهوض قوى سياسية أخرى لمعارضتهم خشوا من إفلات الزمام من أيديهم ، وتراجعوا عن القرارات وانقلبوا إلى النقيض .

إذن أردك عبد الناصر أن خطة ٥ مارس لا يمكن تنفيذها مع استمرار احتفاظه بالسلطة ، وبدأ في الالتفاف على الخطة ، وترتيب الأمر للاتجاه في مسار مضاد تماماً .

وطول هذه الأيام انهمك عبد الناصر في تنفيذ خطته فحشد أكبر قدر ممكن من ضباط الجيش حوله ، وبالتحديد حشدهم حولهم على أساس رفض الديمقراطية ، وأنها ستؤدي للقضاء على الثورة ، وبدأ عن طريق طعيمة والطحاوي في ترتيب اتصالات بقيادة عمال النقل العام لترتيب الإضراب الشهير .

ولك – عزيزي القارئ – أن تتصور إضراباً لعمال النقل تسانده الدولة ، وتحرّض عليه وتنظمه .

وأتوقف تحديداً أمام كلمة " تموّله " هذه فلقد سرت أقاويل كثيرة حول هذا الموضوع ، لكنني سأورد هنا ما سمعته من عبد الناصر بنفسي ، فعند عودتي من

---

(١) سامي جوهر " الصامتون يتكلمون " مرجع سابق ص ٢٦ .

المنفى التقيت مع عبد الناصر ، وبدأ يحكي لي ما خفي عني من أحداث أيام مارس الأخيرة ، وقال بصراحة نادرة : لما لقيت المسألة مش نافعة قررت أتحرك ، وكلفني الأمر أربعة آلاف جنيه " (١)

ويقول أحمد حمروش : " كان عبد الناصر قد اتفق مع بعض العناصر الموالية له والتي تخشى إن انتهت الثورة أن يقدموا للمحاكمة من أمثال إبراهيم الطحاوي سكرتير مساعد هيئة التحرير ، والصاوي أحمد الصاوي سكرتير عمال النقل وغيرهما ، اتفق عبد الناصر معهم وأمدهم بالمال لإحداث ثورة مضادة لقرارات ٢٥ مارس وتمت المؤامرة " (٢)

أرأيتم إجراماً في حق الوطن أكبر من هذا ؟

أرأيتم مؤامرة للقضاء على الحرية والديمقراطية أحقر من هذه ؟

أيها السادة هذه المؤامرة كلفت مصر والعرب ضياع حاضرها ومستقبلها ، وجرّت الخراب والدمار علينا إلى يوم الناس هذا . تصور معي عزيزي القارئ أن قرارات ٥ – ٢٥ مارس ١٩٥٤ قد طُبقت وأصبح في مصر حياة ديمقراطية حقيقية. كم كانت ستكسب مصر ، والعالم العربي ؟

إننا نحارب من سنين طويلة من أجل تحقيق الحد الأدنى للديمقراطية والحرية والانتخابات النزيهة ، والعدالة الاجتماعية . ولم نظفر منها إلا بالنزر اليسير .

وكم كلفتنا الديكتاتورية التي انتصرت يوم ٢٩ مارس ١٩٥٤ ؟

لقد كلفتنا الديكتاتورية مئات الآلف من الشهداء والجرحى الذين استشهدوا وأصيبوا في حروب خاسرة دخلها عبد الناصر دون إعداد وجرّت علينا الهزائم وضياع الأرض والشرف والعرض .

كلفتنا سنوات طويلة من القهر والذل والعبودية للحكام إلى يوم الناس هذا .

---

(١) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مرجع سابق ص ٢٩٧ ، ٢٩٨

(٢) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليه " ج١ مرجع سابق ص ٣٥٢

كلفتنا الفقر والجهل والمرض تلك الأمراض المزمنة التي تفشت في الأمة .

كلفتنا تغييباً لوعي الأمة بحيث لم تعد قادرة على اتخاذ القرارات التي تحقق مصالحها الحقيقية ، بعدما أصبح مثلها الأعلى يتمثّل في جمال عبدا الناصر زعيم الأمة وحبيب الملايين !!

{ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ } (يس : ١٢)

نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم : آثار الخير ، وآثار الشر ، التي كانوا هم السبب في إيجادها ، في حال حياتهم ، وبعد وفاتهم وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم ، وأحوالهم .

يقول النبي ﷺ : " مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا ، بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا ، بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ " (حديث صحيح رواه مسلم وغيره)

فكم يتحمل عبد الناصر من أوزار من جراء سنّه الدكتاتورية ؟

يقول خالد محيي الدين : " جاءت أحداث مارس ١٩٥٤ خاضها عبد الناصر بكل ثقة واستطاع أن يسيِّر مظاهرات تهتف " تسقط الديمقراطية " وانتصر عبد الناصر في مارس ١٩٥٤ لكنه لم يدرك في أن كسب جولة كهذه شيء ، وكسب المسار التاريخي شيء آخر ، وفي اعتقادي أن مارس ١٩٥٤ ونجاح عبد الناصر فيه مثّل تجربة ظلّت تهيمن لفترة طويلة على أسلوب عبد الناصر في الحكم ، وتصرفاته إزاء معارضيه ، واستمدَّ من نجاحه في مارس أساساً فعلياً لتجربته ، ولم يدرك أن مثل هذا النجاح وقتي بالضرورة ، ولم يكتشف متى يتعيَّن عليه العودة إلى الديمقراطية ، والتعددية الحزبية ، وانساق وراء وهم التجربة حتى كانت هزيمة ١٩٦٧ ، وفي اعتقادي أن هزيمة يونيو ١٩٦٧ لم تكن هزيمة عسكريَّة ، بل هي

في الجوهر هزيمة سياسية لنظام فشلت آلياته في اكتشاف ما إذا كانت البلاد جاهزة للحرب أم لا ، وبعد الهزيمة كانت هناك فرصة تاريخية لتحقيق الديمقراطية ، لكن هذه الفرصة ضاعت لأن الديمقراطية تتطلب من الحاكم أن يقدم تنازلات للشعب ، ولم يكن عبد الناصر مستعداً – حتى بعد الهزيمة – أن يقدم أية تنازلات . وللحقيقة فإنني أعتقد أن أزمة الديمقراطية التي ولدتها ثورة يوليو لم تزل قائمة في بلادنا حتى الآن ." (١)

وفي اليوم التالي بدا عبد الناصر في تصفية حساباته مع الجميع ، على ضوء هذه الأزمة .

وينجح عبد الناصر بوسائله التآمرية في الوصول إلى سدة حكم مصر بعد إلغاء قرارات ٥ ، ٢٥ والإعلان عن إنشاء المجلس الوطني الذي لم ينعقد قط .

يقول جمال حماد " يوم ٢٩ مارس اجتمع مجلس الثورة وصدر القرار ٢٩ مارس ينص على إلغاء قرارات ٥ مارس الديمقراطية وتكوين مجلس وطني من ممثلي الشعب والجمعيات ولكن عمره ما تعمل المجلس الوطني " (٢)

ميلاد ديكتاتورية الثورة

ويُعَدُّ يوم ٢٩ مارس ١٩٥٤م الميلاد الحقيقي لديكتاتورية الثورة والتي ستظل سُنَّة متبعة للحكم في مصر مع اختلاف مجالاتها فإذا كانت ديكتاتورية عبد الناصر كانت شاملة لكل جوانب الحياة وليست دكتاتورية سياسية فقط فإن الديكتاتوريات التالية اقتصرت في مجملها على الديكتاتورية السياسية فقط مع قيام ليبرالية اقتصادية مع مساحة من الحرية تتراوح بين المد والجزر حسب الأحوال .

وتتوالى الأحداث عاصفة من الآن فصاعداً فيقرر عبد الناصر أن يقبض على زمام الحكم بقبضة من حديد وتنزل القوات المسلحة إلى الشارع بعدما استطاع عبد

(١) خالد محيي الدين " الآن أتكلم " مرجع سابق ص ٢١٤ ، ٢١٥ .
(٢) طارق حبيب " ملفات ثورة يوليو " مرجع سابق ص ١٦١ .

الناصر أن يخضعها لسلطته بحجة حفظ الأمن ولكن الحقيقة كانت مهمتها قمع كل القوى السياسية المعارضة لعبد الناصر وسياسته .

هكذا حقق جمال عبد الناصر ما كان يتمنى :

- عُزِلَ محمد نجيب من رئاسة الجمهورية .

- حُلّت الأحزاب السياسية ووضع قادتها في السجون .

- أُغلقت صحيفة المصري التي لعبت دوراً كبيراً في أزمة مارس .

- حُلّت جماعة الإخوان المسلمين وأعدم قادتها ووضع الألوف من أعضائها في المعتقلات والسجون .

- فشلت محاولات الانقلاب العسكري التي دبرها ضباط سلاح الفرسان وقبض على ١٦ ضابطاً وأودعوا السجون ، وانتهت التنظيمات .

- حُلّت نقابة الصحفيين والمحامين ، وعينت لها لجان مؤقتة موالية لمجلس قيادة الثورة . (١)

ويستطيع عبد الناصر بالحيلة والخداع أن يعتقل محمد نجيب وينفرد بحكم مصر ، ويقمع كل القوى المناوئة له ويفرض على مصر نظاماً استبدادياً دام لأكثر من ستة عشر عاماً حرم الشعب فيه كل أنواع الحرية بدأ من حرية التظاهر السلمي وانتهاء بحرية التعبير عن الرأي . (٢)

مظاهرات الطلبة والعامل عام ١٩٦٨ م

وجاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧ لتكشف الغطاء عن النظام الفاسد ، والشعارات المزيفة ويخرج شباب العمال والطلاب على نظام عبد الناصر بعد نحو ثمانية شهور من هزيمة يونيو ٦٧ بعدما اكتشفوا حجم الهزيمة ، وفداحة الأخطاء التي

(١) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليه " ج١ مرجع سابق ص ٣٦٤ ، ٣٦٥

(٢) لمزيد من التفاصيل حول كيف استولى عبد الناصر على حكم مصر راجع كتابنا " العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو " مكتبة غريب .

ارتكبها النظام ()في حق شعبه فاندلعت انتفاضتا فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ وتخللهما هتاف ضد عبد الناصر : " يا خالد قول لأبوك ثلاثين مليون كرهوك .. دي مش عزبة أبوك " (٢)

لقد نهضت الحركة الطلابية بعد أن سكنت طيلة عهد ثورة يوليو .

راح الشعب المصري طوال العهد الناصري في سبات عميق رأوا فيه حلماً جميلاً صنعه عبد الناصر وآلة إعلامه الجبارة التي سخرّها للتضخيم من منجزاته وتبرير إخفاقاته وعندما وقعت هزيمة ٦٧ استيقظ الشعب المصري ليجدوا أن مراكبهم تتلاعب بها الرياح وتوشك على الغرق ، وربانها الوحيد يقول لهم لقد أخطأت وعليّ أن أتنحى عن القيادة تنفيذاً لأمر أمريكا وإسرائيل فهبّ الشعب المصدوم وقال لا تتنحى فإننا لا نعرف غيرك ولا نريد أن يشمت فينا الأعداء !

وانطلت مسرحية التنحي على الشعب المخدوع الجريح ولكن بعد نحو ثمانية شهور من هزيمة يونيو ٦٧ ومسرحية التنحي اكتشف الشباب والعمال حجم الهزيمة، وفداحة الأخطاء التي ارتكبها النظام في حق شعبه فاندلعت انتفاضتا فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ وتخللهما هتاف ضد عبد الناصر " يا خالد قول لأبوك ثلاثين مليون كرهوك .. دي مش عزبة أبوك " (٣)

اكتشف الشباب أن المنجزات الناصرية التي ضحّى الشعب المصري بحريته من أجلها ما هي إلا نكسات ؛ فزعيم القومية العربية قد مزّق العرب ، وزعيم التحرر الوطني قد أضاع سيناء ، والضفة الغربية ، وقطاع غزة ، والجولان وقبل كل ذلك القدس الشريف ، وزعيم كتلة عدم الانحياز قد ارتمى في حضن الاتحاد السوفيتي البارد ، ورافع شعار كفاية في الإنتاج وعدالة في التوزيع قد التهمت مغامرته الخارجية الإنتاج ويده الباطشة قد وزعت الفقر والقهر على الجميع .

يقول د. أحمد عبد الله أحد قيادات الشباب الذين قاموا بمظاهرات الطلاب في فبراير ونوفمبر ٦٨ : " على المستوى السياسي كان النظام سلطوياً قمعيّاً على وجه

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هزيمة ٦٧ راجع كتابنا " هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية " مكتبة غريب.
(٢) انظر دراسة د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " ضمن كتاب " حرب يونيو ١٩٦٧ بعد ثلاثين عاماً " تحرير لطفي الخولي ص ٤٣ مركز الأهرام للترجمة والنشر .
(٣) نفسه ص ٤٣ .

العموم؛ إذ رفض التعددية السياسيه ، واحتكر الحكم صفوة عسكرية / مدنية أحادية ولم تغب فقط حريات التنظيم السياسي والنقابي والتعبير المستقل للأفراد والجماعات، بل غاب الكثيرون من المخالفين في غياهب المعتقلات الصحراوية "(١)

يقول السادات عن أسباب مظاهرات فبراير ٦٨ : "كانت محاكمة أعوان عبد الحكيم عامر أمراً لا مفرٌ منه ؛ فقد بدأت الناس تفيق بعد ٩ ، ١٠ يونيو تتساءل من المسئول عن الهزيمة ؟ ولماذا حدثت ؟ كما بدءوا يدركون أن عملية الصراع بين عامر وناصر لعبت دوراً رئيسيّاً في الكارثة التي حلّت بمصر .

رأس المحكمة حسين الشافعي وقد جعلها علنية كما طلب هو من عبد الناصر وطبعا حاول المتهمون إنقاذ رقابهم فحوّلوا القضية إلى محاكمة لثورة ٢٣ يوليو فكانت النتيجة أن اختفى الوجه الجميل للثورة وهو إنجازاتها ولم يظهر غير وجهها القبيح وهو تضاعف الإجراءات الاستثنائية وكبت الحريات ، وكل ما جعل الناس تضيق بالثورة .

رأى الناس هذا الوجه للثورة وكأنه وجهها الوحيد فزاد سخطهم وخاصة أن جروح الهزيمة كانت مازالت تدمي في قلوبهم فكانت النتيجة الحتمية لهذا انفجار الطلبة في فبراير سنة ٦٨ الذي ما لبث أن عمّ جميع فئات الشعب . " (٢)

انتفاضة الشباب الأولى

اندلعت الانتفاضة في ٢١ فبراير على يد عمال حلوان فور إعلان حكم المحكمة العسكرية في قضية ضباط سلاح الطيران المتهمين بالإهمال ، والذين كان الرأي العام يرى أنهم مسئولون عن جانب كبير من الهزيمة العسكرية .. واعتبر عمال المصانع الحربية ، وكذلك زملاؤهم عمال الصناعات الأخرى أن الأحكام مخففة للغاية ، وكان رد فعلهم هو الخروج إلى الشوارع حيث أصيب عشرات منهم في

---

(١) د. أحمد عبد الله "رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية" مرجع سابق ص ٢٤ .
(٢) محمد أنور السادات "البحث عن الذات" المكتب المصري الحديث ص ٢٠٩ .

صدامات مع الشرطة أمام قسم حلوان ، وتصاعدت الأحداث التي بدأت بهذا الاحتجاج للتحوّل إلى انتفاضة جماهيرية واسعة شارك فيها الطلبة بدور فعّال .

وفي الأيام التالية خرج الطلبة من بوابات الجامعة لأول مرة منذ عام ١٩٥٤ م كان وجودهم في شوارع القاهرة والإسكندرية ملموساً ، وظلوا على هذه الحالة جنباً إلى جنب مع زملائهم المتظاهرين من المناطق الصناعية والمناطق الأخرى في المدينتين حتى ٢٧ فبراير ، ونتج عن انتفاضة القاهرة وحدها مصرع اثنين من العمال ، وإصابة ٧٧ من المواطنين ، و ١٤٦ من رجال الشرطة ، وألقي القبض على ٦٢٥ شخصاً . بالإضافة إلى تدمير بعض المركبات والمباني في العاصمة .

وشارك في الانتفاضة الآلاف من طلبة الجامعات الكبرى في القاهرة والإسكندرية ، وكان لطلبة كلية الهندسة بجامعة القاهرة دورهم المتميز ، حيث كانوا في قلب الأحداث في واقعتين لهما أهميتهما الخاصة . وقعت الأولى في ٢٤ فبراير عندما شكلت مجموعة من طلبة الهندسة الكتلة الأساسية من وفد تكوّن من الطلبة المتظاهرين أمام مجلس الأمة والذين سمح لهم بالدخول لتقديم مطالبهم لرئيس المجلس أنور السادات . وعند تسجيل أعضاء الوفد لأسمائهم عبروا عن مخاوفهم بأنهم ربما يتعرضون للاعتقال فأعطاهم رئيس المجلس كلمة شرف بل إن أحداً منهم لن يصاب بسوء ، بل والأكثر من ذلك أنه أعطاهم رقم تليفونه الخاص للاتصال به في حالة حدوث شيء من هذا القبيل . ومع ذلك اتضح ان مخاوف الطلاب كانت لها ما يبررها تماماً ، حيث تمّ اعتقالهم في منازلهم في نفس الليلة !!

وفي اليوم التالي عقد الطلبة الذين استشاط غضبهم للقبض على زملائهم اجتماعاً موسعاً ، وقرروا تنظيم اعتصام في كلية الهندسة وبالرغم من أن الحكومة كانت قد قررت تعطيل الدراسة في ٢٥ فبراير فإن الاعتصام ، وهو الواقعة الثانية التي ارتبت بطلاب الهندسة تم في ذلك اليوم واسمر ثلاثة أيام ، بينما كانت الانتفاضة في سائر البلاد آخذة في الأفول .

وكانت صيغة التسوية التي أنهت الاعتصام هي ما عرض على الطلبة من خلال وساطة إبراهيم جعفر ، وهو أن يتقدم الطلاب بمطالبهم إلى رئيس مجلس الأمه حيث تمَّ نقلهم من الكلية إلى المجلس ، وانعقد الاجتماع المقترح يوم ٢٨ فبراير باعتباره إنهاء للاعتصام وكان في واقع الأمر إنهاء لانتفاضة فبراير ١٩٦٨م كلها. ودارت مناقشات ساخنة بين الطلاب من جهة والمسئولين من جهة أخرى . بدا أثناء هذه المناقشات أن حجة الطلاب أقوى طبقا لما ذكره أحدهم : "ولا أذكر أن مجموعة من الوزراء قد استهزىء بها مثلما حدث في هذه الجلسة " .

جدير بالذكر أن بيان اعتصام كلية الهندسة بالقاهرة قد احتوى على المطالب التاليه

١- الإفراج فوراً عن جميع الطلاب المعتقلين .

٢- حرية الرأي والصحافة .

٣- مجلس أمة حر يمارس الحياة النيابية الحقة السليمة .

٤- إبعاد المخابرات والمباحث عن الجامعات .

٥- إلغاء القوانين المقيدة للحريات ووقف العمل بها .

٦- التحقيق الجدي في حادث العمال في حلوان .

٧- توضيح حقيقة المسألة في قضية الطيران .

٨- التحقيق في انتهاك حرمة الجامعات واعتداء الشرطة على الطلبة .(١)

ويضح جليّاً من هذا البيان أن مظاهرات العمال والطلبة لم تكن من أجل اعتراضهم على ضعف الأحكام الصادرة ضد قادة طيران هزيمة يونيو فحسب بل كانت من أجل المطالبة بحياة ديمقراطية سليمة تتمثل في برلمان حر يمارس الحياة النيابية الحقة السليمة ، وحرية الرأي والصحافة ،وإلغاء القوانين المقيدة للحريات ووقف العمل بها ، وإسقاط دولة المخابرات .

---

(١) د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٢٧- ٢٩ بتصرف .

وقد تضمنت الشعارات التي كتبت على جدران كلية الهندسة إبان الاعتصام عبارات مثل : " يجب إنهاء حكم المباحث والمخابرات " ، " تسقط دولة المباحث " ، " تسقط صحافة هيكل الكاذبة " ، " لا حياة مع الإرهاب ، ولا علم بلا حرية " ، " القضية ليست قضية الطيران بل قضية الحريات " .

وكانت بعض الشعارات التي كررها المتظاهرون موجهة ضد النظام نفسه تحديداً : " تسقط دولة العسكريين " ، يا جمال للصبر حدود ، عشرة يونيو مش هيعود " ، " ٩ يونيو أيدناك ، والنهارده عارضناك " .[١]

لم تكن انتفاضة الطلاب في فبراير ١٩٦٨ إذن مجرد احتجاج على أحكام محكمة عسكرية على مجموعة من المتهمين بالإهمال ، إنما كما يفسرها د. فؤاد زكريا : " كانت حركة الطلاب ١٩٦٨ تلخيصاً للسخط الجارف الذي اجتاح البلاد بعد هزيمة ١٩٦٧ . على أن الروح العامة التي كانت وراء هذا التحرك الطلابي كانت تعبر عما هو أكثر من السخط على الهزيمة ، إذ كانت في الواقع تعبيراً عن عدم الرضا عن أسلوب كامل في الحكم تعد الهزيمة العسكرية مظهراً من مظاهره السلبية "

وكان الأثر السياسي للانتفاضة رائعاً في البلد ككل وداخل الجامعات ، فعلى المستوى القومي اضطر عبد الناصر لأن يصدر قراراً بإعادة محاكمة الضباط المتهمين بالإهمال ، وتشكيل وزارة جديدة كان أغلبها من المدنيين ، معظمهم من أساتذة الجامعات ، وذلك لأول مرة في عهده ، والأمر الأكثر دلالة هو أنها جعلته يسعى لتجديد شرعية نظامه من خلال برنامج " ٣٠ مارس " بما كان يتضمنه من إصلاحات ليبرالية موعودة في النظام السياسي . "[٢]

([١]) د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٢٩ ، ٣٠ .
([٢]) نفسه ص ٣١ .

ولكن إعلام عبد الناصر وذيول نظامه قد عملوا على قصر المطالب علـى أحكـام الطيران فقط وتجاهلوا سائر المطالب !!

رغم أن عبد الناصر نفسه اعترف بمطالبة الثوّار بحياة ديمقراطية سليمة ، وإلغـاء الاتحاد الاشتراكي ، وتنظيم الشباب التابعين للنظام الحاكم . وإطـلاق الحريـات العامة ، وحرية الصحافة .

يقول عبد الناصر : " النظرة الأعمق أمامنا تبين أن هناك أشياء كثيرة وحيويـة لا ينبغي أن ننساها، ولا ينبغي أن تنسى.. يعنى طلعت شعارات في هذه الأيام، زى ما قلت لكم إن المظاهرات مشيت سليمة، وبعدين طلعت شـعارات غريبـة؛ طلعـت شعارات مثلاً تنادى بإلغاء الاتحاد الاشتراكى، طلعت نداءات أو شـعارات تنـادى بإلغاء منظمات الشباب، وبعدين طلعت شعارات تنادى بحل مجلس الأمة. طبعاً مع هذه الشعارات فيه شعارات بالحرية، وفيه شعارات بالديمقراطية، فيـه شـعارات بحرية الصحافة." (1)

فلم يكتف نظام عبد الناصر باعتقال وتعذيب الثوّار الشرفاء من العمال والطلبة بل راحوا يسيئون إليهم ويتهمونهم بالعمالة والرجعية والثورة المضادة !!

يقول عبد الناصر : " الظروف اللى بنعيش فيها النهارده تشجع الثـورة المضـادة، ليه؟ لأن احنا قابلنا نكسة في ٥ يونيو، والاستعمار والصهيونية اسـتطاعوا إنهـم يلحقوا بنا الهزيمة.. طبعاً الرجعية تنتعش، الرجعية تشعر إن أمامها فرصة، ومـن ورائها الاستعمار لتنقض على هذه الثورة .
ويستغلوا مين؟ يستغلوا الشعب الطيب.. الشعب البرىء، واحنا نعرف حتـى فـى الماضى قبل الثورة يمكن العمال ضللوا بواسطة الرجعية، والطلبة أيضـاً ضـللوا بواسطة الرجعية، أنا باقول إن العملية بدأت عملية تلقائية أما بدأت هنا فى حلوان، وبدأت عملية تلقائية أما بدأت فى الجامعة، ولكن بعد كده العملية ما أصبحتش عملية تلقائية .

(1) من خطاب جمال عبد الناصر في مؤتمر الاتحاد العام للعمال بحلوان بتاريخ ٣/ ٣/ ١٩٦٨ .

كل واحد يمكن فى البلد له أوضاع طبقية، وأنا برضه باقول لإخواننا الطلبة فى الجامعة: قبل ما تنقاد ورا أى شعار شوف مين اللى يردد هذا الشعار، وكل واحد له أوضاع طبقية..

طبعاً فيه ناس اتاخدت أملاكهم، وفيه ناس اتاخدت أراضيهم، فيه ناس اتأممت مصانعهم، ودول أولادهم موجودين فى أوساطنا، بيسمعوا منا كلام ويروحوا فى البيت يسمعوا كلام تانى.. يسمعوا منا فى المدارس والمعاهد كلام عن الثورة والاشتراكية، لكن بيروحوا فى البيت بيسمعوا الكلام اللى بيمثل الرجعية.. بيتأثروا طبعاً بما يحدث فى بيوتهم وبما حصل فى عائلاتهم .

وأنا قلت لكم إن ثورتنا ماكانتش ثورة دموية عازلة أبداً ..احنا قلنا بالوسائل السلمية بنزيل الفوارق بين الطبقات، الرجعية اتحركت .. ازاى؟

حاولوا استغلال مظاهرات الطلبة بعد كده، حاولوا يتصلوا بالعمال، وأنا شفت أحمد فهيم، وعرفت منه محاولات بكل الوسائل للاتصال بالعمال فى أماكن مختلفة فى البلد.. ليه ؟ علشان العمال يسيروا فى طريقهم، ورفعوا لهم أيضاً شعارات الحرية والديمقراطية . " [1]

الانتفاضة الثانية

لم تمر بضعة أشهر على انتفاضة فبراير ٦٨ حتى عاد الطلاب مرة أخرى للضغط على نظام عبد الناصر .

وكانت قوانين التعليم في ذلك الوقت تسمح لطلاب المدارس الثانوية بدخول الامتحانات لأي عدد من المرات ، وتضمن للطالب النجاح العام برغم رسوبه في مادتين (غالباً الرياضيات واللغات الأجنبية) .

([1]) من خطاب جمال عبد الناصر في مؤتمر الاتحاد العام للعمال بحلوان بتاريخ ٣/ ٣/ ١٩٦٨ .

فصدر قانون جديد للتعليم يرفع درجة النجاح الصغرى في عدد من المواد بالمرحلة الثانوية ، وينهى الانتقال التلقائي من صف دراسي إلى آخر في المرحلة الابتدائية ، ويضع حدا أدنى من الدرجات للالتحاق بالمرحلة الإعدادية .

نشر قانون التعليم الجديد في الصحف يوم ١٩ نوفمبر ١٩٦٨ . وفي اليوم التالي خرج طلاب المدارس الثانوية في مدينة المنصورة إلى الشوارع احتجاجاً على القانون الجديد .

و في يوم ٢١ نوفمبر١٩٦٨ استمرت المظاهرات التي بدأها هذه المرة طلاب المعهد الديني الأزهري البالغ عددهم ألفين من الطلاب خشية أن يتأثروا بهذا القانون الجديد الذي لا ينطبق عليهم . و اتجه الطلاب المتظاهرون إلى مديرية الأمن . وطلقت الشرطة الرصاص على المتظاهرين لتقتل ثلاثة من الطلاب ومزارعاً ، بينما جرح ٣٢متظاهراً و ٢٣ شرطياً .

انتقلت أخبار الاحتجاجات التي شهدتها المنصورة إلى جامعة الإسكندرية التي تضم عدداً من أبناء الدقهلية . وفي يوم ٢٥ نوفمبر حدث إضراب بالإسكندرية ، كما شهدت المدينة مظاهرات على نطاق لم تشهده من قبل ، وانتهت بصدام دامٍ بين الشرطة . وكما توضح أرقام الخسائر ، فإن الطلاب لم يكونوا وحدهم في هذه الأحداث : إذ لقي ستة عشر شخصاً مصرعهم (٣ طلاب ، ١٢ من الأهالي ، وتلميذ عمره ١٢ عاماً) في حين أبلغ عن وصول ١٦٧ مصاباً من الأهالي إلى المستشفيات كما أصيب ٢٤٧ من رجال الشرطة ، وألقي القبض على ٤٦٢ شخصاً، ووفقاً لتقرير وزير الداخلية فإنه تلقى تقريراً بالصور الفوتوغرافية حول الممتلكات التي دمرت أثناء المظاهرات وتتضمن : تحطيم ٥٠ سيارة أتوبيس نقل عام ، ٢٧٠ لوح زجاج ترام ، ١١٦ إشارة مرور ، ٢٩ كشك مرور ، وزجاج ١١ محلا تجاريا ، وحرق أثاث نادي موظفي المحافظة . [1]

( ) د. احمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٣٦ .

لقد مثّلت الانتفاضتان الطلابيتان في فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ تعبيراً شبابيّاً مرتفع الصوت عن أزمة كل من النظام السياسي ، وأزمة جيل ١٩٦٧ كليهما ، وكان التفاعل الصدامي بين الطرفين مؤذناً بتجاوز الهيمنة الأيديولوجية والسياسية للنظام على جيل الشباب ، حسبما أبرز ذلك الفرق بين تأييد النظام ف ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧ والتمرد عليه في فبراير ونوفمبر ١٩٦٨ ، وقد مثّل ذلك نوعاً من الانتقال من حال إلى حال في ديناميات النظام السياسي . إلا أنه جاء انتقالاً محجوزاً لم يأت بتحوُّل نوعي فقد نقي النظام متراوحاً بين أعمال برنامج ٣٠ مارس ، كخميرة للديمقراطية ، وأعمال مبدأ " لا صوت يعلو فوق صوت المعركة " فاستمر النظام كما هو في سياسته ، ولم ينطلق عقال الانتقال إلا بعد وفاة عبد الناصر ومجيء السادات للرئاسة . " [1]

يقول السادات : " لجا عبد الناصر إلى احتواء الانفجار فأصدر بيان ٣٠ مارس الذي حاول فيه أن يمتص غضب الشعب بمعالجة لكل الأمور التي تشكو منها الناس بعد أن كشفت لهم القضية عن الوجه القبيح للثورة . " [2]
ويموت عبد الناصر دون أن يغسل عار الهزيمة التي جلبها لمصر والعالم العربي، ودون أن ينفّذ شيئاً من الإصلاحات السياسية التي وعد بها في بيان ٣٠ مارس . [3]

انتفاضة الخبز عام ١٩٧٧

بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م مرت مصر بضائقة مالية بسبب المجهود الحربي ، وكثرة النفقات لتحرير الأرض المحتلة ، واضطرت المجموعة الاقتصادية في مصر إلى رفع أسعار بعض السلع الغذائية الأساسية بعدما رفعت مرتبات الموظفين حتى يواجهوا هذه الزيادة .

---

(١) د. أحمد عبد الله " رد فعل الشباب إزاء الهزيمة القومية " مرجع سابق ص ٣٨ .
(٢) محمد أنور السادات " البحث عن الذات " المكتب المصري الحديث ص ٢١٠ .
(٣) لمزيد من التفصيل عن نظام عبد الناصر انظر كتابنا " نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي " مكتبة غريب .

وما كادت الجماهير تعرف أخبار هذه الزيادة حتى اشتعلت المظاهرات في ربوع الوطن كله ، وقد نفخ حزب التجمع والقوى اليسارية والناصرية ، وجماعة الإخوان المسلمين في نار هذه الانتفاضة حتى تأججت .

إذن السبب المباشر لاندلاع الانتفاضة في صباح ١٨ يناير ١٩٧٧ هو قرار الحكومة برفع أسعار سلع أساسية مثل الخبز والشاي والأرز والسكر واللحوم والمنسوجات، وغيرها من السلع الضرورية بنسبة تصل إلى الضعف .

وفرض حظر التجوال ونزل الجيش إلى المدن للسيطرة على المظاهرات وأعمال التخريب التي استهدفت المباني الحكومية والمحلات التجارية، واعتقل الآلاف من المتظاهرين من العمال والطلبة .

ورغم اضطرار الحكومة للتراجع عن قرار رفع الأسعار، واصل السادات وصف الانتفاضة في خطبه بـ"انتفاضة الحرامية"؛ بسبب أعمال سلب استهدفت المجمعات الاستهلاكية خلال الأحداث.

وكانت أهم الشعارات التي رفعها المتظاهرون هي :

" يا حكومة هز الوسط .. كيلو اللحمة بقي بالقسط "

"هما بياكلوا حمام وفراخ .. واحنا الجوع دوخنا وداخ "

" هو بيلبس آخر موضة .. وإحنا تاكلنا السوق السودا "

" هو بيبني في استراحات .. وإحنا نعاني آهات وآهات "

ونبدأ الحكاية من بدايتها .

أسباب الانتفاضة

كان عام ١٩٧٧ عاماً صادماً في حياة المصريين.. فبعد انتصار أكتوبر العظيم ، وتصريح السادات بأنها آخر الحروب وبدأ الكلام عن السلام يكثر وهلل الإعلام لدولة " العلم والإيمان " واستبشر الناس بحلم "الرخاء" .

كان الجميع ينتظرون موسم هبوط الثروات بعد عقود من الانكماش وأزمات المعيشة بسبب حرب السنوات الست مع إسرائيل، ويعيشون حياة كريمة مثل من

سافر للخليج وعاد محملاً بالدنانير والريالات والأجهزة الكهربية ، ومن عادت لهم ثرواتهم التي كانت تحت الحراسة أيام التأميمات الناصرية ، لكن علي غير المتوقع قرأ الناس في صحف الصباح يوم ١٧ يناير ١٩٧٧ قرارات المجموعة الاقتصادية الصادمة والتي تضمنت إلغاء الدعم الحكومي ورفع أسعار ٢٥ سلعة دفعة واحدة من بينها الدقيق والأرز والشاي واللحوم، وزيادة أسعار السجائر والبنزين والسكر.

في ذلك الوقت كانت المجموعة الاقتصادية تضم عناصر منفتحة وأكثر اتساقاً مع تغيرات العالم ، بينما بقيت مصر شبه منعزلة سنوات طويلة إبان العهد الناصري ، كان هناك الدكتور عبد المنعم القيسوني نائب رئيس الوزراء للشئون المالية والاقتصادية والدكتور زكي مراد وزير الاقتصاد والدكتور حامد السايح وزير الاستثمار وجاءت قرارات يناير استجابة لمذكرة قدمها بول ديكي ممثل البنك الدولي أوصى فيها بتخفيض سعر صرف الجنيه، وتخفيض الدعم عن بعض السلع الضرورية وهو ما مثل صدمة كبيرة للمواطنين الذين كانوا في انتظار عهد الرخاء.

انفجار الانتفاضة

في اليوم التالي لإعلان زيادة الأسعار اشتعل بركان الغضب.. العمال والطلبة والموظفون والعامة حتى السيدات، اندلعت المظاهرات وردد الناس هتافات الغضب ضد ممدوح سالم وزير الداخلية وضد سيد مرعي عضو مجلس الشعب وضد محمود أبو وافية وضد كثيرين ممن كانوا علي رأس نظام الحكم ومن أسوان إلى الإسكندرية تحطمت المحلات التجارية والمنشآت العامة والسيارات .

وتستعر المعركة بين قوات الأمن المركزي وبين الغاضبين ويخلع المتظاهرون بلاطات الشوارع ويلقونها علي قوات الأمن، وتتقدم الجموع نحو قصر عابدين وهي تهتف " يا حاكمنا من عابدين.. فين الحق وفين الدين " ، ويتجه البعض نحو الجامعة الأمريكية وهم يهتفون " يا أمريكا لمي فلوسك.. بكره الجيش العربي يدوسك " ويسقط الجرح وتتعالي الصرخات ويجري الناس وتسود الفوضى

ويضطرب الجميع ويشاهد الناس لأول مرة قوات الجيش والتي يكنون لها احتراماً خاصا ولولا نزولها ما توقفت الأحداث .

وسقط القتلى والمصابون ٧٩ قتيلاً و ٢١٤ جريحاً وأعلنت حالة الطوارئ وغضب الرئيس السادات كما لم يغضب من قبل ونزلت القوات المسلحة لتعيد النظام بعد يومين من الفوضى .

وكان السادات أول من حمّل الشيوعيين مسئولية الأحداث وكثيراً ما أشار إلى ذلك في أحاديثه الرسمية وغير الرسمية، ورفض الرئيس تسميتها بانتفاضة شعبية وأصر علي إطلاق وصف " انتفاضة الحرامية " عليها .

ولاشك أن قوة الحركة الطلابية ساهمت في اتساع الاحتجاجات والمظاهرات، ولا شك أيضا أن هذه الحركة الطلابية كانت نتاج غليان وغضب شعبي يمتد من تاريخ نكسة يونيو ١٩٦٧. لقد ساهمت ثلاثة مصادر قوية في دعم وتنمية الحركة الطلابية المصرية عند عودتها مرة أخري . (١)

من كان وراء الانتفاضة

بدأت الانتفاضة سلمية وتحولت إلى أعمال تخريب وسلب ونهب كعادة الانتفاضات والمظاهرات المصرية ، وإذا كانت المظاهرات السلمية مظهراً حضارياً يفخر كل من شارك فيها إن كانت تطالب بحقوق واستحقاقات لصالح الشعب فإن أعمال السلب والنهب والتخريب التي تصاحب هذه المظاهرات يتنصل منها كل من شارك فيها ويحاول أن يلقي بالمسئولية على أعدائه وخصومه .

فالرئيس السادات ، ورئيس حكومته ، ووزير داخليته ، وصحفه الحكومية ألقوا تهمة السلب والنهب والتخريب على حزب التجمع اليساري ، والشيوعيين ، والناصريين . في حين ألقى حزب التجمع التهمة على عملاء المخابرات الأمريكان،

(١) مصطفي عبيد " شهادة جديدة حول انتفاضة الخبز في يناير ١٩٧٧ " جريدة الوفد بتاريخ ٢٩ ديسمبر ٢٠١٠ .

والرأسمالية الطفيلية . أما الصحف الأمريكية فألقت التهمة على الإخوان المسلمين ودونك بعض التصريحات التي تؤكد ذلك .

يقول رئيس الوزراء " ممدوح سالم " أمام مجلس الشعب " مؤامرة العنف وأنها ثورة ١٥ مايو المجيدة ، بعض خط سير الأحداث يكشف عن العناصر الشيوعية المنظمة ، وبعض قيادات حزب التجمع كانت ترصد تطورات الموقف الاقتصادي ، ومن وجهة نظر واحدة ، كانت تقف على أرضية سياسية واحدة . هدفها الانقضاض على الساحة الجماهيرية والسيطرة عليها . وأن الفريقين تشاركهما بعض العناصر من مدعي الناصرية التي اشتركت في المظاهرات ، سارعوا إلى تحديد توقيت التفجير بمجرد إعلان القرارات الاقتصادية التي أصدرتها الحكومة ، وكان أسلوب التفجير متجهاً منذ البداية إلى إثارة مشاعر الجماهير إلى الحد الذي يصل بالأمور إلى أثارة الاضطرابات على مستوى الجمهورية بأكملها . " [1]

ويقدم حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي وجهة نظر أخرى في بيانين يومي ١٩ ، ٢٤ يناير ١٩٧٧ جاء فيهما : " في الوقت الذي كانت الجماهير المصرية كما بشرتها الصحافة وبيان الحكومة وتصريحات المسئولين تحقيق خطوات فعَّالة في طريق تصحيح المسار الاقتصادي ، وتحسين أحوال الجماهير الكادحة .. فوجئت بقرارات من مجلس الوزراء برفع أسعار عدد من السلع الأساسية والذي يؤدي إلى المزيد من الارتفاع في الأسعار العالية ، والتي تتحمل أعباءها في النهاية الطبقات الشعبية ، والغريب أن تتم هذه الخطوات دون الروع إلى مجلس الشعب والتنظيمات الجماهيرية . وكان رد الفعل التلقائي من الجماهير التي تعاني من تعقد ظروف المعيشة ، وهو محاولة التعبير عن رفضها لهذه القرارات عن طريق التوجه إلى مجلس الشعب لمطالبته برفض هذه الزيادات التي امتصَّت أضعاف العلاوات المقررة للعاملين في الحكومة والقطاع العام ، رغم ما وعدت به الحكومة في بيانها بتحقيق التوازن بين الأسعار والأجور .

([1]) نقلاً عن حسين عبد الرازق " مصر ١٨ و ١٩ يناير " ص ١٣ .

وشعبنا يعرف الحقيقة الكاملة ؛ فقد عبَّر عن نفسه وشارك في حركتي يومي ١٨، ١٩ يناير . وفاجأته قسوة قوات الأمن المركزي ولجوءها إلى العنف في مواجهة الحركة الجماهيرية السلمية بلا مبرر لهذا العنف ، مما أدى إلى بعض أعمال العنف المضادة والاعتداء على بعض الممتلكات العامة والخاصة ، وهيَّأ الجو لعمليات تخريب قامت بها عناصر مختلفة من عملاء المخابرات الأمريكية المركزية والرأسمالية الطفيلية لمخطط يستهدف إلصاق هذه العملية بالقوى الوطنية والديمقراطية والتقدمية ، لاتخاذها ذريعة للقيام بعملية تصفية شاملة لهذه القوى وإيقاف تطور الممارسة الديمقراطية التي بدأت في مصر حديثاً بتعدد الأحزاب ، وإجهاد حزبنا إلى الحد الذي يشل إرادته وقدرته على الاستمرار دفاعاً عن مصالح الشعب والوطن . " [١]

أما مجلة " التايم " الأمريكية فجاء فيها في مقال بعنوان " حقيقة غضب الفقراء ": " ازداد بشكل كبير غضب الفلاحين المصريين والطبقة المتوسطة ، ويشكلان معاً ٩٠% من الشعب المصري الذي يبلغ تعداده ٤٠ مليون ، وذلك ضد مطلبات الحكومة المستمرة بأن يقدموا التضحيات . وتعيش هذه الطبقات تحت ظروف اقتصادية صعبة ، ونقص في المواد الغذائية ، وتضخم يصل إلى ٣٧ % سنويّاً ، ولاحظ الذين ذهبوا لشراء حاجياتهم من محلات الأغذية الخاصة أن الأسعار تعادل ٤ أمثال المجمعات الحكومية ، واشتكوا من زيادة أسعار اللبن واللحوم والخضروات . ومن جمع الشعب فهناك ١٠ % يتمتعون بانتعاش اقتصادي . وقد أصبح الأغنياء أكثر غنى في ظل النظام الحالي . وخصوصاً بعد أن عاد للكثير منهم ممتلكاتهم التي كانت قد وضعت تحت الحراسة في حكم الرئيس الرحال جمال عبد الناصر . كما أصبحت الاستثمارات الخاصة أسهل وذلك في محاولة من

([١]) حسين عبد الرازق " مصر ١٨ و ١٩ يناير " ص ١٤ ، ١٥ .

الحكومة لإقناع الطبقة العليا في مصر لكي تضع أموالها في المشروعات الصناعية، وذلك بدلاً من أعمال الوساطة والسمسرة التي تعود بأرباح أسرع وأكثر.

وفي الأسبوع الماضي انفجرت مظاهرات غاضبة في الشوارع واتسمت بعنف واستياء لم تشهده مصر منذ ٢٥ عاماً حينما طرد الملك فاروق . وكان هذا الانفجار بسبب القرارات المفاجئة التي أصدرها عبد المنعم القيسوني رئيس المجموعة الاقتصادية برفع أسعار بعض السلع . وهذا يعني رفع الأسعار في المجمعات الحكومية بمقدار ٥٠ % لنوع من الخبز بينما ارتفع سعر السكر ٢٥ % والشاي ٣٥ % ، وأنابيب البوتاجاز بمقدار ٥٠ % . وفي بلد متوسط الأجور فيه ٢٦ جنيهاً شهرياً فإن تلك الأخبار كانت كارثة . وعندما استمعت الجماهير الفقيرة في القاهرة والإسكندرية والسويس والمدن الأخرى إلى قرارات القيسوني ، اندفعت في مظاهرات عنيفة وهياج شديد لمدة ٤٨ ساعة .ويقول ممدوح سالم إن الشيوعيين مسئولون عن المظاهرات . وقد يكون هذا صحيحاً جزئياً . ولكن الاحتمال الأكثر ترجيحاً أ الكثير من أعمال الإثارة يتحمل مسئوليتها الإخوان المسلمون ، وهم جماعة محافظة عارضت نظام السادات المعتدل طويلاً .. " (١)

وحاول بعض الكتاب اليساريين بعد ذلك تحويل هذه المظاهرات من مظاهرات تطالب بإلغاء قرارات المجموعة الاقتصادية برفع الأسعار إلى مظاهرات سياسية ضد نظام السادات الذي حاد عن المسار الناصري الاشتراكي ، والحقيقة أن الشعب المصري كان مؤيداً للسادات وسياسته فقد خاض الحرب ضد إسرائيل وحقق النصر عليها لأول مرة بعد أن منيت مصر والعرب بثلاثة هزائم متوالية واحدة في عهد فاروق حرب ٤٨ ، واثنان في عهد عبد الناصر ٥٦ ، ٦٧ .

كما عمل على سيادة القانون ، وأعاد الحياة الحزبية بعد مرة ثانية بعد أن ألغتها ثورة يوليو ، وأخرج المعتقلين السياسيين من السجون والمعتقلات الناصرية ، وقى على مراكز القوى التي أفسدت الحياة في العهد الناصري وأرادت أن تستولي على

---

(١) نقلاً عن حسين عبد الرازق "مصر ١٨ و ١٩ يناير " ص ١٥ ، ١٦ .

الحكم في عهد السادات ، أما عن سياسية الانفتاح التي يأخذها القوى اليسارية منطلقاً للهجوم على نظام السادات كله فإن السادات كان مضطراً إليها بعدما قضت سياسة التأميم الناصرية على الاستثمارات المصرية والعربية والأجنبية لقد كان الاقتصاد يمر بضائقة كبيرة ولم يكن هناك بد من جذب الاستثمارات وتشجيع المستثمرين أما كون أن كثيراً من المستثمرين وجّه استثماراته إلى إنتاج سلع استهلاكية قليلة النفع وأعرض عن المساهمة في المشروعات التي تخدم المصالح الوطنية فإن تجربة التأميم المريرة هي التي دفعت هؤلاء المستثمرين اللجوء إلى هذا الاتجاه في بداية سياسة الانفتاح .

أما عن موضوع السلام مع إسرائيل الذي يعده اليساريون وبعض القوى الدينية من مساوئ السادات فإن الواقع قد أثبت أن السادات كان أعمق فهماً ، وأبعد نظراً من كل من عارضه من المصريين والدول العربية فقد استردت مصر كل أرض سيناء بكل ما فيها من كنوز وثروات ولو أن مصر قد تأخرت قليلاً عن استردادها لزرعتها إسرائيل بالمستوطنات ولاستحال استردادها ، كما تكون إسرائيل قد تمكنت من نهب ثروات سيناء خاصة البترول والغاز وأنضبت أرض سيناء منهما .

ولقد رفضت الدول التي احتلت أراضيها في ١٩٦٧: فلسطين ، وسوريا ، والأردن - معاهدة السلام فماذا كان حالها ؟

وماذا حققت بمسار الممانعة الذي نهجته ؟

وماذا عن ندمها أنها لم تشارك مصر في مباحثات السلام ؟ واضطرارها أن تتفاوض مع إسرائيل منفردة سراً أو علانية ؟

إن هذه الدول لم تحصل على شيء مما كان يمكن أن تحصل عليه أيام السادات .

أسباب ثورة ٢٥ يناير

إن المتتبع لتاريخ الثورات المصرية ، وقد تتبعناها في هذا الكتاب ، يجد أن المصري طيب وديع لا يميل إلى العنف ولا الثورة بل يميل إلى الاستقرار والهدوء

والالتزام بالشرعية والقانون . ومع ذلك فالمصري لا يقبل أبداً أن تهان ديانته أو تنتهك كرامته أو تنهب ثروته .

هذه مقدسات ثلاثة لم يسكت الشعب المصري طوال تاريخه عن انتهاك إحداها.

نعم شعب مصر شعب مسالم يكره الحرب ويحب السلام لأنه شعب مؤمن يبغض سفك الدماء ، ويعشق الإصلاح والبناء ، لكن إذا كتب عليه القتال ، وهو كره له ، قاتل وانتصر . وإذا انتهكت كرامته ، واعتدي على قوته ثار وانتقم .

فما تلك الأسباب التي جعلت الشعب المصري يقوم بثورته المجيدة ثورة ٢٥ يناير ؟

وما الجرائم التي ارتكبها النظام السابق التي جعلت الشعب المصري الوديع الصابر المتسامح يثور وينتفض .

انقطاع الأمل وانتحار الحلم

من أهم أسباب قيام ثورة يناير بل أهمها هو انقطاع أمل الشباب في صناعة مستقبل مغاير للحاضر المحبط على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فعلى المستوى السياسي ما زال الحزب الوطني يحتكر المجالس النيابية والمحلية والسلطة التنفيذية ومنصب الرئاسة لمبارك ولابنه من بعده ولا أمل في مشاركة أي من الأحزاب أو القوى الوطنية لهم في أية مسئولية لا في الأمد القريب ولا البعيد . بعد التعديلات الدستورية التي تم حياكتها في ٢٥مارس ٢٠٠٧ التي قصرت الرئاسة على الحزب الوطني وحده ، وأقصت الإشراف القضائي الكامل على الانتخابات مما ترتب عليه فتح الباب واسعاً للتزوير لصالح الحزب الوطني ورجاله وحرمان جميع القوى الوطنية التي تتمتع بالكفاءة والنزاهة والإخلاص والتي تضع الجماهير فيها ثقتها – من التمثيل في مجالس : الشعب والشورى وحتى المجالس المحلية .

أما على المستوى الاقتصادي فهناك ١٦ مليوناً يقبعون تحت خط الفقر المدقع وفقاً لأرقام صادرة عن تقارير حكومية نشرت عام ٢٠٠٩ في الصحف والوسائل الإعلامية إلى جانب إحصائيات وأرقام الجهات الرسمية في مصر. [1]

---

(١) جريدة الشروق المصرية .

وأوصدت حكومة نظيف باب العمل في وجه الشباب بعد أن أوقفت التعيين في الحكومة منذ ٢٠٠٦ ولم تفتح له مجالات عمل أخرى خارجه .

يقول اللواء أبو بكر الجندي رئيس الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء : " نسبة البطالة في مصر وفقاً لمعايير منظمة العمل الدولية وصلت إلى ٨.٩% خلال الربع الرابع من عام ٢٠١٠. وأن نسبة البطالة في مصر بلغت٥١ % من حملة المؤهلات العليا . " (١)

وأكد د. صفوت النحاس رئيس جهاز التنظيم والإدارة " أن عدد العاملين في الحكومة سيصل إلى ٧ ملايين بنهاية العام المالي الجاري ٢٠١١ مقابل ٦ ملايين حالياً.

وأرجع هذا إلى فتح باب التعيينات مجدداً بعد الثورة، موضحاً أن هذا خلاف ما أصدره د. أحمد نظيف رئيس الوزراء الأسبق من تعليمات واضحة وصريحة بوقف التعيينات بصورة كاملة وعدم تثبيت العمالة المؤقتة والخريجين منذ بداية ٣٠ يونيو ٢٠٠٦.

وقال "النحاس إن "نظيف" أجرى تحقيق معي بعد أن وافقت على تعيين خريجي معهد الصيارفة تطبيقا للحكم الذي حصل عليه هؤلاء الخريجون" (٢)

والملايين الستة المعينين في الحكومة كثير منهم يعيشون تحت خط الفقر فما يتقاضونه من جنيهات معدودة لا تفي بالحد الأدنى من متطلبات الحياة الكريمة بالإضافة إلى الإهانة التي يتعرضون لها في طوابير العيش ، وصفوف انتظار أنابيب البوتاجاز ، وتكدس المواصلات العامة ، والحرمان شهوراً طوال من تذوق البروتينات الحيوانية كاللحوم والدواجن والأسماك ومشتقات الحليب .

---

(١) جريدة الشروق ٢٧/ ٧/ ٢٠١١.
(٢) نقلاً عن وسائل الإعلام المصرية .

فإذا جئنا إلى السكن فالغالبية العظمى من المصريين إما يعيشــون فــي منــاطق عشوائية في المدن الكبرى أو في قرى فقيرة والمناطق العشوائية والقــرى تعــيش حياة غير آدمية فهي محرومة من أبسط حقوق الإنسان وهــي : المــاء النقــي ، والهواء النظيف ، والطعام الآمن ، والعلاج المتاح ، والتعليم الحقيقــي ، والســكن الصحي .. مما جعل هَمَّ معظم المصريين الهجرة خارج البلاد فإن لم تكن بالطرق الشرعية لجئوا إلى الطرق غير الشرعية معرضين حياتهم وأموالهم للفناء فبعضهم يفضل الموت في قاع البحر على العيش على أرض مصر !!

يوم الثلاثاء ١١/ ١ / ٢٠١١ كنت مشاركاً في ندوة أدبية في نقابــة الصــحفيين واستمعت لقصائد بعض الشباب وكلها كانت تنضح باليأس والتشاؤم وتقطــر مــراً وعلقماً بل راح أحدهم يسب الوطن ويهينه ومن عجب أن راح الســكرتير العــام لاتحاد الكتاب يؤيده ويقره على قوله فثرت – وهذه ليست مــن عــادتي – ثــورة عارمة دفاعاً عن مصر وأهلها وألقيت التهمة على المسئولين الذين أوصلوا الشباب إلى هذه الحالة كما ألقيت بالمسئولية على الشباب الذي ينتظر التغيير والإصلاح ولا يفعل شيئاً وقلت ما فحواه : " إذا كان الشباب يشعر بالذل والهوان فعليه أن يثــور في وجه من أوصلوه إلى هذه الحالة ، فالحرية لا توهب إنما تنتــزع ، وإذا كــان الشباب يتكلمون بهذا اليأس والإحباط وهذه السلبية والاتكالية فمن الذي بيده التغيير والإصلاح ؟! أيها الشباب أين الجهاد والكفاح ؟ كفاكم ترديداً للنغمة الســائدة فــي أوساط المثقفين والأدباء عن فساد الحاضر وضياع المستقبل وانهيار القيم .. " مــا لبثت طويلاً بعد أن ألقيت كلمتي حتى قدم لي أحد الحضور ورقة ما زلت أذكر أهم ما جاء فيها " أيها الأستاذ يا من تلوم الشباب ، خبرني ماذا يفعل الشباب وقد سدت في وجه أبواب الأمل : فلا عمل ، ولا سكن ، ولا حياة كريمة ، وإن حاول تغيير واقعه سلمياً زوروا إرادته في الانتخابات وفرضوا عليه من لا يرضى عنهم ... " التوقيع صحفي .

بعد أسبوعين فقط من هذه الندوة قامت الثورة التي كان الشباب رأس الحربة فيها وتأكدت ثقتي فيهم فمن غير الشباب يستطيع أن يغير الواقع المتردي الذي كنا نعيشه .

انتخابات ٢٠١٠

السبب الجوهري الأخر الذي دفع باتجاه الثورة هو انتخابات مجلس الشعب ٢٠١٠ التي مورس فيها جميع أنواع التزوير مما دعا كل الأحزاب والقوى الوطنية إلى مقاطعة جولة الإعادة بعدما تبين أن التزوير أصبح سافراً وأن ورقة التوت التي كانت تستر عورة النظام قد سقطت . فقد أقصيت المعارضة عن هذا المجلس ولم يبق فيه إلا الحزب والوطني وعملائه ، وكان مجلس الشعب هو المتنفس الوحيد لقوى المعارضة ذات الشعبية الكبيرة بين الشعب المصري ، ورغم أن وجود المعارضة داخل المجالس الشعبية لم يمنع من تمرير أي قانون يريده الحزب الوطني كقانون الطوارئ ، والتعديلات الدستورية المقيتة .. إلا أن حرمان القوى الوطنية من المعارضة داخل قبة البرلمان قد حوّل المعارضة إلى قوى ثائرة خارجه .

لذا كان طبيعياً أن جميع البرلمانيين السابقين من الأحزاب والإخوان المسلمين الذين أسقطهم الحزب الوطني في الانتخابات الأخيرة في مقدمة من دعا إلى التظاهر يوم ٢٥ يناير ضد النظام المستبد الفاسد ، كما تصدروا هذه المظاهرات عند اندلاعها .

سيناريو التوريث

قد يسأل سائل لماذا لجأ الحزب الوطني إلى التزوير السافر لانتخابات مجلسي الشعب والشورى رغم أن المعارضة السابقة لم تحل دون تمرير القوانين سيئة السمعة والإجابة ببساطة أن هذا المجلس هو الذي سيمرر الحكم من الأب لابنه من مبارك لجمال فلابد أن يكون جميع أعضاء مجلس الشعب ممن يصفقون لمسرحية التوريث عند عرضها وقد سبق الانتخابات المزورة التعديلات الدستورية ٢٠٠٧

التي وضعت شروطاً للترشح لمنصب رئيس الجمهورية لا تنطبق إلا على شخص واحد في جمهورية مصر العربية هو جمال مبارك .

وكانت القوى الوطنية تحلم باليوم الذي تتخلص فيه من سنوات طويلة من الاستبداد والفساد ومبارك إن عاش اليوم فلن يعيش للغد وقد بلغ من العمر أرذله لكن أن يرث جمال أباه في الحكم فهذا معناه سنوات أخرى لا يعلم إلا الله مداها من احتكار الحزب الوطني للحكم وموارد البلاد .

بوليسية الدولة

الأصل أن يكون نظام الحكم في خدمة نظام الدولة وجموع شعبها ، ولكن منذ استبد عبد الناصر بحكم مصر عكس الأمر إذ جعل نظام الدولة وجماهير شعبها في خدمة النظام الحاكم وجمع كل السلطة في يده وحرم كل القوى والوطنية من المشاركة فيها ، واستخدم كل صنوف العنف والقهر لتحقيق هذا فالاعتقال والتعذيب والفصل من العمل والمحاكم الاستثنائية ، والشرطة ، والجيش ، وأجهزة المخابرات، وأهل ثقة النظام في كل مواقع العمل كلها موجهة ضد أي شخص أو جماعة يختلف ، مجرد اختلاف ، مع النظام الحاكم .

وللأسف أصبحت هذه السياسة التي سنها عبد الناصر من ثوابت نظام الحكم في مصر ، وإن كان هناك اختلاف في النسبة وتنوع في الأساليب ، وإذا كانت الجماهير الغفيرة من المصريين في الحقبة الناصرية كانت مؤيدة للنظام الحاكم بفضل غيبة الحقائق ، وإخراس أصحاب الرأي ، وسطوة الإعلام الموجه ، وكاريزما الزعيم فإن الثورة التي شهدها الإعلام العربي والانفتاح على كافة الآراء والاتجاهات ، ومساحة الحرية التي أعطيت لأصحاب الرأي وعزوف الناس عن الإعلام الموجه ، وغياب كاريزما الزعيم ، والمنجزات الكبرى كل هذا أدى إلى فقدان مبارك ، خاصة في السنوات العشر الأخيرة ، لتأييد الجماهير مما ألجأه إلى إحكام القبضة الأمنية ، وتفعيل قانون الطوارئ المعمول به منذ هزيمة ١٩٦٧ هذا القانون الذي يعطي النظام الحاكم الحق في القبض على أي شخص ، وتعذيبه ،

واعتقاله ، ومداهمة بيته دون إذن من النائب العام ، ودون تقديمه للمحكمــة ودون منحه الحق في الدفاع ، ويظل هذا المتهم البريء شهوراً وسنوات ملقى في غياهب السجون دون محاكمة ودون أن يعرف أهله عنه شيئاً . وإن قدم لمحكمة يجبر على الاعتراف بجرائم لم يرتكبها تحت التعذيب والتنكيل ، ولقد راح آلاف من المواطنين الشرفاء أصحاب الرأي أو المواطنين العاديين ضحية لقــانون الطــوارئ الجــائر وجهاز أمن الدولة القائم على تنفيذه الذي أدخل الرعب في قلوب المصريين .

لكن لكل صبر نهاية ولكل احتمال حد. فقد ضج الناس من قبضة الدولة الباطشــة وجهاز أمنها الطاغي ولم يعد لديهم قدرة على الصبر والاحتمال أكثر من ذلك .

يدعو تقرير منظمة العفو الدولية ، الصادر بعنوان" : حان وقت العدالــة: نظــام الاعتقال البغيض في مصر"، إلى إجراء تحقيق مستقل على الفور فــي انتهاكــات حقوق الإنسان التي ارتكبها جهاز أمن الدولة، الذي كان مصدر خوف شديد.

وقالت منظمة العفو الدولية: "تحت ستار حالة الطوارئ، سُمح لقوات أمن الدولــة في عهد الرئيس مبارك بارتكاب انتهاكات جسيمة لحقوق الإنسان دون خوف مــن الفحص أو العقاب."

ويذكر تقرير منظمة العفو الدولية : " أن ضباط مباحــث أمــن الدولــة كــانوا يستخدمون الاعتقال الإداري لاحتجاز أشخاص من منتقدي السلطات المصرية، ومن نشطاء حقوق الإنسان، والمشتبه بهم جنائياً، لفترات طويلة حسبما يحلو لهم، وبدون أن يعتزموا تقديمهم للمحاكمة أمام محاكم جنائية.

ولم تفصح السلطات مطلقاً عن عدد الذين اعتُقلوا إدارياً. وتشير تقديرات منظمات محلية ودولية معنية بحقوق الإنسان إلى أن عدد الذين اعتُقلوا إدارياً خلال السنوات الأخيرة من حكم الرئيس مبارك يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف.

وفي مئات الحالات التي فحصتها منظمة العفو الدولية، لم يتم إبــلاغ المعتقلــين بسبب القبض عليهم، ولم يُسمح لكثيرين مــنهم بالاتصــال بالعــالم الخــارجي أو

بالحصول على مساعدة قانونية، كما اختفى بعضهم لعدة أشهر. وكان تعذيب المعتقلين أمراً معتاداً، بما في ذلك الصعق بالصدمات الكهربائية، والضرب، والتعليق، والجلد، والحرمان من النوم.

وفي مايو ٢٠١٠، أعلنت السلطات المصرية أن استخدام الاعتقال الإداري سوف يقتصر على منح جرائم الإرهاب والمخدرات، وهو الأمر الذي يحد بالتالي من نطاق تطبيق قانون الطوارئ. والواقع أن السلطات دأبت على استخدام صلاحيات الطوارئ لخنق حرية التعبير وحرية الاجتماع ولقمع المعارضة السياسية السلمية.(١)

خالد سعيد

من أشهر ضحايا الدولة البوليسية خالد سعيد الذي توفي على يد رجال الشرطة في منطقة سيدي جابر في السادس من يونيو ٢٠١٠، بعد أن تم ضربه وسحله حتى الموت أمام عدد من شهود العيان.

ووفاة شاب آخر هو السيد بلال أثناء احتجازه في مباحث أمن الدولة بالإسكندرية، بعد تعذيبه في إعقاب حادثة تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية.

ويصل إجمالي ضحايا عنف وزارة الداخلية المصرية لنحو ٣٥٠ (شهيد) في آخر ثلاث سنوات، حسب تقديرات المنظمات المعنية بحقوق الإنسان .

مما دعا إلى إنشاء الناشط الالكتروني وائل غنيم (١) صفحة (جروب) " كلنا خالد سعيد " على شبكة الفيس بوك الذي جذب تعاطف مئات الآلاف من المصريين والذي دعا ، كما دعت أحزاب وجماعات ومنظمات وحركات أخرى ، إلى مظاهرات ٢٥ يناير لتحرير مصر من الفساد وإسقاط نظام الرئيس مبارك . كما

---

(١) نقلاً عن موقع منظمة العفو الدولية بتاريخ 20 أبريل ٢٠١١

(١) وائل غنيم شاب مصري يعتقد كثيرون أنه أبرز مفجري ثورة ٢٥ يناير ، قال عن نفسه، في تصريح صحفي، أنه "مناضل كيبورد"، في تواضع أمام من قدموا أرواحهم في هذه الثورة،اعتقل بعد قيام الثورة بيومين وأفرج عنه يوم ٧ فبراير .
شكك البعض في مسئولية وائل غنيم عن إنشاء صفحة " كلنا خالد سعيد " .

كان للصفحة أو المجموعة دور كبير في التنسيق بين الشبان ونقل صدى المواجهات مع رجال الأمن.

فالثورة عندما بدأت يوم ٢٥ يناير كانت مكونة من الشباب الذين شاهدوا أو انضموا لصفحة (كلنا خالد سعيد) ثم تحولت إلى ثورة شاركت فيها جميع طوائف الشعب المصري.

الثورة التونسية

هي ثورة شعبية اندلعت أحداثها في ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ تضامناً مع الشاب محمد البوعزيزي الذي قام بإضرام النار في جسده في ١٧ ديسمبر ٢٠١٠ تعبيراً عن غضبه على بطالته ومصادرة العربة التي يبيع عليها وقد توفي البوعزيزي في الرابع من يناير ٢٠١١ نتيجة الحروق أدى ذلك إلى اندلاع شرارة المظاهرات في يوم ١٨ ديسمبر ٢٠١٠ وخروج آلاف التونسيين الرافضين لما اعتبروه أوضاع البطالة وعدم وجود العدالة الاجتماعية وتفاقم الفساد داخل النظام الحاكم. أجبرت هذه المظاهرات التي شملت مدن عديدة في تونس الرئيس بن علي على التنحي عن السلطة ومغادرة البلاد بشكل مفاجئ بحماية أمنية ليبية إلى السعودية يوم الجمعة ١٤ يناير ٢٠١١ ".

وقد شجّع نجاح الثورة التونسية القوى الوطنية المصرية وشباب الثورة بالقيام بثورتهم ؛ فقد أعطتهم ثورة تونس أملاً في إمكانية التغيير السلمي للنظام الفاسد .

كما ألهمت الثورة المصرية الثورات العربية التالية عليها .

لقد استعرضنا في هذا الكتاب تاريخ مصر كله مع الحكام الظالمين أجانب كانوا أم محليين ، ووجدنا أن المصريين ما استكانوا لظالم ولم يرضوا أبداً بالهوان فهل مازال من اتهم شعب مصر العظيم ، ومن صدّقهم ، بأنه شعب جبان وعبد لمن غلب ويتسم بأخلاق العبيد على رأيه في شعب مصر ؟!

***

كتب للمؤلف

كتب للمؤلف

(أ) كتب مطبوعة

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢- الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

سلسلة كتب دروس سياسية من التجربة الناصرية

١- آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢- العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو . " " " " "

٣- إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي . " " " " "

٤- نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ." " " " "

٥- أمريكا وعبد الناصر من التحالف للعداء . " " " " "

٦- هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية . " " " " "

سلسلة كتب نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١- اليهود والصليبيون الجدد . دار الإبداع للصحافة والنشر

٢- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) " " " "

٣- هذه استراتيجيتهم ، فماذا نحن فاعلون ؟ " " " "

٤- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن " " " "

٥- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة " " " "

٦- اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية . " " " "

كتب عن الثورة

١- متى يثور المصريون . زهور المعرفة والبركة

٢- دروس من ثورة يوليو لثورة يناير . " " " "

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون . (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون . (قصص قصيرة) " " " "

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) " " " "

(ب) كتب تحت الطبع

١- رؤية إسلامية للحضارات الإنسانية .

٢- الخلاص الإلهي في آخر الزمان بين الدين والسياسة .

٣- الطبيعة العربية والصهيونية ، الزعامات المزعومة والسياسات المدروسة .

٤- معجزة إسرائيلية أم خيبة عربية .

كتب المؤلف في الجامعات الأجنبية

* عدد (٧) كتب في مكتبة جامعة هارفارد رقم ١ في الترتيب العالمي للجامعات .
* عدد (٥) كتب في مكتبة جامعة استنافورد رقم ٣ في الترتيب العالمي للجامعات.
* عدد (٤) كتب في مكتبة جامعة كاليفورنيا رقم ٤ في الترتيب العالمي للجامعات .
* عدد (٤) كتب في مكتبة جامعة كولومبيا رقم ٧ في الترتيب العالمي للجامعات .
* عدد (٤) كتب في مكتبة جامعة برينستون رقم ٨ في الترتيب العالمي للجامعات .
* عدد (٥) كتب في مكتبة جامعة ييل رقم ١١ في الترتيب العالمي للجامعات .
* عدد (١) كتاب في مكتبة جامعة دوكي رقم ٣٢ في الترتيب العالمي للجامعات .
* عدد (١) كتاب في مكتبة جامعة تكساس رقم ٣٦ في الترتيب العالمي للجامعات .

كتب للمؤلف في الجامعات العربية

* عدد (٥) كتب في مكتبة جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية .
* عدد (١) كتاب في مكتبة جامعة الملك فهد – المملكة العربية السعودية .

* عدد (١) كتاب في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود المملكة العربية السعودية
* عدد (١) كتاب في مكتبة جامعة الحسين بن طلال- الأردن .
* عدد (١) كتاب في مكتبة جامعة مؤتة – الأردن .
* عدد (١) كتاب في مكتبة الجامعة الأردنية للعلوم والتكنولوجيا .
* عدد (١) كتاب في مكتبة جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان .
* عدد (١) كتاب في مكتبة جامعة الإمارات – الإمارات العربية المتحدة .
* عدد (١) في مكتبة جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية.
* عدد (١) في مكتبة كلية دار العلوم – جمهورية مصر العربية .

كتب للمؤلف في المكتبات العالمية والعربية

* عدد (٦) كتب في مكتبة الكونجرس الأمريكية .
* عدد (١) كتاب في مكتبة الإسكندرية .
* عدد (٣) كتب في مكتبات مبارك العامة .
* عدد (١) كتاب في مكتبة وزارة الشباب الإماراتية .
* عدد (١) كتاب في مكتبة المجلس الوطني اليمني .
* عدد (١) كتاب في مكتبة وزارة الخارجية أبو ظبي .
* عدد (١) كتاب في مكتبة مسجد "...رة الفلسطيني .

– كتبت عن مؤلفاته عديد من الصحف العربية ، والأجنبية والمواقع الالكترونية .

* * *

التليفون المحمول : ٠١٢٦٤٠٦٤٨٩

البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

الموضـــــــــــــــــــــوع | الصفحة

الفصل الأول : الشخصية المصرية والثورة

الفصل الثاني : ثورات المصريين في العصور القديمة

الفصل الثالث : ثورات المصريين في العصور الوسطى

الفصل الرابع : ثورات المصريين في العصر الحديث

ثورات المصريين في التاريخ المعاصر